لجنة التأليف والترجمة والنشر



تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ — ١٩٣٧

عمرو بن بحر الجاحظ

عصره

كان عصر الجاحظ عصر استقرار وازدهار ، ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، واطردت سياستها ، وخفت سلطانها ، وعظم شأنها ، ولم تكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التي نشبت بين الأمين والمأمون ، للنزاع على ولاية العهد ، فسالت الدماء في خراسان والعراق ، وأنفق الأمين الأموال ، حتى إذا استقل أخوه المأمون بالخلافة ، عادت الأمور الى مجراها الأول في عهد الرشيد وأبيه المهدي وأخيه الهادي ثم أصابت الدولة بعد عهد الواثق ، فصل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم

وكانت العلائق السياسية بين ملوك العباسيين وملوك غربي أوربا مثل « شارلمان و بنيه » على غاية الوئام ، يتبادل العباسيون مع ملوك الافرنج السفراء والهدايا ، ويريد بنو العباس من هذا التلطف على الغالب أن يقف الافرنج بالمرصاد لدولة الاندلس أما دولة روم القسطنطينية ، فكانت في بلاء من حدث بني العباس الى زمن الواثق ، تغزوها في الاحايين فتظفر وتغنم ، حتى اضطرت أن تؤدي للعباسيين جزية سنوية

وعرف الرشيد أن دولة الامويين في الاندلس أخذت كدولته تعرج معارج الحضارة ، وتأخذ من كل وجه بأسباب القوة ، فخاطر بقدمها نحو بلاده ، ورأى أن يقيم أمامها حاجزاً في إفريقية من دولة الاغالبة ، فمنح هذه شبه استقلال ، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد ، فقاتلهم بجزء من

حسبه ، فأيقنوا أن لا سبيل إلى تحقيق رغائبهم فى قلب اوضاع الدولة ، وعادوا عما لاقوا من الجدّ فى استئصالهم يتستّرون بالتقيّة ، وأرجأوا بثّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب

واهم ما تم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقة على عهد المهدى ، وتقطيع كتبهم كتقطيع اوصالهم ، استمتاع ارباب العقول بحرياتهم ، فانسأوا يفكرون على ما شاءوا فى نطاق الاسلام ، لا يخرجون عن رُخَصه وعزائمه ، وكثر الباحثون والدارسون ، واخذ الخلفاء والامراء بايدى من اتقنوا فنهم وعلمهم ، واستدّ الغرام بنقل العلوم المادية استداده فى تدوين العلوم الدينية ، وفى هذا الزمن نبغ عظماء فى علوم الدين ، وعظماء فى علوم الدنيا ، وعظماء فى الآداب والفنون ، وعظماء فى الحرب والسياسة ، وكان كل من تفرّد بضرب من ضروب العلم والادب يلقى من الخلفاء على الاكثر انواع النحلة والإكرام ، وتخلع عليه كل جميل

وفى هذا الدور نبغ أئمة المذاهب الاربعة التى وقع الاكتفاء بها عند اهل السنة ، ودوّن مذهب مالك وابى حنيفة وغيرهما ، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغة والشعر ، وكثر عظماء القراء ، وزاد عدد النقلة من الفارسية والسريانية واليونانية ، وراجت الوزارة رواجًا عظيماً ، لما بدا الملوك يجمعون خزائن الكتب فى قصورهم ، ويسمون دُور الحكمة فى عاصمة الخلافة ، وعَلِق الامراء وعِلْية الامة يتنافسون فى اقتفاء آثار خلفائهم فى خدمة الآداب ، يُحظُون ويُعطُون كل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف وبعد ان كانت البصرة والكوفة تستأثران بالحركة العلمية ، شاركتهما بغداد بهذا الشرف ، ثم اربت عليهما بعد وافاها اهل الفضل من الامصار ، فما هى الا اعوام قليلة حتى اصبحت بغداد

مدينة علم ، وكانت من قبل مدينة ملك ، بما نقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم

وأيقن أرباب الصناعة أن الدنيا لا تأتى من غير طريق الكتابة ، وأن « كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول » فأكبوا على الأدب ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وكان إذا نشأ رب النشب فى ولده ذكاء جاء بالمؤدبين لتعليمه ما يشتهى نفسه من الآداب ، ولذا أصبح التعليم صناعة ، وحسن عيش المؤدبين ، وغدا التأديب أيضاً طريقاً إلى المجد والسؤدد ، على ما اكسبت منادمة الملوك والأمراء صناعة أربابها ، وقد بلغ سلطان الندماء فى قصور العظماء مالا يبلغه سلطان الوزراء والكتاب ، وهو ابن الخلوة والجلوة ، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار

عمرت مجالس العلم والأدب ، وأنشئت دور الكبراء مثابة للمتفننين والاخصائيين ، يغشاها أرباب الأفكار ، وحملة الآثار والأشعار ، والعهد بعلماء البصرة يحلقون إلى المسجد والمربد ، وكان المسجديون والمربديون جماعاً من شعب الأدب والرواية ، والعهد بالكوفة يختلف المؤمنون من بنيها إلى الكناسة مجمع الشعراء والأدباء ، ومسجدهم مجمع علمائهم ، وملتقى قرائهم ، والمنافسة بين المصريين ، الكوفة والبصرة ، فى الفقه والحديث واللغة والنحو والعربية مشهورة مذكورة ، وبغداد تعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وحَفَدة الشريعة ، وقادة الفكر ، وسفراء الحضارة ، وأمراء البلاغة

وهناك مجالس اللهو تعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم ، ويتبارى أرباب النعيم بالرفاهية فى اقتناء المسمعات والقيان ، وغدت الجارية إلى تجد من نفسها طبيعة مواتية فى هذا الفن ، تتوفر على إتقانه ، وتلقف ما يلزم فيها

من أدب وسعر ، لجاء مهن أدبات وساعرات ، وعدا لكل فر محه فمه ، ولكل ادب خُطّاب ، والناس يمررون طعم الحياه ، و يَنعمون بماهجها ، وأصبح المسلمون ولا سيما اهل الدوله ومن والاهم ، يعسدون عن حياه الترمت والتحاف يُعدَهم عن الامه ، وراحوا محصرون مجالس العناء على يصون ويعمف عالياً ، وحف الإنكار على من عرفوا بهذا السان ، واساب معظم الطبقات بالمف ذلك ن عير نكير

وأمارب الزعيه الارض رعَمّروها ، فعاصب البروه ، وامبلاب حراس الدوله بالاموال ، وراد العمران ، وحدّ كل عامل فى ناحيته ان سمى حاساً من الحمايه على ما بريد فى ريع بلده وعمائه ، وعدا عرام معظم الخلفاء بسطم ا ور الزعيه ، يوارى عرامهم فى دفع كل معتد على سلطانهم

ركانت البصرة مساء العراق الكبرى من أعظم ما يكون عليه الفُرَصُ البحريه فى الدرل العظمى ، سادل بحاره بلاد العرب مع موانى المحيط الهندى حتى الصين ، و يعساها اصناف من سعوب السرق فى آسيا و افريقيه ، والمصرى كالجبرى مسهور باسفاره ومعامراته ، واصبح البحر الرومى بحراً عربيا ، و براجع الروم الى موانى بلادهم ، وعدا السلطان الاكبر فيه لاساطيل مصر والسام رافريقيه والاندلس ، واعترلت سعوب حـ و بى اوربا فى وانيها لا يحر لها سفن ، ولا يحمل لهم بضاعه ، والعرب عما عرف من مرانهم على التجاره سولون كبرها فى البر والبحر ، رالزراعه والصناعه على الاعم الاعلب فى ايدى ابنا الذمه من السريان والعجم والقبط والبربر وعيرهم ، و بـ ـب حدود الاختصاص بالصناعات البدنيه والعلميه ، وقلّ فى الناس المتسائمون وكبر المترفون

كثب الرواج فى هذا العصر لكل صناعه ولكل بضاعه ، واستوب سعوب

المملكة العباسية أمة ذات حضارة مفردة ، وثروة شخصية ظاهرة ، وكان حظ
الجميع سواء في الاستمتاع بالأَمَنة والسلامة ، وعلى قدر كفاية الكفء ، وإخلاص
المخلص للدولة ، يَخلُص الناس إلى المراتب والمناصب ، وعلى نسبة عمل العاملين
في صنوف الأعمال يشقون ويسعدون ، لا يخاف الناس إلا أنفسهم ،
ولا يُلزَمون أن يقدموا حسابهم لغير دينهم وسلطانهم ؛ فحضارة هذا العهد
حضارة صقلها الاسلام والعربية ، واشترك في خدمتها أهل كل نحلة وملة ، ووقف
كل امرئ عند حده ، ليس له أن ينكر على من يناقش إلا ببرهان ، وقلما يتعدى
حِجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصة ، وصفحات الأسفار
والرسائل ، فهذا العصر هو خير عصور بني العباس على الناس ، وفيه سَعِدَ العلم ،
وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ

نشأته ونعته

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ، من بني كنانة بن خُزَيمة ،
والد النضر أبي قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم كنانة طابخة ،
والليثي نسبة الى الليث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة ،
والى هذه القبيلة ينسب أبو عثمان الجاحظ ، وقيل انه كان مولى أبي القَلَمّس
عمرو بن قِلَع الكناني ثم الفُقَيمي فهو كناني صليبة خالص النسب ، وكان
جده فزارة أسود اللون ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وأُطلق على عمرو اسم
« الجاحظ » لنتوء عينيه ، ويقال له « الحَدَقي » لذلك ، وكان مشوّه الخلقة ،
فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله

ولد في البصرة حوالي سنة ستين ومائة ، وتوفي والده وهو طفل ، فلما

برع ع بعلم الخط والقراءة فى احـد كتاتيب بلده ، واخذ منذ كان يافعاً يلتقى الفصاحه سماعاً عن العرب فى المربد ، وكان المربد اشهر محال البصره ، و به كانت فى الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، على مثال سوق عُكاظ بين نخله والطائف فى الجاهليه واتصل بعلماء فى الدين والآداب ، مثل الأصمعى ، وأبى زيد الانصارى ، وأبى عبيدة مَعمَر بن المثنّى ، والاخفش ، والنظام ابراهيم ابن سيار البلخى ، وصالح بن جناح اللَخمى أخذ اللغــه والادب عن الثلاثه الاولين ، والنحو عن الاخفش ، والكلام عن النظام ، والحكمه عن ابن جناح

وحدّث عن ثُمامه بن اشرس النميرى المتكلم ، و يزيد بن هارون ، والسرى ابن عبدويه ، والقاضى أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمه وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ، ومحمد بن عبد الله بن أبى الدنيا ، ودعامه بن الجهم ، وابو سعيد الحسن بن على العدوى ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، و يموت بن المزرّع ، وأبو العَينا محمد بن القاسم

وقال عن نفســه انه جلس الى ابى عبيده والاصمعى و يحيى بن نجيم وأبى مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواه البغداديين

اولئك الذين عرفوا ممن اخذ الجاحظ عنهـم ومنهم نَجَم ، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره ، فكان له فى كل حلقه من حلاق البصره مدرسين

و اذا نظرنا فى اختصاص اساتيذ الجاحظ من غير المحدثين ، نرى الاصمعى ممن جمع سنة اللغه فى النحو والنبات والابل والشاء والوحوش وغير ذلك ، وقالوا انه كان يحفظ ثلث اللغه كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركره يحفظها كلها وصنف ابو عبيده فى البارى والحمام والعقارب والحيات والزرع « وكان الغريب اغلب عليه وأخبار العرب وايامهم » وكان يرى راى الخوارج ، ووصفه بله بده

بانه لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى اعلم بجميع العلوم منه والف ابو زيد الانصارى فى القوس والترس والقضب والابل والوحوش ، وخلق الإنسان والمطر والنبات ، وكان هؤلاء الثلاثه فى عصرهم « أئمه الناس فى اللغه والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أخذ جلّ ما فى ايدى الناس من هذا العلم بل كله » كان الاخفش الاوسط من اعلم الناس بالنحو والغريب ، وصالح بن جناح كان ممن ادرك التابعين ، وكلامه مستفاد فى الحكمه كما قال ابن عساكر ، اخذ عنه الجاحظ فى نيسابور ، اما النظام ، شيخ المعتزله وامام الائمه ، فقد كان من جملة ما يحفظ القرآن والتوراه والانجيل والزبور وتفسيرها ، مع كثره حفظه الاشعار والاخبار واختلاف الناس فى الفتيا ، وقد وصفه الجاحظ بقوله ان الاوائل يقولون فى كل الف سنه رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو إسحق النظام وقال انه ما راى احداً اعلم بالكلام والفقه منه وقال عن نفسه انه وجد عند ادباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات ما لم يجده عند مشايخه الذين اخذ عنهم الشعر والادب ، وبهم عرف ماهيه الشعر ، وقام بحق الادب والكتابه

هذه اوجه الدراسه التى وجهت اليها مدارك الجاحظ ، وهؤلاء اشهر اساتذته الحكماء من الادب والاخبار واللغه والكلام والحكمه ، اى ثقف بالثقافه الراقيه لعهده ، وزاد على هذه العلوم النظريه أنه اعمل فكره فيما تعلم ، وحلل المسميات كما تعلم الاسماء ، واتسع عقله للاستقلال عما لقنه من الدين ، فكان صاحب مذهب وأتباع ، والغالب انه كان يعرف الفارسيه وكان ولعاً بالكتب ، يكثر الاختلاف الى الوراقين فى البصره وبغداد ، يقضى فى حوانيتهم ساعات « حدث ابو هفان قال لم ار قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ

جانبه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » وله وراق خاص

روى الخطيب البغدادي عن محمد بن سليمان الجوهري قال : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، قال : فخرجنا يوما لنتنزه ، فبينما نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف معها الجاحظ ونحن ننظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، وأخذ الأوراق وقال : انتظروني ، ومضى بها إلى منزله ، فلما عاد أخذنا نهزأ به ونقول : فرب بقطعة من العلم وافرة ، وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس

نشأ الجاحظ من أبوين فقيرين ، قيل إنه رئي بسيحان أحد أنهار البصرة يبيع الخبز والسمك في صباه ، وقيل إن أمه كانت تموّنه في حداثته ، فجاءته يوماً بطبق عليه كراريس ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به . فخرج مغتماً وجلس في الجامع ، ويونس بن عمران[1] جالس ، فلما رآه مغتماً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرّب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، ودخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك ، فقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدّمتها إليّ

ظل درس الجاحظ عميقاً في شبابه ، واتسع في الكهولة حتى بالمعية كتاب العباسية للمأمون ، وعلى عهده تصدر في ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام ، ثم

---

(١) يقول ياقوت إن زيادان ناحية ونهر بالبصرة منسوبة إلى زياد مولى بني الهيثم جد يونس بن عمران بن عمران بن جميع بن يسار بن زياد

اسمعى فأعى ، وكان سهل بن هارون يقول إن نسب الجاحظ فى هذا الديوان اول نجم الكتاب واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فاقطعه ابن زيات حَرِيب ، وكتب إليه مرة ربن المتوكل « إن امير المؤمنين يَجِدُ[1] بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لِعِلْمِك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعدك عن مجالسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به وموفر عليه »

ثم حثه على الفراغ من كتاب الرد على النصارى والتعجيل به اليه ، وقال « وسال مساهرتك ، وقد استطلقه لما مضى ، واستسلفه لك ، لسنة كاملة مستقبلة »

والظاهر ان أداء الرواتب كان يتأخر فى بعض الايام ، حتى قال الجاحظ فى ابى الفرج نجاح بن سلمة الكاتب — وكان على الاموال زمن الواثق والمتوكل ، واليه اهدى رسالته فى امتحان عقول الاولياء ورسالته فى الكرم — هذه القصيدة

أقام بدار الخفض راضٍ بخفضه	وذو الحزم يسرى حين لا احد يسرى
بطئٌ الرضا سيئاً يسيراً مُهَوِّناً	ودون الرضى كأس امرُ بن الصبر
سواء على الايام صاحب حسكه	وآخر كابٍ لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم ارجو نواله	وقد كنت لا أُعطِى الدنية[2] بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل يسره	ويحمل حسن النشر وافيه الوفر
رَبَعت عَلَى ظَلعى[3] وراجعت منزلى	فصرت حليفاً للدراسة والفكر
وساورت اخوانى فقال حليمهم	عليك الفتى المرئ ذا الخلق الغمر
أُعِدُك بالرحمن من قول شامت	« ابو الفرج المأمول يزهد فى عمرو »

(١) وجد وجدا فى الحب فقط وكذا فى الحزن لكن بكسر ماضيه (القاموس)

(٢) فى الحديث علام نعطى الدنية فى ديننا ، أى الخصلة المذمومة

(٣) من المجاز « ارق على ظلعك » اى ارفق بنفسك ، واربع على نفسك عكف واسطر

ولو كان فيه راعياً لرأسه   كما كان دهراً في الرخاء وفي اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسد   وذو الود مجحوب[1] الفؤاد من الذعر
فإن نزع ودي بالقبول فاهله   ولا تعرف الأقدار عذر ذوي الغدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التي تنهال عليه من العظماء وأرباب الدولة ، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها باسمائهم ، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة ، فتبسم وقال إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك ، فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت الى البصرة ، ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا تسميد كان هذا والجاحظ في شبيبته ، والخلفاء والعظماء يبتغون قربه ، ويتناحرون بصداقته ، ومن أصدقائه الفتح بن خاقان[2] ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ولم يزل الجاحظ يتقرب الى الخلفاء ، واعترض عليه بعضهم في ذلك ، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم ، وشنعوا به من جاه وسطوة « اني لم أر أعيب من الجاحظ لنفسه ، وإن كان أوحد أهل البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا ،

---

(١) المجحوب الذاهب اللحم المهزول

(٢) يقول ابن خلكان إنه كاتب للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة قال ابو هفان لم أر قط ولا سمعت أكثر محبة للكتب والعلوم منهم الجاحظ والفتح ابن خاقان وإسماعيل بن اسماعيل القاضي

وهو يلتمس فوائدها والحياة بها » بيد أن الجاحظ كان يفضل أن يكون أ يراً وسط كتبه على الصورة التي رأى عليها إسحق بن سليمان ، وقد دخل عليه في إمرته ، فرأى السماطين والرجال مثولاً ، كأن على رءوسهم الطير ، ورأى فرشه وبزته ، ثم دخل عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر. قال الجاحظ: فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السودد الحكمة.

ومع ابتعاد الجاحظ عما يستهوي من المظاهر اتهب أيام صائفة لما اشتهر بين العالمين قدره ، ويحامي الخلفاء لما يعرف من بطشهم إذا غضبوا ، على ما لا يواري أفضالهم إذا رضوا. ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في خلافة المتوكل ، وكان الجاحظ في أسبابه وناحيته منحرفاً عن أحمد بن أبي دواد ، هرب الجاحظ فقيل له: لِمَ هربت؟ قال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور. يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة.

وذكروا أنه لما قتل ابن الزيات حمل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة وعليه قميص سَمَل ، فلما دخل على ابن أبي دواد عابه عاباً قاحساً. فقال الجاحظ: خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسن في الأحدوثة من أن أُحسن وتسيء ، ولأن تعفو عني في حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام مني ، فعفا عنه وصدّره في مجلسه

مرهبه وأخلاقه

يعدُّ الجاحظ من الطبقة السابعة في المعتزلة ، وفي هذا المذهب رُبي وعليه نشأ ، وعنه ناضل وله أَلَّف ، وقد خالف أصحابه في مسائل طبعته ، فسميت فرقته الجاحظية ، وزعموا انه قال ان المعرفة طباع ، ونقل عنه انه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الاعراض ، وقال اذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، واما الارادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس اليه ، وزاد على ذلك اثبات الطبائع للاجسام ، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، واثبت لها افعالاً مخصوصة بها ، وقال بعدم استحالة الجواهر ، وأن الاعراض تتبدل والجواهر لا يجوز ان تفنى ، ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات ، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة

هذا مجمل ما يقال في مذهب ابي عثمان ، اما أخلاقه ومزاجه ، فما كان بالسوداوي ولا بالعصبي ، وكان أميل الى التفاؤل منه الى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المجرب ، لا بعين المُغتبط المُحنَق ، يبدو السرور عليه اذا خطب واذا كتب ، وتغمره الغبطة ، ويقتاده الدعابة ، وخفة الروح فيه جبلة ، يبادر الى الطيبات المختلفة ، بغير تهيب ، وتَولع[1] بذلك ، لا تفزعه المظاهر ، ولا يتوقف في ايراد النكتة ، فطر على الوفاء لاصحابه ، والثبات على ودهم وعهدهم ، ولا يسمع ممن يعرف وممن لا يعرف ، لاعتقاده ان الوشاة متهادة ، وصعب عليه أن يشهد الزور

كان يحافظ على اوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد ، بعيداً عن الفوضى

(١) ولع كوضع ولعا وولعانا محركة استخف

بعض البعد ، و بحب النظام فى الحمله إلا أنه كان لا يدحر المال إلى أيام العسرة ،
و ادا اتاه بعمه لا يحسب للعد حساباً كبيراً ، ولذلك كان يعسر احياناً وبعوره
النفقه ، و يلوب على الناس بربعى به وما كان ضيقاً على إخوانه ، وود لو احد
من الأغنيا فاقصل على الفقراء ولئن نسا ن سب وضيع ، لقد كان على جانب
عظيم من عزه النفس

ما كان الجاحظ بالمتزمت ولا بالمتنسك ، قام بما فرض الاسلام عليه من
الفروض والواجبات ، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شان المسلمين ، دعاهم
الى الحياه الفاضله ، وحبب إليهم دينهم ودنياهم ، ليستمموا امه عزيزه فاضله
فى اخلاقها ركان برى سعاده اصحاب السلطان واصحاب الثروه بزول بزوال
اربابها ، او بما يعرض لها من اسباب الفناء ، وان العمل الصالح هو الاثر الذى
يطل على الايام ، ولذلك كان يعنى عمله ، لا يوحى منه الا ما يجدى فى الحياه
والمعاد وسع علمه الناس والامصار ، ونظر اكثر من غيره الى ما وراء حدود
النظر ، وما كان بالمقلد الجامد ، ولا ممن ياخذ كل ما اتصل به قضيه مسلمه
لا بحث ولا نظر قصاراه التجديد ، والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف الى
كل شىء معرفه تامه

راى من العبث بكلا ف الايام ضد طباعها ، فلابس دهره كما شاء فى الجمله ،
لا كما أراد هو بالتفصيل ، فضحك لسيماء الحياه الدنيا ، وهزأ بما يراه غيره
نعمه ، عرف أن السعاده فى الارض مستحيله ، وان العالَم يحلو و يمرّ ، فرضى
بحلوه ومره ، وفى الرضا والقناعه غناء وسعاء راى فساد الناس بما كسبت
ايديهم من الكذب والزور والحسد والحسب ، فاستعمل من دهائه ما ابقى به
سرهم ، وعَلِق يطمع فى الجمله لتعليمهم ، ومداواه امراض نفوسهم ، ويعاس فى

دعوبه ، لا بعس صاحب حبال ، وطالب محال ، بل بعس للرحل الحكم ، يعدص البوم بعد البوم من علمه على بلمده ، بعدر ما سهد فبه من اسـعداد ، و سمح له من رأس ماله الواسع ما برحى له ان سم به ، وهو لا سعر اهل حبله وفصله ، ولا بعرم على كل ما هم فبه

حُلى بعاداً كما تُحلق الساعر ساعراً ، وفوه النعد فبه سدىده ، و مع هـدا بعمد الى الرفق ، و سصف حصمه من بفسه ، و سسمع الى ما بدلى به من حجه براه وهو العربى الفح فى جمع مبارعه ، لم سبهوه حكمه البونان والهند وفارس ، وما اسلكب فلبه عن حكمه العرب وهدابهم وآدابهم ، ومع هدا باحد ممن سبق ولحق ، وعمن وافق وحالف ، لا سو بطره عن سى ، ولا بُردل بفسه حمىراً ولم بوربه سهربه العلمـه رهواً وعروراً ، ولا سكلف البواصع ولا البحاسع ، وبفسه الكبرى أن برفق بالصعاف حتى بقووا ، و بالجهلاء حتى سعلموا ، بحاس الكبراء من دون اسفاف ، و يحسب محاسنهم بعادتاً من سرهم وعموهم ، و يحلم عن الاسرار طمعاً وبطبعاً ، و بسعد عن الحاسدين والموبورين ، لا بصحر ولا يصطرب ، مُتّزن ادا أرِم ، معىدل ادا حاور ، لا يحسـد دا ىعمه على بعمه ، ولا دا سلطان على بعود اراده

* * *

فلج الجاحظ راصب بالنعرس فى سيحوحته ، فدحل علبه المبرد فى آحر أبامه رهو علىل ، فساله عن حاله فقال كىف بكون من بصفه مفلوج ، لو بسر بالمنسار لما احس به ، وبصفه الآحر ممعرس ، ولو طار الدباب بقر به لآلمه ، والامر على دلك ابى فد حاورت السبعين وأسد

ارحو ان بكون وانت سبح كما فد كنب ايام السباب

لقد كدست بعسك لبس ثوب درس[1] كالحديد من الثياب

ودخل عليه جماعة يوماً يسرّ من رأى يعودونه وقد فلج ، فلما أخذوا مجالسهم اتاه رسول المتوكل فقال وما يصنع امير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم اقبل عليهم فقال ما تقولون فى رجل له شقان احدهما لو غرز بالمسال ما احس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث[2] وأكثر ما اشكوه الثمانون ؟

ومع هذا ظل الجاحظ يسلى نفسه بالتأليف على النحو الذى جرى عليه أيام الكهولة والشباب فعوضته الطبيعة فى شيخوخته عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله ، واعاضته فى شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل مات الجاحظ فى سنة ٢٥٥ وقيل انه وقعت عليه مجلدات العلم ، فمات فى الذى احبه وبحر فيه طول حياته قالوا وكان من عادته ان يصفها قائمة ، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها ، فسقطت عليه مات فى البصرة لا فى بغداد ، بدليل ما رواه ابن المهلبى عن أبيه قال قال لى المعتز بالله يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت لامير المؤمنين طول البقاء ودوام العز قال المعتز لقد كنت أحب ان اشخصه الىّ وان يقيم عندى ، فقلت له انه كان قبل موته عطلاً بالفالج

أدبه

يطالعك الجاحظ من بارع ادبه بالابداع دونه كل ابداع ، ويطلعك فى سهولة ويسر لا يشق عليك ، يدخل من نفسك مدخل صدق ، ويسهو بك وانت لا تدرى كيف أخذت قد يقرأ لغيره كلاماً ، ويُعجب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق ، او تخصيص واحاطة ، او فكر طريف ، او راى نادر ، اما ان

(١) درس الثوب أخلقه فدرس ، هو لازم متعد

(٢) غوث الرجل تغويثا قال واغوثا

بصم الكلام سمت هذه الميزات ، ويحمل كل ما يعن للخاطر من الصفات ، فهذا مما لا يقع إلا على الندرة في كلام البلغاء ، وهو من الامور المعتادة في كلام أبي عثمان ابن تمثل فيما على الكاتب شيئاً يسطعه ويستملحه ، وفي ادبه كل ما يطرب ويعجب الكتّاب في العادة يطالون الى ان يكسوا موضوعاتهم ، والجاحظ يسلسه موضوعه فيمليه ، لا يتكلف ولا يتعسف بتصور لك خلجات الروح ، وآهات النفس ، وأزمات العقل ، ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها ، ويصف لك المعلوم والمجهول ، ويعرض عليك المعقول والمنقول ، ويقص كل القصص مما لم يكتب لغيره افراد في علماء هذه الامه الطويل تاريخها ، الكثير نبغاؤها ، كأن الجاحظ فوق عصره ومصره ، والآله المحكمه التي احسنت نقل اصوات أهل جيله سجّل المفاخر والمعاير ، وحمل الى أبناء القرون اللاحقه أقباس من ادبه حمّلها روح الحق وسحر الجمال

يقف القارئ بما ينقل اليه على صور رآها بنفسه ، فاحب امتاع غيره بها ، وامرأة كحالات تأثر بها نفسه ، هو من ربط ماضي الامه بمستقبلها ، ودنياها بدنياها ، يعمد لفرط امانته ان يسمعها الحسن والقبيح ، فطبّ بلطف عبقريته روحها وجسمها وإذا كتب مما لا يتوقع من المصور اكثر من ان يصور لك ما يقع بصره عليه ، فادب الجاحظ يصور لك في حذق ويذوي ما رقص عليه عينه وقلبه وحسه ولما كان من روعة الشعور التي التي ليس بعدها ، جاء كلامه شعوراً عاطفه

يقف النها في ادب الجاحظ من كون مادة الجمال فيه سياله براقه ناصعه تنشر السرور في الروح قالوا إذا أورثك الكلام ما تعلو به فكرك ، وما تنبه فيك حسًّا سريعاً ، فلا تبحث بعدها عن شيء آخر لتحكم على ما قرأت ، وكن

على مىل النعس أنه من الحمد الصالح ، وأنه ما صدر الا عن ىد صَنّاع ، وور ىحه وفاده والحاحط ، ووق هدا ، لم ىععد كثيراً ىدوق عصره ، وفى دالك ابداعه فى ادىه

كان كما قال لاىسون فى وصف احد كىاب الاوىح ىعش كالادىب فى العالَم ، و ىكىب كما ىكىب الادىب للعالم ، ولا ىرصى عن ىعسه إلا لاىه ىُرصى الناس ، ووىد قىل البشر ىكل ما فىهم من صعاب ، لىىرحرحهم عما هم فىه ىحاطب الاىسان للىاىىر فى الاىسان ، وىطر الىه لا على اىه روح محص ، ولا على اىه عىل محص ، ىطر الىه على ان له حسماً ىصطهد الفكر وىحرفه وىعمىه ، فراى من الواحب ان ىحاطىه ىما فىه ، ىحاطب فىه العقل والاراده والدهن والاحساس ، فىررب فصوله ىُرهى ىما حلع علىها ىں الحمال ، والفكر الدى لا ىىمله الكاىب ىعر القارئ مىه ، لان له من عره ىعسه ما ىحب معىه ان ىُحاطب ىما ألف ، و ىما ىىأىر ىه ىعسه وهدا ما كان مىسحمعاً فى ابى عىمان

كىب ىعد الدرس الطوىل والحىره الواسعه ، وما عاىى ىں الاىحاث الا ما اصطلع ىه ، وما فوىك ىعطىم ىحىط ىا كىر ما فى ىحىفه الوحود ىں المعارف ، و ىعرف ما فى الارص من ىعاحىب ، وما فى السماء من عراىب ، ووكده مصروف الى ارصا من ىواصل السىر معه ، و ىرافقه و ىعاىىره ىں فراىه و ىں لا ىحىمر سىاً ىدحل فى ىاب الآداب ، ولا ىسىىكف من الاحد عن صعىر الىاس وكىرهم و ىكىسف كل عامص ، و ىسىفرى و ىسىىط ، حلىق ان ىعىل ادىه فى الىفوس ، وان ىكون كلامه راحاً للارواح

فىل ان الىكىاىه الصحىحه صعىه المراس ، واصعب مىها احىراع ىركىب حدىد ، ران حوده الىكىاىه ىىوقف على اسىىطان اسرار الاسماء ومىها أن

يسلي الكاتب السامع بالمناظر المختلفة ، يجمع له منها أصنافاً ، ويسمله في الأحاسيس ، ويبعد به عن المهجورات والمكررات ، ويهب به إلى الإسراف على ما يخترع قريحته ، ويكشف عنه بيانه وهذا القول أيضاً يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه ، ويبصره بالأشياء ، حتى لا يترك قولاً لغيره إذا بدا له أن يقوله

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله أحدهما في وصف الكتاب والثاني في وصف الحسد ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيراً ومن أعرف بنفع الكتب من سيد من صنفها ، ومن أقدر على وصف الحسد ، من العارف بعذاب هذا الداء من نفوس الحساد ، وقد كان طول حياته عرضاً لهم يحاولون أن ينقصوه فضلهم أشد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب ، وذكر لهم فضلها على الناس ، ومما قال الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد أن يكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من عشق القيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيا ، وليس ينفع بما أنفقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يأمل في العلم ما يأمل الأعرابي في فرسه

يقول بعد مقدمة « وأنا أحفظ وأقول الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ونعم النشوة ، ونعم النزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل والكتاب وعاء ملئ علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً إن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرتك نوادره ، وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله ،

و ساسك فاتك ، وناطق أحرس ، ومن لك نطمت أعرابى ورومى وهـندى وفارسى و يونانى ، ونديم مولّد ، وحسب ممتع ، ومن لك بشى يجمع لك الاول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟

« و بعد فما رأيت بستاناً يحمل فى رُدن ، وروضة تقل فى حجر ، ينطق عن الموتى ، و يترجم عن الاحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ، ولا ينطق الا بما تهوى ، آمن من الارض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ، ولا اعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً اخضع ، ولا صاحباً اظهر كفاية وعناية ، ولا اقل املالاً ولا ابراماً ، ولا ابعد عن مراء ، ولا اترك لشغب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا اكفّ عن قتال — من كتاب ، ولا اعمّ بياناً ، ولا أحسن مؤاتاة ، ولا أعجل مكافاة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا اطيب ثمراً ، ولا أقرب مجتنى ، ولا اسرع ادراكا ، ولا أوجد فى كل اوان — من كتاب ، ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، وآثار العقول الصحيحة ، ومحمود الاذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، والاخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، والامثال السائرة ، والامم البائدة ، ما يجمعه كتاب

« ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته غباً ، ووروده خمساً [1] ، وان شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ، والكتاب هو الجليس الذى لا يُطريك ،

---

(١) الغب بالكسر فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والخمس بالكسر من اظماء الابل وهى أن ترعى ثلاثة ايام وترد الرابع وهى إبل خوامس

والصديق الذى لا يملك ، والرفيق الذى لا يملك ، والمستمع الذى لا يستزيدك والجار الذى لا يُساطك ، والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجود بيانك ، وفخم الفاظك ، وبجّح[1] نفسك ، وعَمَّر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفى السفر طاعته فى الحضر ، وهو المعلم الذى ان افتقرت اليه لم يحقرك ، وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وان عُزلت لم يدع طاعتك ، وان هبت ريح اعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بادنى حبل ، لم يضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء

« وان أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم ، واصحاب الكفايات ساعات ليلهم ، نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة ، وعقل ومروءة ، وصون عرض ، واصلاح دين ، وتثمير مال ورب[2] صنيعة ، وابتداء انعام ولو لم يكن من فضله عليك ، واحسانه اليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارة بك ، مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور الفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الردية ، وجهالاتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة والغنيمة ، واحراز الاصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن فى ذلك الا انه يشغلك عن سخف المنى ، واعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما يشبهه ، لقد كان له فى ذلك على صاحبه اسبغ النعم ، واعظم المنة وحمله الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يثقل ،

(١) بجحه تبجيحا فتبجح اى افرحه ففرح

(٢) رب جمع ورباد ولزم

لانه وإن كان كتاباً واحداً ، فانه كتب كثيرة في خطابه ، والعلم بالشريعة والاحكام ، والمعرفة بالسياسة والتدبير

« والكتاب هو الذي يؤدي الى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما اسكته ، وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك ، ويدعوك في اوقات نشاطك ، ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه

« والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بامور منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الاعصار ، وتباعد ما بين الامصار ، وذلك امر مستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع في المسألة والجواب ، ومناقلة اللسان وهدايته ، لا يجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى اثره ، ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا الى المعرفة ، ولو لجأنا الى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجاربنا ، لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخاطر فاسداً ، ولكلّ الحد وتبلد

« ولولا جياد الكتب وحسنها ، ومبينها ومختصرها ، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت الى حب الادب ، وانفت من حال الجهل ، وأن تكون في غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضرة من الجهل وسوء الحال ،

ما عسى أن لا عكن الاحبار عن مقداره الا بالكلام الكثير ولذلك قال عمر رضى الله عنه تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا وقد مجد الرجل بطلب الآثار ، وتأويل القرآن ، مجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعدُّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً ، فما هو الا ان ينظر فى كتب ابى حنيفة واشباه ابى حنيفة ، و يحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة او سنتين حتى تمرّ ببابه ، فيظن انه من بعض العمال ، وبالحرى أن لا يمر عليه من الايام الا اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الامصار ، او بلد من البلدان ومما يدل على نفع الكتاب انه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرّقه والموصل و بغداد وواسط ما كان بالبصره ، وما يحدث بالكوفه فى بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفه غُدوه ، فيعلم بها أهل البصره قبل المسا »

املى الجاحظ هذه الفقرات فى عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ ، والاخذ عن الرواه ، على مطالعة الأسفار ، والمنافسه فى دواوين العلم ، لا يحفلون بالمفيد والمستحيل كثيراً ، و يرون على الدوام الاخذ من الافواه ، فوجه افكار أمته وجهة اخرى مستديمه مستمره ، اياها يرغبها فى الكتاب ليكون للناظر فيه كل ساعه ما يشتهى من نفعه ، نصح لقومه ان يتناعوا فى اقتناء الاسفار ، و يتباروا فى الاعتماد على ما يدخره من الدرر العوالى ، و بذلك نشط المؤلفون الى رصع كتبهم ومصنفاتهم ، وبنى لمن تلوها اصح مرجع على الايام

و بعد فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المعلمين ، او من يطمع فى نفعهم من العالمين ، عند ما قال لهم ان الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقه الملوك ، وأن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل ، الا

اذا درس كتب أبى حنيفة وغيره ، فاصبح عما اسيظهر فاصياً أو حاكماً فى احد الأمصار وبعد ان أفاض فى ضروب من الاقوال التى تعمل فى النفوس ، ونقل ما قاله من تقدموه فى هذا الباب ، ناعب القارئ فضربه فى الوتر الحساس ، وهو طلب المال والجاه بالكتاب ، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب ، وما دامت المسالة لا تحتمل اكثر من النظر فى صفحات معدوده ، ويصبح الكنز المرصود لطالب السعاده ، فجمهرة المقبلين على الاخذ فى الازدياد ، ستزيد يوماً بعد يوم

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ فى الاصلاح والتمدين ، يحاول ان يصل منه الى غايه معينه ، ويضرب على نغمه المادية تستهوى قلوب العالم وما هو بالغافل عن ضعفهم ، وانهم عبيد الدنيا مهما تفاوتوا زماناً ومكاناً ، فخاطبهم عما يعرفونه الـه ثم هو ليس ممن يرغب فى الخطب التى تزول انرها بزوال مؤثراتها ، ولا يتعدى نفعها حدود أوقاتها ، ويعشق الكتب لانها موضع تبصر وتدبر ، لا يساولها ما يتناول الخطب من تأويل وتحريف ، وزيادة ونقص وأثبت الجاحظ فى هذا المنحى أيضاً انه على جانب عظيم من الدهاء ، اثبت انه لو اعتمد فى تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته فى مجالسه ودروسه فقط ، لضاع على الناس علم كثير ، واستهلك ذلك وقتاً ودّ لو صرفه فى التأليف الخالد ، ثم لا يجد اليه الساعون طريقاً يلجونه لمنافسته ومراوغته ، ويطير إلى اجانبهم وصرف الذهن عبثاً فى حوارهم ، ومن خُلقوا للجدال فى الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان ، وهل يرضى العدو من عدوه بغير اهلاكه او زوال نعمته ؟

من اجل هذا تخلص الجاحظ من اجابه من تقدم اليه ان يحدثه قائلا له انه ليس حسوناً ، ذلك لان الجاحظ الحذر الفطن لا يُرضيه ان يستخدم احد

اسمه ، مدعماً انه نقل عنه حدىثاً قد يحرفه ، أو يعبث به على هواه ، ولذا فطع على الطالب حدىثه وىىرأ من الحسو به ، والحسو به هم الذين لا يدرون ما يروون ، ولا ما ىصححون من احادىث الرسول واحرى انه كان سوى بالدعوه الى الاستكثار من افساء الكتب ان ىطهر ىدخىل الدخلاء من الراوين والمؤلفين لىبدوا فى اصح مطاهرهم ، وىىىن للماصى والدانى اقدارهم ، فىسقط الا وهون ، ربى المجود ن ، ممن ىسىحق مدوناتهم ان ىىى وىىافل حملاً حملاً

والآن ىنىقل الى الصفحه الخاطىه الاحرى ، صفحه الحاسد والمحسود ، فاسمعوا الىها من لسان أعرف الناس بطباع الناس ، بل اعظم منسى وا كبر عالم عام فى القرن التاسع للميلاد كما وصفه احد علما الافرنج ، وهو جواب ن ساله عن الحسد « لِمَ صار فى العلما ا كبر منه فى الجهلاء ، ولم كَثُر فى الاقربا ، وقلّ فى البعداء ، وكىف دبّ فى الصالحىن ، ا كبر منه فى الفاسقىن ، وكىف خص به الجىران من جمىع الاوطان » فقال « الحسد أبعاك الله دا ىنهك الجسد ، ويفسد الأ رد ، علاجه عَسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غا ص ، وامر متعذر ، فما ظهر منه فلا ىداى رما ىطن منه فمدار به فى عماد ، ولذلك قال الىى (ص) دب لىكم داء الامم من قبلكم الحسدُ والبغضا فمنه ىتولد الىداوه ، وهو سبب كل قطيعه ، ومنتج كل وحشه ، ومفرق كل جماعه ، وقاطع كل رحم ىىن الاقربا ، ومحدث التفرق ىىن القرباء ، وملقح الشرّ ىىن الخلطاء ، ىكمن فى الصدر ، كمون النار فى الحجر ولو لم ىدخل ، رحمك الله ، على الحاسد ىعد تراكم الهموم على قلبه ، واستمكان الحزن فى جوفه ، وكثره مضضه ، ووسواس ضمىره ، وتنغص عمره وكدر نفسه ، ونكد لذاذه معاشه ، الا استصغاره لنعمه الله تعالى عنده ، وسخطه على سىده ، بما افاده الله عبده ، وتمنيه علىه ان يرجع

فى نفسه إياه ، وأن لا يرى أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوماً ، وكان عندهم فى القياس مظلوما »

وبعد ان سار على هذا النحو بفعل الشاهد والمثل والقصة قال

« فمن شأن الحاسد ان كان المحسود غنيًّا ، ان يوبخه على المال ويقول إنه جمعه حراما ، ومنعه ايتاما ، وأنب عليه محاويج اقاربه ، ويتركهم له خصماء ، وأعداءهم فى الباطن ، ويحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، ويقول له كفروا معروفك ، واظهروا فى الناس ذمك ، فليس امثالهم يوصلون ، فانهم لا يشكرون وان وَجَد له خصماً ، اعانه عليه ظلماً ، فان كان ممن يعاشره فاستشاره غَشه ، او يفضل عليه بمعروف كفره ، او دعاه الى نصره خذله ، او حضر مدحه ذمه ، وان سُئل عنه هَمَز ، ار كانت عنده شهادة كتمها ، وان كانت منه اليه زلة عظمها ، وقال انه يحب ان يعاد ولا يعود ، ويرى عليه المعود »

« ان كان المحسود عالماً ، قال مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغ نَيل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، واقبل على الحيل ، وقد اقبل بوجوه الناس اليه ، وما احمقهم اذ مالوا اليه ، فقبحه الله من عالم ، ما اعظم لبسه ، واقل رعيه ، واسوأ طِعمته »

ووصفه للعالم المحسود وصف نفسه مع بعض حساد زمانه ، ممن لم يدرك انفسهم شأوه فى علمه وفهمه ، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم ، فكان الإعراض عنهم فى حياته ، ومداراة الساقطين منهم من جملة ما يعد فى باب عقل الجاحظ وقال « لو ملكت عقوبة الحاسد لم اعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به ، بالزامه الهم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، واقامه عليه ابداً » واتان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله « فاذا احسست ، رحمك الله ، من صديقك

بالحسد فاقلل ما استطعت من مخالطته ، فانه أعون الأسباء لك على مسالمته ، وحصن سرك منه تسلم من سدى[1] سره ، وعوابى صره ، و اياك والرغبه فى مساورته ، فمكن نفسك من سهام مساررته »

« ومتى رايت حاسداً يصوب لك رأياً ، و ان كنت مصيباً ، أو يرشدك الى الصواب ، و إن كنت مخطئاً ، او نصح لك فى غيبة عنك ، او قصر من ه لك ؟ هو الكلب الكلِب ، وَالنمر الحرِب ، وَالسم القشب ، وَالفحل القَطِم[2] ، وَالسيل العرِم إن مَلَك قتل وسبى ، و إن ملك عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عَدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس الا من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك علاوته أحسن ما يكون عنده حالاً ، أقل ما رالك مالاً ، وا كثر ما يكون عيالاً ، واعظم ما يكون ضلالاً ، وافرح ما يكون بك اقرب ما يكون بالمصيبة عهداً ، وابعد ما يكون من الناس حمداً ، فاذا كان الامر على هـذا فمجاورة الاموات ، ومخالطة الزَّمْنى ، والا كتنان بالجدران ، ومص المصران ، وأ كل الفردان ، أهون من معاشرة مثله ، والاتصال بحبله وما ارى السلامة الا فى قطع الحاسد ، ولا السرور الا فى افتقاد وجهه ، ولا الراحة الا فى صرم مداراته ، ولا الربح الا فى ترك مصافاته »

قال « وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ، و اخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والاعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » ، « من شأن الحاسد يهجن ما تحسد عليه ، ومن خلق المحروم

(١) السدى كالأذى و نا ومعنى

(٢) القطم كـكتف الـكثير العض والقشب الخلط وسقى السم

بفسح ما حُرِم وبصغيره والطعن على اهله » ، « والذى يحسد فعلى ما لا حدّ له يكون حسده ، لحسده منسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه » ، « ما خالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تسحيبه⁽¹⁾ وكتمانه ، حتى تمرد عليه فى ظهوره و اعلانه ، فيصده و يستعمله ، و يستعطفه لقهره عليه ، وهو اغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره »

وقال فى مكان آخر « ومتى احب السيد الجامع ، والرئيس الكامل ، وبه اشد الحب ، وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان ابغض اعدائهم له على حسب حب قومه له ؛ هذا اذا لم يوثب اليه ، ولم يعترض عليه من بنى عمه واخوته من قد اطمعته الحال باللحاق به وحسد الاقارب اشد ، وعداوتهم على حسب حسدهم وقد قال الاولون رضا الناس شيء لا ينال وقد قيل لبعض العرب مَن السيد فيكم ؟ قال الذى اذا أقبل هباه ، و اذا ادبر اغتابوه وقد قال الاوّل تعصاء السوء موصوله بالملوك والساده ، ويجرى فى الخاصه مجرى الملوك ؛ وليس فى الارض عمل ا كدُّ لاهله من سياسه العوام » والجمله الاخيرة من حكمه او من الكلام الذى يختم به فصوله غالباً ليسوق بن الفارى الى ذُكر وما احلى قوله فى الحاسد « من العدل المحض ان يحط من الحاسد نصف عقابه ، لان الم حسده لك قد كفاك شر موته عقطه عليك » وما اصدق قوله « ما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ، و اخفاء سلامه ، والاقبال على غيرك الخ »

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل ان نشير الى ان الجاحظ كان صريحاً فى

---

(١) اسحق السيف أحمد وسله صد

ادبه ، لا يبالى بسدد المترمتين ، يسمى الأشياء بأسمائها ، رغم انف من زهى وكره ، فأدبه ، والحالة ما ذكرنا ، الادب الواقع Réalisme ، على ما يدعوه المعاصرون ، اى بنقل الطبيعة كما هى ، او كما نظن ان نرى ، مع ما فيها من بشاعة وابتذال ، ولهذا الادب فى دهرنا من أهل الغرب ادباء مشهورون عابوه فى كتبهم ، وما عابوا بمصطلح مجتمعهم

وكان كثير من المؤلفين فى العرب ، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل ، يسيرون على نهج ابى عثمان فى ذلك ، ومنهم حجة الله ذو حافظ اهل السنة ابن قتيبة ، فقد قال فى مقدمة عيون الاخبار « واذا مرّ بك حديث فيه افصاح بذكر عورة او فرج ، او وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع او التخاشع على ان تصعّر[1] خدك ، وتعرض بوجهك ، فان اسماء الاعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم فى شتم الاعراض ، وقول الزور والكذب ، واكل لحوم الناس بالغيب قال ولم اترخص لك فى ارسال اللسان بالرّفث على ان تجعله هجّيراك[2] على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منى فيه حكاية تحكيها ، او رواية ترويها ، تنقصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض ، واحببت ان تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح ، فى ارسال النفس على السجية ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع »

وابان الجاحظ عن مذهبه فى الادب الواقع بقوله « وبعض الناس اذا

---

(١) صعر خده صعراً وصاعره واصعره اماله عن النظر الى الناس تهاونا من كبر ، وربما يكون خلقة

(٢) الهجيرى ، والهجير كالدءوب وكلام الناس فى الجماع او ما يوجهون به من الفحش على هذا هجراً (بكسر الاول وتشديد الثانى) واهجيرا واهجيراو وهجيره واهجيريه وهجيرنا اى دأبه وشأنه

انتهى إلى ذكر الخنا والأذى والبذاء، ارتدع وأظهر التعزز، واستعمل باب الورع، وأكثر من تجده كذلك، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل، ونذالة مستحكمة. وبعد فلو لم تكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة، وكان الرأي أن لا يلفظ بها»[1].

سار الجاحظ على العرف قبله في إيراد أسماء الأعضاء وعملها، لأنها

---

(١) جرى كثير من العلماء والأدباء على هذه الطريقة في التصريح، عما يعد اليوم مخالفاً للعرف ومنافياً للأدب، ومنهم ابن حزم الظاهري في طوق الحمامة والراغب الأصفهاني صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة، في كتاب محاضرات الأدباء، والقاضي التنوخي في نشوار المحاضرة، وياقوت في طبقات الأدباء وغيرهم كثير. وروى الحصري عناية بمجون الحسن بن هانئ «إن الشعر لم يوضع بابه على أن يكون المرء في ديانته من اقتصر على الصدق ولم يغو بصبوة، ولم يترخص في هفوة، ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذم، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزور الباطل، ويكسبه معارض الحق، ولو سلك بالشعر هذا المسلك، لكان صاحب لوائه من المتقدمين، أمية بن أبي الصلت الثقفي، وعدي بن زيد العبادي، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارهما من امرىء القيس والنابغة. قال: وهل تناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم، إلا على ملأ من الناس، وفي حلق المساجد؟ وهل روى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم وما نهى النبي ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعد عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر اهـ. وقال الجرجاني: وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله» ونقول مثل هذا لمن يحورون بعض نصوص القدماء بدعوى أنها لا تتلاءم مع أدب العصر، ونحن في صدد معرفة أدب ذلك العصر. قال القديس كليمان: إننا لا نخجل، لفائدة الغير، من الكلام على الأعضاء التي خلق بها الإنسان لأن المولى تعالى لم يخجل إذ خلقها. وقال مونتني وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين: ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري حتى يستحوا ويبعدوا عن ذكره؟ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل، ويبعدون عنه في أحاديثهم، الناس يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا الخ ولا يجرؤون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق إلا باللغة المكذوبة، وباللفظ المخجل؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذي خلق الإنسان أجدر بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات؟

ما وجدت فى اللغة إلا لتستعمل ، ولطالما أرسل النفس على سجيتها ، واورد السكاب والدراذر بالالفاظ التى زوبت بها وليس ذكر الاسماء باسمائها بدعاً فى اسلوب الجاحظ ، ووصف الاسماء بما فيها من قبح وحسن بالاسلوب الواقعى طريقة للعرب قديمة ؛ ومع هذا لم يفرط ابو عثمان فى ذلك ، يورد ما يورد منها فى المناسبات ، ولا يعد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين ، او يمس بخلق ، او يأبى على أدب ، ولا سيما فى حكاياته وما يعلله من أسعار الجاحظ على أدبه من روحه وقلبه وعقله ، ويقول ما يقول عن بريد ، فمن الاحجى ان يعرض الطبائع البشرية فى صورها الحقيقية ، لا يداجى ولا يحابى ، ويحابيه الحقيقة محابيه

بقى أن نقول ان ادب الجاحظ قطعة من نفسه يتجلى فيه لاول نظرة طريقة ، ولو ابك الفت قطعة من قلمه بين عشر قطع ادبية لغيره ، لما صعب عليك ان تميز كلامه من كلام غيره ، ان كنت ممن يأدب بكلامه ، لما يحس من افكار سديدة ما جاد اللفظ ولا السبك كانها ؛ فسجيته الجاحظ يلمسها اداً فى كل موضوع جالت فيه يراعته ؛ وهذا قلما نعرف مثله كثيراً لغيره من العلماء والادباء ، وأسلوبه خاص به ، لا ينازعه فيه منازع ، وجماع عوامل الاحسان مسبوقاة فى كلامه

بلاغته

ضرب المثل بادب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته « حتى كان يقال من دلائل اعجاز القرآن ايمان الجاحظ به » ومن الخير لطلاب البلاغة اداً ان يعنوا النظر بكلام الجاحظ ، ليتمموا بانفسهم طريقته ، ويتواصفوا فى الجملة طرازا البلاغة

دروس البلاغه ، و يعرفوا مرانه الدقيق فى فقه اللغه ، « اى النظر فى مواقع الالفاظ وأين استعملها العرب » و « تحرى الالفاظ المعتمدة عن طرق الروايه والاستدلال » ، و « اجتناب كل صيغه تخرج الذهن عن اصل المعنى أو تشوش عليه »

قالوا إن « مدار البلاغه على تحسين اللفظ وتجميل الصورة » وحظ الجاحظ من هذا كان جزيلاً حسنت بلاغته فى كل فن ، لتحليلها ببراعته فى تخير جيد الالفاظ ، ومحافظته عن استخدام المبتذل فى مرانه ، وقد يفيد اللفظ الواحد و يستعمل معناه ، و تؤدى المعنى بعده الفاظ ، واللفظه الواحده تُحرّيه ، وفى الفاظ الاعيان يضع الشيء موضعه ، و يطلق كل اسم على مسماه قال مره « ليس للعرب اسم لما لا يصبر بالملل ، وهو الذى يقال له سَكُور ، ا كثر من أن يقولوا به هُدبدٌ » وقال فى وصف كتاب بالقدم « كتاب متقادم الميلاد دهريُ الصنعه » ، وكانه كان يضع بعض الفاظ او يستعمل مالا عهد باستعماله و له مثل قوله « الفرو يون والبلديون » ، « اللغويون والمعنويون » اطلق هذا على من يشتغلون بالالفاظ و يشتغلون بالمعانى ، فمعرفه ابى عثمان بوقع الكلمه فى نفس القارئ وغزيره الذوقى بين حى الالفاظ وميتها ، وسهلها وصعبها ، سابب أول فى تفوقه فى بلاغته

وملاك الامر عنده أبداً ان تكون اللفظ سمحاً لا كزاً [1] ، والابتعاد عن المعانى التافهه ، والغوالب المستكرهه ، ولطالما أوصى طلاب البلاغه ان لا تكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً ، ولا وحشياً غريباً وقال « الاستعانه بالغريب عجز » « الا ان تكون المتكلم بدوياً أعرابيا ، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى

(١) يقال رجل كز اليدين ذو كزز أي بخل ، والكزاز اليبس والانقباض

من الناس ، كما تفهم السوقى رطانة السوقى » ، والمعوّل عليه فى هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » ، فهو اذاً ممن ينفى تدمث اللغة ، على نحو ما تدمثت طباع الامة العربية بالحضارة

وقد ابان عن طريقته الواضحة فقال « قد يستخف الناس الفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين واضعفهما ، وتستعمل ما هو اقل فى اصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر واكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر » « وسخف الالفاظ مشاكل لسخف المعانى ، وقد يحتاج الى السخف فى بعض المواضع ، وربما أمتع باكثر من امتاع الجزل الفخم ، ومن الالفاظ السريعة الكريمة المعانى » ويقول ان لكل قوم الفاظاً حظيت عندهم « وكذلك كل بليغ فى الأرض ، وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون ، فلابد من أن يكون قد لهج [1] والف الفاظاً باعيانها ، ليديرها فى كلامه ، وان كان واسع العلم ، غزير المعانى ، كثير اللفظ »

قال وأنا أقول فى هذا قولاً ، وارجو ان يكون مرضياً ، ولم اقل أرجو لانى اعلم فيه خللاً ، ولكنى احدث بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب وذلك انه قيل لصُحَار [2] العبدى ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره اياديه واحسانه ؟ قال اما نحن فانا نرجو ان يكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً رضياً وهو يعلم انه قد وفاه حقه الواجب ، ويفضل بما لا يجب قال صُحَار كانوا يستحبون ان يَدَعوا للقول مُتَنَفَساً ،

---

(١) لهج به كفرح اغرى به فثابر عليه

(٢) صحار بن العباس العبدى وفد على النبى وكان من اخطب الناس وانسبهم

وأن يتركوا منه فصلاً ، وان سحافوا عن حق ان أرادوه لم يُسمعوا منه ، ولذلك قلت ارجو ، فافهم ، فهّمك الله تعالى

« فإن رأيى فى هذا الضرب من هذا اللفظ ، أن ا كون ما دمت فى المعانى ، التى هى عبارتها والعادة فيها ، ان ألفظ بالشيء العتيد الموجود ، وادع التكلف لما عسى أن لا سلس ولا سهل ، الا بعد الرياضة الطويلة ، وارى ان اللفظ بالفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً فى صناعة الكلام ، مع خاص أهل الكلام ، فان ذلك افهم عندى واخف لمؤنهم علىّ ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم الا بعد ان كانت مشاكلا بينها وبين تلك المعانى وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، او فى مخاطبة العوام والتجار ، او فى مخاطبة اهله وعبده وأمته ، أو فى حديثه اذا حدث ، او خبره اذا اخبر ، وكذلك من الخطا ان يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام ، وهو فى صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل »

ذلكم رأى الجاحظ فى وضع الالفاظ مواضعها فى التأليف وكلامه فيه غنى عن الشرح والتعليق ، فهو لا يدعوك فى وضع القاعدة التى بيّنها لك ، الا ان تدبر ما قال ، وتعمل به فى اختيار اللفظ الموافق ، واما المعانى فقد قال ان حكمها خلاف حكم الالفاظ ، لان المعانى مبسوطة الى غير غاية ، وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة وهنا روى عن غيره « قال بعض جهابذة الالفاظ ونقاد المعانى المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصورة فى اذهانهم ، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ،

لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه ، والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره و إنما يحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، و إخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً وهي التي تخلص الملتبس ، وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشي مألوفاً ، والغُفل موسوماً ، والموسوم معلوماً وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي ، هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم »

« وقال مَن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وَفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوِداً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم »

قال « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغَشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى كانت الكلمة على هذه

السرنطه ، وبعدت عن قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لم يمنع معه من تعظيمها صدور الجبابره ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة »

قال « ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً[1] ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمِناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ويحمي عِرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القُلوب ، وخفَّ على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض[2] ، ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذَنوبا[3] حبب إليه المعاني ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم »

وقد يقع للجاحظ أن يكرر القصة الواحدة في عدة أماكن من كتبه ورسائله ، يريد إثباتها في الأذهان ، وأمر البلاغة واختيار الألفاظ لإلباس المعاني الصورة اللائقة مما عُني به ، فقد قال في رسالة « مدح التجار وذم عمل السلطان » ما لم يخرج عن قوله في هذا المعنى في البيان والتبيين وفي الحيوان

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان هما لفقان والوفق والوفاق والصفة والفوقة وأشباهه والعدل واحد

(٢) يقال ناقة ريض كسيد أول ما رِيضت وهي صعبة بعد

(٣) الحظ والنصيب والدلو او فيها ماء أو الملاى أو دون الملاى

وعيرهما قال ثم حـده سعر نف حجج الـكتاب ، ويخلصهم باللفظ السهل القريب الماخذ إلى المعنى الغامض ، وأدقه حلاوه الاختصار ، ورائحه الـكفايه ، وحذره التكلف ، واستكراه العباره ، فان اكرم ذلك كله ما كان افهاماً للسامع ، ولا يحوج الى التاويل والتعقيب (١) ، ويكون مقصوراً على معناه ، لا مقصراً عنه ، ولا فاصلاً عليه ، فاحير من المعانى مالم يكن مسوراً بالالفاظ المعقد ، معرفاً فى الاكثار والتكلف ، فما اكثر من لا يحمل باستهلاك المعنى مع براعه اللفظ ، وغموضه على السامع ، بعد ان يتسق له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم يكشف عنه العباره ، فالمعنى بعد مقيم على استحجانه ، وصارت العباره لغواً وظرفاً خالياً ، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل ان يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرّ اليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه الا به ، والآفه الكبرى ان يكون رديء الطبع ، بطئ اللفظ ، كليل الحد ، شديد العجب ، ويكون مع ذلك حريصاً على ان يعدّ فى البلغاء ، شديد الكلف بانتحال اسم الادباء ، فاذا كان كذلك خفى عليه فرق ما بين اجابه الالفاظ ، واستكراهها لها

« وبالجمله ان لكل معنى شريف او وضيع ، هزل أو جد ، او حرفه او صناعه ، ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه ، الذى لا ينبغى ان يجاوزه ، او يقصر دونه ، ومن قرا كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد المعانى ، فهو على سبيل صواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ ، فهو على سبيل الخطا ، والخسران هاهنا فى وزن الربح هناك ، لان من كانت غايته انتزاع الالفاظ

(١) التعقيب التكلف والالتفات

حمله الحرص عليها ، والاسهار بها ، الى ان ستعملها قبل وقتها ، و نضعها فى غير مكانها ' ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا أشعر منك ، قال صاحبه ولم ذاك ؟ قال لأنى اقول البيت وأخاه ، وانت تقول البيت وابن عمه ، و انما هى رياضة وسياسة ، والرفق مصلح ، والآخر مفسد ، ولابد من هذين ، وطبيعة مناسبة ' وسماع الالفاظ ضار ونافع ' فالوجه النافع أن تدور فى مسامعه ، و تغيب فى قلبه ، و تختم فى صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت ، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ، لانها حينئذ تخرج غير مسترقة ، ولا مختلسة ولا مغتصبة ، ولا دالة على فقر ، اذ لم تكن القصد الى شئ بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره ، و بين الشيء اذا عشش فى الصدر ، ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، و بين ان يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اغتصاباً واغتصاباً ، فرق بين» وقال « ان كلام الناس فى طبقات كما ان الناس انفسهم فى طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والفصيح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، و بكل قد تكلموا ، و بكل قد تمادحوا وتعايبوا »

وقد اعجب بما يستخدمه رواة الاخبار من السهولة فقال ورأيت عامتهم — فقد طالت مشاهدتى لهم — لا يقفون إلا على الالفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الالفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى اذا صارت فى الصدور عمرتها ، واصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الاقلام على مداق الالفاظ ، واشارت الى حسان المعانى ' ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر يعنى أن الجاحظ لا يرى للكاتب ان يستعمل من

الألفاظ إلا ما فهمه العامة ، والكاتب يكتب ليُفهم لا ليُعجم ، ويتوخى المعانى الجديدة التى تصلح فساد القلوب ، وتعمر بها الافئدة والعقول

قال الجرجانى فى دلائل الاعجاز واعلم ان من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته ان لم يحتج واضعه الى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله فى ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآل فخرطها فى سلك لا يبغى اكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نضّد أشياء بعضها على بعض لا يريد فى نضده ذلك ان يجىء له منه هيئة او صورة ، بل ليس إلا ان تكون مجموعة فى رأى العين ، وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج ان يصنع فيه شيئاً غير ان تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ « جنّبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبب اليك التثبت ، وزين فى عينك الانصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، واشعر قلبك عزّ الحق ، واودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة »

واسمع الآن هذه الجملة سجع فيها الجاحظ سجع الحمام ، قال فى كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن « حجة على الملحد ، وتبيان للموحد ، وقائم بالحلال المنزل ، والحرام المفصل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع اليه العالم والجاهل ، وامام يقام به الفروض والنوافل ، وسراج لا يخبو ضياؤه ، و مصباح لا يخمد ذكاؤه ، وشهاب لا يطفأ نوره ، و بحر لا يدرك غوره ، ومعدن لا ينقطع كنوزه ، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار ، وزاجر يصد عن المحارم ، و محذر يوم المحاكم »

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم ، لم ير

طرح الألفاظ السخيفة للتعبير عن المعاني السخيفة ، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات الأعراب بألفاظها ، وقد حشى كتابه البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطغام في عصره ، فعُدَّ ذلك في جملة إفضاله على اللغة أيضاً ، قال « ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك ان غيَّرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليكَ فضل كبير وكذلك اذا سمعت نادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام[1] ، فإياك أن تستعمل فيها الاعراب ، وأن تتخير لها لفظاً حسناً ، او تجعل لها من فيك مخرجاً سريًّا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أُريدت له ، ويُذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها » وهو يرى « أن البدل لا يبدل كما أن الفصيح لا يفصح ، لأن البدل تكلفه بله عن البدل ، والفصيح نفسه فصاحته عن التفصح ، ولم يرد أحد قط الا لنقص يجده في نفسه »

ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال له « وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الاسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم في تحبير المنثور ، وقد يتعمل في المعاني ، ويتكلف اقامة الوزن ، والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً[2] ، مع قلة لفظه وعدد هجائه — احمد أمراً ، واحسن موقعاً من القلوب ، وانفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولأن التقدم فيه ، وجمع النفس له ، وحصر الفكر عليــه ، لا يكون الا ممن يحب السمعة ، ويهوى الفَلْج[3] والاستطالة »

***

(١) الطغام كسحاب أوغاد الناس والحشوة (بكسر الحاء وضمها) العوام

(٢) الرهو السير السهل ، والسهو السهل

(٣) الفلج الظفر والفوز كالافلاج والاسم بالضم كالفلجة

يخوف الجاحظ من فساد كثير بدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة ، عند ما شرعت العرب تنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية ، وقد شاهد النقلة ضعافاً فى البيان ، واقرب الى الركاكة فى الالفاظ وسبكها ، حتى افسدوا المعانى وابهموها فعميت على الناس ، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها فى الحقيقة الا من عاناها فيما يابى تأولوها فى نقلها . قال « إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الامصار وبلغاء الاعراب ، لما فهموا اكثره ، وكذلك كتاب أقليدس ، وهو عربى وقد صُفى ، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن ان يفهمه من يريد تعلمه ، لانه يحتاج الى ان يكون قد عرف جهة الامر ، وتعود اللفظ المنطقى الذى استخرج من جميع الكلام » وقال « وبد الانسان لا يكون الا حرقاء ، ولا يصير صَناعاً [١] ، ما لم تكن المعرفة نافقاً لها ، واللسان لا يكون ابداً داهماً فى طريق البيان ، متصرفاً فى الالفاظ ، الا بعد أن يكون المعرفة متحللة به ، مشغلة له ، واضعة له فى مواضع حقوقه ، وعلى اماكن حظوطه »

و اليك الآن شرعه فى الترجمة والنقل ، وما ينبغى لهما من البلاغة ، وما السبيل اليها « وقال بعض من نصر الشعر وحوطه و يحتج له ، ان الترجمان لا يؤدى ابداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، و يؤدى الامانة فيها ، و يقوم بما يلزم الوكيل و يجب على الجرى [٢] ، وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها ، والاخبار عنها على حقها وصدقها ، الا ان يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف الفاظها ، وتاويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب

(١) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما حاذق فى صنعه من قوم صنعى الايدى بضمه وبضمتين وبفتحتين وبكسر وأصناع الأيدى

(٢) الجرى الوكيل للواحد والجمع والمؤنث ، والرسول والأجير والضامن

وواصعه ؛ فمى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمه وابو قره وابن فهر وابن وهيلى وابن المقفع مثـل أرسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل افلاطون

ولا بد للترجمان من ان يكون بيانه فى نفس الترجمـه ، فى وزن علمه فى نفس المعرفه ؛ وينبغى ان يكون أعلم الناس باللغه المنقوله والمنقول اليها ، حتى يكون فيها سواء وغايه ؛ ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا انه قد أدخـل الضيم عليهما ، لأن كل واحده من اللغتين تجذب الأخرى ، وتاخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكنه اذا انفرد بالواحده ، وانما له قوه واحده ، فان تكلم بلغـه واحده استفرغت تلك القوه عليها ، وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمه لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم اعسر واضيق ، والعلماء به اقل ، كان أشد على المترجم واجدر ان يخطئ فيـه ، ولن يجد مترجماً يفى بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا فى كتب الهندسه والتنجيم والحساب واللحون ؛ فكيف لو كانت هذه الـكتب كتب دين واخبار عن الله عز وجل »

وما عجب ابو عثمان من رجل عرف لغتين ، فكان اماماً فى البلاغه ، غير موسى بن سيار الاسوارى ، قال انه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسيه فى وزن فصاحته بالعربيه ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآيه من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربيه ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسيه ، فلا يدرى باى لسان هو أبين ، واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحـد ادخلت كل واحده منهما الضيمَ على صاحبتها

وقال فى معنى الترجمه ومسخها لبلاغه الشعر المنقول ، وكيف تُحمل النقل

المبانى والمعانى « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يستطاع ان يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوِّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه وصار كالكلام المنثور ، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، أحسن من المنثور المحول من موزون الشعر وقد نُقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حُوِّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، مع إنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى امة ، ومن قرن الى قرن ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها »

انا اذا تأملنا قول الجاحظ فى النقل ، وما يجب ان يكون عليه الناقل من المقدرة ، ليسهل فيجيد من لغة الى لغة ثانية ، نسجل ان رأيه هذا لا يختلف عن احدث الآراء فى عصرنا ، وكذلك اذا تدبرنا ما قاله فى هذا المعنى ، نقرأ رأياً لرجل امتد عمره فى الترجمة والنقل ، ولا نبعد كثيراً عن محجة الصواب اذا حكمنا بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم الى امته عن لغة أخرى فى الاحايين والارجح ان هذه اللغة هى الفارسية وفى ذلك اشارات فى البيان والتبيين ، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار بلاغته فى اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب والفرس ، ويصعب ان يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين ، ومن لم يكن جهبذاً فى البلاغة وما تقتضى لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين

لا يرى الجاحظ ، صاحب العقيدة الراسخة والايمان الصحيح ، طريق النجاة للناس ، الا اذا فهموا الاسلام على حقيقته كما فهمه هو ، وكان ابداً حرباً على من خالفوا الدين ، وحرباً على الملحدين والكافرين الجنى على السمع التى انفصلت من الإسلام ، وعبثت بشيء من فروعه ، فردّ على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العثمانية وعلى الرافضة وغيرهم وجادل اليهود والنصارى من اهل الكتاب بالتى هى احسن واهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمرتدين ، والطاعن على من حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا فى مللهم من ابطلوا بلة الاسلام[1] ، مثل رده على من ألحد فى كتاب الله ، ورده الذى عنى له[2] « نصرة عام المريد » وغير ذلك

كتب الجاحظ كل هذا ، وبعض المتطفلين من الحشوية ، او المتطفلين فى الدين والمتمسين[3] فيه يعدونه مقصراً ويطلقون السنتهم فيما كتب ، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة وقفوا فى عصره وبعده يكذبون عليه ، ومنهم من بلغت به القحة ان يخرجه من الدين ، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الإنسانية ، ومن الغريب ان اولئك الغُثر على الاسلام لم يخدمهم انفسهم أن يكسبوا فضلاً واحداً فى دفع اعدائه ، وراحوا ، ورأس مالهم الا الباطل ، يعترضون من دون حياء على من كان فى مثل قوة الجاحظ فى تصديه لرد شبه المخالفين أما أرباب العقول المستنيرة ، المنزهون عن الاغراض فى الحكم على

(١) الملة بالكسر الشريعة أو الدين وعلل وامثل دخل فيها
(٢) عن الكتاب وعنه وعنونه وعنا كتب عنوانه
(٣) سطس فى الكلام ناس فيه ، وسطع فى كلامه إذا تفصح فيه وتعمق والتمس اللبس والاحتيال

الجاحظ ، فقد كانوا يعدون ظهوره فى ذلك العصر ، عصر تسرب الشبهات والمحادثات الدينية ، نعمة عظيمة على الإسلام والمسلمين

واغرب من هذا دعوى بعض أصحاب الجرح والتعديل ان الجاحظ كان إذا روى حجج من يجادلهم من النصارى أوردها برمتها ، وقصر عمداً فى رد أقوالهم ، تاركاً بعض النواحى الضعيفة فى جوابه ، وهو يرمى بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن يصف الخصم فيضع امام الانظار حجته ، ثم يفندها بتؤدة لا حدة بها ولا غضب ، وقد يسخر ممن يفنده ويتهكم به ، وممن يقول بقوله تهكم أدب وتهذيب . ورسالته فى الرد على النصارى تنادى بأفصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه . وما كان لمؤلف أن يضع بالثقة ليرمى به حتى المفتش ، ومراض العقول واصحاب الاهواء . ولولا ان الجاحظ كان الحجة الثبت فى هذا الموضوع بين علماء عصره ، ما حثه الفتح بن خاقان الوزير العالم على التعجيل بتأليف رده على النصارى . « وهمك من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك[1] من صدوق » ان جادل أفحم ، وان ألف كان الأعلم والأحكم

اجاب الجاحظ بعض من شنعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله « وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية كما سمعتنى اقول فى اول كتابى وقالت العثمانية والضرارية ، كما سمعتنى اقول وقالت الرافضة والزيدية ، فحكمت علىّ بالنصب لحكايتى ، فهلا حكمت علىّ بالتشيع لحكايتى ، وهلا كنت عندكَ من العالمة لحكايتى حجج العالمة ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة . وقد حكينا فى كتابنا قول الاباضية والصفرية ،

(١) يقال ضرب رجل بشرعك من رجل اى حسبك يستوى فيه الواحد والجمع ، ومثله وهذا رجل همك من رجل وهمك من رجل حسبك

كما حكى ما قول الارارقه والريدية وعلى هده الأركان الاربعه بنت الخارجة وكل اسم سواها فانما هو فرع ونتيحه ، واسمعاق منها ومحمول عليها ، وإلا كنا عندك من الخارجه ، كما صرنا عندك من الصرارية والناصبه ، فكيف رضيت بأن نكون أسرع من السبعه الى أعراض الناس من الخارجه ، اللهم الا أن نكون وحدت حكايتى عن العماسه والصراريه اسبع واجمع ، وانم وأجود وعندى بكتاب العماسيه ، فهلا عندى بحكايه مقالة من أبى وجوب الامامه ، ومن يرى الامساع من طاعه الأئمه الدين زعموا ان ترك الناس سدًى بلا قيم أرد عليهم ، وهملاً بلا راع أربح لهم ، واحدر أن يجمع لهم دلك بين سلامه العاجل وعنيمه الآجل »

وفى كتابه حجج النبوة « والعجب من ترك الفقهاء تفسير الآثار ، وترك المتكلمين القول فى تصحيح الاخبار ، وبالاخبار نعرف الناسخ من المنسوخ والصادق من الكاذب ، وبها نعرفون الشريعه من السنه ، والفريضه من النافله ، والحظر من الاباحه ، والاجماع من الفرقه ، والشذوذ من الاستفاضه ، والردّ من المعارضه ، والنار من الجنه ، وعامه المفسدة والمصلحه » وقال « ان كل منط ى محجوج ، والحجه حجتان عيان ظاهر وخبر قاهر فادا تكلمنا فى العيان وما تفرع منه ، فلا بد من المعارف فى أصله والمعارف فى فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال واصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الاصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لابطال إحدهما وجه مع ايجاب الآخر والعقل نوع واحد والدليل نوعان احدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجىء خبر يدل على صدق »

كان الجاحظ محيطاً بما يجول في قلوب أرباب الناقدين النافسين ، يعرف أنهم يبغون له العثرة ، ويقفون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم ، لوقوفه على مآربهم ، ومثل هذه الطائفة كان على الأغلب مزريا بها ويرحمها ، وليس بعد الجهل ذنب ، كما قيل ليس بعد الكفر ذنب . وقد وصف من كانوا يعترضون سبيله ويحسدونه حسد لؤم وعداوة ، بقوله « إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته [1] ، وأكثر ما يكون هذا منهم ، إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحط والرفع ، والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة [2] فإن أمكنتهم الحيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له ، فهو الذي قصدوه وأرادوه ، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً نقريساً [3] بلعاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه إلى ملك آخر ، ومتّوا [4] إليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إليّ وموسوماً بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ،

(١) نصاعته خلوصه

(٢) المغتلمة من الإبل التي غلب عليها شهوة الضراب

(٣) النقاب بكسر النون الرجل العلامة ، أو النافذ في الأمور كما في الأساس ، والنقرس بكسر النون أيضا الطبيب الماهر الفطن المدقق كالنقريس

(٤) مت إليه بحرمة ما توصل بقرابة أو دالة

ومن أسنه هؤلاء من مؤلفى الكتب ، فاذا نبى أولئك القوم ناعيانهم ، الطاء ون على الكتاب الذى كان احكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هـذا الكتاب وقراءته على ، وتمكنوا به خطوطهم ، وتصيروه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فثبتت لهم به رياسة نأتم بهم قوم فيه ، لانه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب الى بالمؤلف » ،

هكذا سير الجاحظ عقول حاسديه عسار عليه ، ويضحك واضحك من لؤمهم وعمايهم ، وأنت نفسه ان يحاورهم ، وهو جد عارف بقدر ما يكتب ، وبما يرمى اليه من المقاصد فى وضع اسفاره واطالما وطّن نفسه على اسماع سخف السخفاء فى أحكامهم المجانبه [1] عن الحق ، قال « لان كل من النقط كتاباً جامعاً ، وباباً من امهات العلم مجموعاً ، كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كده ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغه ، ومعانيه على الجهابذه ، وتحكيمه فيه المتأولين والحسده » وبديهى أن المتأولين والحسده لا يرضيهم منه الا ان ينقطع عن التأليف ليساويهم فى قصورهم ، ولذلك كان من الطبيعى ان لا ينافسهم لانهم طلبوا المنطق فى حواره ، وأبهموا وما ابانوا فى وجوه اعتراضهم على افكاره ، والكلام المجمل يحتاج الى تفصيل ، وهم عاجزون عن الإدلا بحق ، وهو فى غُنيه عن ان يعرض لكلام من قلبهم الحسد

على انه عرض فى الحيوان لاولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله « ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم فى هذا الزمان ، وظهر اصطناع الكتب فى هذا

---

(١) جانف مال

الصدر ، لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم ، وتوفيق نفوسهم ، وتسجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، الى هذه الرياضة الطويلة ، وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذي أفيدهم إياه أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم ، رغبة من رغب في دنياهم » وقال في عرض كتاب آخر « وقد جمعنا في هذا الكتاب جملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار ، وأعلم أن بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيد والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره كلا والذي حرّم التزيد[1] على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج[2] الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضلّ سعيه » وما أحلى هذا القسم وما أجمل مغزاه

ولما كان المعتزلة يتشددون في الحديث وتأويله وروايته ، ويردون كثيراً مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها ، ويسمون المكثرين منه على علاته الحشوية ، أبت نفس الجاحظ بالضرورة ان تكون في الحديث حاطب[3] ليل ، فما كان من الأحاديث مرضي الاسناد صحيح المخرج قبله ، وما كان مسخوطاً[4] الاسناد فاسد المخرج نبذه وكان ابن شهاب الزهري يقول عن الحديث وروايته يخرج الحديث من عندنا شبراً ، ويعود في العراق ذراعاً وكان مالك بن انس يقول اذا جاوز الحديث الحَرَّتين ضعف نخاعه ؛ وكان يسمي الكوفة دار الضرب لأنها تصنع الاحاديث كما تضرب النقود ؛ وكان احمد بن حنبل يشك في التفسير ويقول ثلاثة ليس لها اصل التفسير والملاحم والمغازي

(١) التزيد في الحديث الكذب

(٢) البهرجة أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها

(٣) حاطب ليل مخلط في كلامه (٤) المسخوط المكروه

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه ، وفهم « تأويل الأحاديث ، وأي ضرب يكون مردوداً ، وأي ضرب منها يكون متأولاً ، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنمـا هو حكاية عن بعض القائل » وقال « لولا مكان المتكلمين لهلـكت العوام واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون »

علب الصـدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الخط على احد من أهل الملل والنحل ، وما جور القول على من يخالفه اتّا كان وكائن مخالفه ، « ولم يذكر محاسن الخوارج ، ولم يخبر عن مآثرهم لانه يتولاهم[1] ، ولا لانه يميل اليهم ، ولـكنه خبر انهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به ، احسن او صادقاً من الرافضة ، يخبر عن توقيهم للـكذب على من عاداهم ، وجراة الرافضة على الـكذب عَلَى اعدائهم ، وخبر عن شعر الخوارج وتواجهم على دينهم ، ووصف اصحابهم بالنسك والفضـل ، ثم خبر عن شعر عمران بن حطان وحبيب ابن خُدره واشباههما من شعراء الخوارج » قال الخياط « وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ ، وانه لم يتزيد على الرافضة حرفاً واحداً ، وقال ان الجاحظ بين في كتاب فضيلة المعتزلة ان الرافضة يقطعون آل أبي طالب عن العلم والعمل جميعاً ، و يوهمونهم أن المعاصي لا تضرهم ، وان الواحد منهم يشفع فيمن اراد ان يشفع ، وانه لم يسلم حله اصحاب رسول الله من المهاجرين والانصار من شتمهم وعداوتهم ، ولم يسـلم من تولوه من آل علي بن تثبيطهم عن العلم ، وتزهيدهم في العمل الصالح المقرب لهم الى الله ، فلم ينج منهم ولي ولا عدو »

ومن اجل هذا قال المسعودي في كتب الجاحظ انها حسـنة « ان لم تدع الى نَصب » ، واهل النصب هم المدينون ببغض علي بن ابي طالب فانهم نصبوا له

---

(١) تولى احد ولنا

أي عادوه رمنهم الخوارج والمعتزله يحملون فى أمير المؤمنين عثمان بعد الاحداث التى أحدثها ، وا كثرهم يتولاه ويتأول له ؛ ومعظمهم على البراءه من معاويه وعمرو بن العاص ومن شايعهما ؛ ولا يعرف السرّ فى انحرافهم عن بنى أميه ، مع ان المعتزلة كانوا معتدلين فى الحكم عَلَى على بن أبى طالب يعطونه حقه من دون زياده ، ومعاويه وآله وانصاره جمعوا شمل الاسلام ولا يبعد مع هذا ان رساله النابته التى سبقت اليه وفيها اقذاع بالاموييين هى من نابتيه ، كما لا يبعد ان كتاب التاج وكتاب الاخلاق هما له ايضاً

يقول شيخنا طاهر الجزائرى ان الجاحظ قد سلك طريق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض عصرييه من ابناء نحلته كابى جعفر الاسكافى وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذى بصيره ، إذا موه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه ، وقد يصرح بغير ذلك فى موضع آخر ؛ فالعاقل ذو البصيره ينتفع بكلامه كيف كان ونقل ابن ابى الحديد ان الجاحظ الف كتاب العثمانيه انتصر فيه للخلفاء الراشدين الا انه أظهر ما يشعر بالتعصب ، لما اوجبه طبيعة النصره على زعم بعضهم ، فتصدى له من أبناء نحلته الامام ابو جعفر الاسكافى فنقض كتابه ، وأطلق لسانه فى الجاحظ ؛ ومن ذلك قوله القول ممكن ، والدعوى سهله سيما على مثل الجاحظ فقوله لغو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ؛ يقول الشىء وخلافه ، ويحسن القول وضده قال قاضى القضاة عبد الجبار فى طبقات المعتزله نقض الاسكافى كتاب الجاحظ فى العثمانيه فى حياته ، ودخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه يعرض لنقض كتابى ، وابو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره وكان ابو جعفر علوىّ الراى محققاً منصفاً ، قليل العصبيه ، الف سبعين كتاباً فى علم الكلام اهـ

وقول استاذنا إن الجاحظ قد تعمد الى التوبة ، وتمويهه بتوبة العاقل ، كلام يحتاج الى شرح قليل فان الجاحظ قد يغفل بعض المسائل على علاتها لا يعرض لها بنقد كما وقع له أن نال من امیری المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعاوية ابن أبی سفیان فنسب الى معاوية فی رسالة العثمانية ما يقدح فی عدالته وما كان معاوية بالمستهتر ولا بالمنهمك ، ولم يجرا خصومه ان يتهموه بشیء من ذلك وغريب من ابی عثمان اطلاقه هذا القول مع حبه للحق حتی فی معارضة اعدائه ولقد شهدناه يدافع عن الخوارج لما اتهمه بكفرهم واستباحتهم عن الكذب على من خالفهم ، وان لم يقل بقولهم فی اكفار من رضی بالتحكيم ، وحط من الرافضة لما رآهم يصنعون ما لا يحل من الكذب على الرسول وعلى مخالفيهم ، واصلاهم ناراً من نقده لما وضعوا آل علی فی منزلة لا يرضاها العقلاء من ذريته ، فقالوا بعصمتهم وان المعاصی لا تضرهم

ومن هذا الضرب اشارته الى ما وقع بين احمد بن حنبل والمعتصم فی مسالة خلق القرآن قال الجاحظ وبعد فنحن لم نكفر الا من اوسعناه حجة ، ولم نمتحن الا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الاستار ، ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضی اهتك الناس لستر ، واشد الناس كشفاً لعورة ، والذين خالفوا فی العرش ، انما ارادوا نفی التشبيه فغلطوا ، والذين انكروا امر الميزان انما كرهوا أن يكون الاعمال أجساماً وأجراماً علاطاً ، فان كانوا قد اصابوا فلا سبيل عليهم ، وان كانوا قد اخطاوا فان خطاهم لا يتجاوز بهم الى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فمن المذهبين ابين الفرق وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمخلصين

إعذاراً و انذاراً امتحنني وأنت تعرف ما في المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنني من بين جميع هذه الأمة قال المعتصم اخطأت بل كذبت وحدثت الخليفة على قد حبسك وقيدك ، ولو لم تكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم تحك على الإسلام ما عرض لك ، فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، اذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل وقيل للمعتصم في ذلك المجالس ألا تبعث الى اصحابه حتى يشهدوا اقراره ويعاينوا انقطاعه فيمنعهم ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما اقر به عندهم فابى ان يفعل ذلك وانكره إلى آخر ما ذكر

مذهب الجاحظ في الدين كمذهبه في العلم ، مذهب العقل وصدق الحس لا يحكّمُ غيرها ، ولا يحكّمُ سواها لا جرم ان اختلاف اهل السنة والجماعة مع المعتزلة اختلاف لا يعتد به كثيراً ، والمسائل المختلف فيها لا تمس بأصل من أصول الدين ، فمن قال مثلاً بان الله يرى في الآخرة له أدلته من الكتاب ، ومن قال بان الله لا يرى تاول بعض الآيات لإثبات قضيته ، ومن قال ان الفاسق مخلد في النار او لا يخلد ، فلا يعلق على كلامه كبير امر في الدين يقول ابن حزم « ان أقرب فرق المعتزلة الى اهل السنة اصحاب الحسين بن محمد النجار وبشر بن غياث المريسي ثم اصحاب ضرار بن عمرو وأبعدهم أصحاب ابي هذيل »

ومن ثبت له كالجاحظ كل هذه الحسنات في الدفاع عن الدين ، لا تضيره اذا رأى رأي غيره في مسائل طفيفة والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون في كل الامور فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف احد أساتذته في بعض الآراء فما قدح ذلك فيهم ، ولا عُدّ عمله من سوء الادب وإذا ادركنا ان معظم ما كتبه في

الدين قد فقد نتحمل مبلغ سعة الدعاية التي دُرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة . يقول ابن أبي الحديد ان المرتضى لما رأى الجاحظ وافق عرضة مرة استجاد قوله فكناه ، مع أنه ما كناه أصلاً قال « فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم »

وأما الجاحظ مجادل أهل الكتاب بالحسنى فنفى عن النصارى لما جاء محاجتهم معرفة الفلسفة ، و يقول ليس لهم « الا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون[1] وكتب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوى والمجسطى والهندسة والطب ليست للنصارى ، بل هي لارسطاطاليس وبطلميوس واقليدس وجالينوس وديمقراط وابقراط وغيرهم » « هؤلاء الناس من أمة قد بادوا و بقيت عقولهم ، وهم اليونان ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم . اولئك علماء وهؤلاء صناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار ، وتدانى الدار ، فمنها ما أضافوه الى انفسهم ، ومنها ما حولوه الى ملتهم » وقال ان أكثر من قتل من الزنادقة — ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره — هم الذين آباؤهم وامهاتهم نصارى ، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ، ومواضع التهمة لم تجد اكثرهم الا كذلك » قال « ومما عظم النصارى فى قلوب العوام ، وحببهم الى الطغام ، ان منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك ، وأطباء الاشراف ، والعطارين والصيارفة ولا تجد اليهودى الا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً ، أو قصاباً أو سباكاً[2]

وذكر أن المسلمين يحبون النصارى اكثر من اليهود ، لان النصرانية كانت فاشية فى العرب وغلبها غالبه ، الا مُضَر فلم تغلب عليها يهودية

(١) البزيون السندس (٢) السعاية النميمة وحرفته السعاية

ولا مجوسيه ، ولم نفشُ فيها النصرانية ، الا ما كان من قوم منهم ، نزلوا الحيرة يسمون العباد ، فانهم كانوا نصارى وهم معمورون[1] مع نبذ[2] يسير فى بعض القبائل ، ولم تعرف مصر الا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانيه على ملوك العرب وقبائلها على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعه وطى فى قبائل كثيره وأحياء معروفه ، ثم ظهرت فى ربيعه فغلبت على تغلب وعبدالقيس وافناء[3] بكر ثم فى آل ذى جَدَن[4] خاصه وجا الإسلام وليست اليهودية غالبه على قبيله ، الا ما كان من ناس من اليمانيه ، ونفذ نفر من جميع اياد وربيعه ، ومعظم اليهوديه انما كان بيثرب وحِمْيَر وتَيماء ووادى القرى فى ولدِ هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى ، المُلكُ الذى كان فيهم ، والقرابه التى كانت لهم ، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيره ، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الاسلام ، وأن فى النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين فصاروا بذلك عندهم علماء وفلاسفه حكماء ، ولم يروا ذلك فى اليهود

وقال فى وصف حال الفلسفه عند اليهود « انهم يرون أن النظر فى الفلسفه كفر ، والكلام فى الدين بدعه ، وأنه مجلبه لكل شبهه ، وانه لا علم الا ما كان فى التوراة وكتب الانبياء ، وان الايمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقه ، والخروج إلى الدهريه ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوه ، حتى أنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك »

وقال فى علاقه المسلمين بالنصارى « على أن هـذه الامه لم تبتل باليهود

(١) المعمور الخامل[5] (٢) النبذ الشىء القليل اليسير
(٣) الهاء محركة الكثير ، وبالسكون الجماعه (٤) قيل من أقيال حِمْيَر

ولا المجوس ولا الصابئ ، كما ابتليت بالنصارى ، وذلك انهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف الاسناد من رواياتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يَخْلُون بضعفائنا و يسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ر بما تبراوا الى علمائنا واهل الاقدار منا ، و يشغبون على القوى ، ويُلبِّسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى انه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من احد »

ونفسير هذا أن الجاحظ عُنى بالرد على من نال من الاسلام ، فلم يتخلَّ حتى عن الكتابيين ، واحس بعلل صلات النصارى بالمسلمين ، واعترف بان من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول الدهماء من المسلمين ، وقال ان النصارى ليسوا اهل حكمة ، وان الحكمة خاصة باليونان ، وانما النصارى اهل صناعات ترفع الى بلادهم شيء من علوم اليونانيين ، واليونان مخالفون للنصارى فى دينهم وتاريخهم وادبهم ، واليهود لا يعرفون شيئاً غير التوراة ، و ينبذون ما عداها من العلوم ، وصناعاتهم حقيرة ، وصناعات النصارى مرموقة ، وان ما عطف قلوب جمهور المسلمين على أبناء النصرانية الا الصلات الكثيرة التى باعدت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط وكان فيهم ملكاً قائماً

كثر الزنادقة فى عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فقال هو بالضرب على أيديهم قائلاً « اجمعوا على ان قتل النفس احيا للجميع ، وان اصلاح الناس فى اقامة جزاء الحسنة والسيئة ، ولكم فى القصاص حياة ، والقَوَد حياة ، وهذا شيء تعمل به الامم كلها غير الزنادقة ، والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها مُلك ومملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق »

وأجاب من قال له ان الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق

البق الأسص ، والحجر الاسود واسحاده الحط « ان إنفاق الرنادقه على تحصيل الكتب ، كانفاق النصارى على البيع ، ولو كانت كتب الرنادقه كتب حكم ، وكتب فلسفه ، وكتب مقاييس ، وسنن وتبيين ، اولو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات ، او سبل المكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب ، وإن كان ذلك لا يقرب من غنيّ ولا يبعد من مأثم ، لكانوا ممن قد يجوز ان يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبه في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانه على طريق تعظيم الملة ، فانما انفاقهم في ذلك كانفاق المجوس على بيت النار ، وكانفاق النصارى على صلبان الذهب ، وكانفاق الهند على سَدَنه البدده[1]

والذى يدل على ما قلنا انه ليس في كتبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعه أدب ، ولا حكمه غريبه ، ولا فلسفه ، ولا مسأله كلاميه ، ولا تعريف صناعه ، ولا استخراج آله ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعه عن دين ، ولا مناضله عن نحله ، وجلّ ما فيها ذكر النور والظلمه ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العفاريت لا ترى فيها موعظه حسنه ، ولا حديثاً مونقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسه عامه ، ولا ترتيب خاصه ، فاى كتاب اجهل ، واى تدبير افسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعه والتحرج بالديانه على جهه الاستبصار والمحبه ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبون الا دنيا أو دينا وكل دين يكون اظهر فساداً احتاج الى الترويج والتمويه ، ومن الاحتشاد له ، والتغلط فيه ، الى اكثر ، وقد علمنا ان التعمراديه

---

(١) البد الصنم معرب بت ج بدد وأبداد بيت الصنم ، والسدنه واحدها سادن وهو خادم الصنم وأطلق في الاسلام على خادم الكعبه

أسد انشاراً من اليهوديه نمداً ، فعلى حسب دلك نكون ر ندهم فى نوكيده ، واحتمالهم فى اظهار نعلمه »

وقال فيهم وفيس يحب مساكنهم « ورىما سمع أحدهم ممن لا معرفه عنده ولا تحصـــيل له ان الزنادقه طرفاء ، وانهم علماء وادباء ، وأنهم عباد ، واصحاب احتهاد ، وأن لهم التصابر فى دينهم ، والبذل لمهجهم ، وأن هناك علماً وعمراً ، وإنصافاً وتحصيلا ، فيترو بحوهم برو التُّهر الارن[1] ، ويحن إليهم حنين الوالهه المحول ، وينصى فيهم صـــبابه العاشق المتيم ، ويرى أنه متى انهم بهم فقد قضى له بذلك كله ، ولا يزال كذلك حتى يسهل فى طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم انه زنديق »

وقال فى نعت الدهريين « فان الذى نفى الرب ، ويجهل الأمر والنهى ، وينكر جواز الرساله ، ويجهل الطبيعه وبدعه ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام ، ولا يعرُ بان فى جميع العالم برهاناً يدل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ، ويجهل الملك الذى لا يعرف نفســه من غيره ، ولا يفصـــل بين الحديث والقديم ، وبين المحسن والمسيء ، ولا يستطيع الزياده فى حركته ، ولا النقصان من دورانه ، ولا معاقبه للسكون بالحركه ، ولا الوقوف طرفه عين ، ولا الانحراف عن الجهه هو الذى يكون به جميع الاجرام والانفس ، ودقيق الامور وجليلها ، وهذه الحـــكم العجيبه ، والتدابير المتقنه ، والتأليف البديعه ، والتركيب الحكيم ، على حساب معلوم ، ونسق معروف على غايه من حقائق الحـــكمه ، واحكام الصنعه لان الدهرىّ ليس يرى ان فى الارض ديناً أو نحله او شريعه أو مله ، ولا يرى للحلال حرمه ولا يعرفه ، ولا للحرام نهايه

(١) الارن الهائج ، ونترو تثب

ولا بعرفه ، ولا سوقع العقاب على الإساءة ، ولا سوجى الثواب على الإحسان ، وانما الصواب عنده والحق فى حكمه ، أنه والبهيمه سيان ، وأنه والسبع سيان ، لس الفسح عنده الا ما حالف هواه ، وان مدار الأمر على الاحماق والدَرك ، وعلى اللذه والألم ، وانما الصواب فيما نال من المنفعه ، وان فضّل الف انسان صالح لمنالة[1] الدرهم الردىء »

وقال فى المناسبه اصحاب مانى « ان اناساً حين جهلوا الاسباب والمعانى ، وقصروا فى الحلمه عن تامل الصواب والحكمه فيها خرجوا الى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الاسياء وزعموا ان كونها بالاهمال لا صنعه فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزله عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش وأعِدّ فيها من ضروب الاطعمه والاشربه والمآدب ، ووضع كل شىء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يترددون فيها يمينا وشمالا ، يطوفون بيوتها ويخبطون برجلهم فيها محجوبه أبصارهم فلا يبصرون هذه الدار وما أعدّ فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشىء قد وضع فى موضعه وأعد لسانه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وسخط وذم الدار وبانيها »

« فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما انكروا من الحلمه ، وأنهم لما عذبت أذهانهم عن معرفه الاسباب والعلل فى الاسياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفهمون ما هو عليه فى اتقان خلقه ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشىء يجهل سببه والارب فيه ، فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطا والاحاله ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المانيه الكفره ، وأشباههم من أهل الضلال يخوضون على من انعم الله عليه بمعرفته ، ووفقه لتامل هذه الحلمه ، والوقوف على ما فى خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ،

(١) النال والمنال والمنالة مصدر نلت أنال

بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصر فى اظهار ما بانه عليه من ذلك ، بل يجهد فى نشره و اذاعته و ايراده على المسامع والاذهان ، ليقوى دواعى الايمان ، وتجتنب مكيدة الشيطان »

هذه نموذجات من اساليب الرد على من خالفوا الإسلام ، ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدون ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد ، ويأذى الاسلام بدعوتهم ، وتسرى فى اذهان العوام وقال فى المجوسية ولم يرفظ ذا دين تحول الى المجوسية عن دينه ولم يكن ذلك المذهب الا فى صنعة من اهل فارس والجبال ، وخراسان كلها فارسية فان عجبت من استسقاطى لعقل كسرى ابرويز وآبائه واجداده ووزرائه وكتابه واطبائه وحكمائه واساورته فانى اقول فى ذلك قولاً لا تعرف به انى ليس الى العصبية ذهب

رأى ابو عثمان ازال العقوبات فى الناس بالاديان فقال « من لم يعمل باقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل فى موضع القتل ، واحيى فى موضع الاحياء ، وعفا فى موضع العفو ، وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، واعطى ساعة الاعطاء ، خالف الرب فى تدبيره ، وظن ان رحمته فوق رحمة ربه ، وقد قالوا بعض القتل احياء للجميع ، وبعض العفو اغراء ، كما ان بعض المنع اعطاء ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشر منه من كان شره صرفاً ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والاعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فان الناس لا يهابون ولا يصلحون الا على الثواب والعقاب ، والاطماع والإخافة ، ومن اخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عز وجل اولى

بذلك الحكم ، وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار ، وفى جميع الأعصار ، على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً »

وراعى سمعك فى تلاوة الجملة الآتية ترد على من لم يحسن من العلماء تعليل أمية رسول الله ، وكيف جاءت فأحسن مجاحة ، ودلت على قصور علمه وضعف منطقه ، قال « وكان شيخ من البصريين يقول إن الله إنما جعل نبيه أمّيّاً لا يكتب ، ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين ، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب والأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ، ليكون أنقص حظا من الحاسب والكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبيّاً ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ؛ فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ، ليجلي له الكثير

قال الجاحظ وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر ورواية النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ،

وكان اذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، و اذا احتاج إلى الخطابة كان اخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان في ظاهره ، والمعروف من شانه انه كان حاسب وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم اعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لامره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ، ولكنه اراد ان لا يكون للشاعر مُتَعَلَّق عما دعا اليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب و ان رق ، وليكون ذلك أخف في المؤنة ، وأسهل في المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الامور التى كانوا يتكلفونها و يتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، وأما في غير ذلك ، فإنه اذا شاء كان انطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، واقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته اكمل ، الا انها كانت مصروفة الى ما هو ابعد ، و بين ان تضيف اليه العادة الحسنة وا شاع الشيء عليه من طول الهجران له رفق

قال « ومن العجب ان صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط ، بل لم يره الا وهو و ان طال الكلام قصر عنه كل مطيل ، و ان قصر اتى على غايته كل خطيب ، وما عدم منه الا الخط و اقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من امره عليه السلام غير ما توهم »

و يخيل الى من يتدبر هذا الكلام انه لم يفهم من أمر الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما ادركه الجاحظ من هذه الصفة السرية في النبي خاصة ، واذا فهمه فيسجل له علمه ان يكسب فكره بهذا البيان

انظر اليه ينقد على السلف في تقصيرهم في سيرة الرسول ، يقول ان السابق

الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقاً في الصدور ، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى الله عليه وسلم وبرهانه ودلائله وآياته ، وصنوف بدائعه ، وأنواع عجائبه ، في مقامه وظعنه ، وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم وبحضرة العدد الكثير الذين لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل والعدو المائل لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ، ولا دهري معاند ، ولا متظرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً في عوامنا كشهرته في خواصنا ، ولكان استبصار جميع أعدائنا في حقهم كاستبصارهم في باطل بصارام ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع في غبي يستميله وفي حدث يموه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بالسنتنا واستعانوا بعقولنا على أعدائنا وأعمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر وإظهار البارز والاحتجاج الواضح اه

كان الجاحظ على سعة صدره ، وطول أناته ، لا يغفر التخليط لأي كان ممن عاصرهم أو تقدموا زمنه ، بأنفسهم وبجانسهم خصوصاً إذا قصروا في الكلام وادعوا ما ليس فيهم وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه . فقد رأيناه آنفاً ينحي انحاء شديداً على الخليل بن احمد وعلى عبد الله بن المقفع ، لأنهما تكلما في الكلام أموراً عدها جرأة على العلم ومن رأيه أن الرجل إذا أتقن الصنف والصنفين من العلوم يجب أن لا يدعي غيرها ، ويحجم عن ماهيات العلوم الأخرى ، فلا يتطاول إلى ما لا يعلم ، فالخليل بن احمد صاحب العروض والنحو كان يجب أن يبقى في فنه لا يتعداه ، وكذلك عبد الله بن المقفع كان المفروض فيه ، وهو ما هو في البلاغة والحكمة واختراع المعاني ، أن لا يتعدى ذلك إلى البحث في الكلام

ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما بعدنا أحد صاحبيهما في العلم ، وعدها بسدة لم يسمع فيهما دكاؤهما النادر ، وجهه احصائهما في الفنون الاخرى قال في كتابه طبقات المغنين بعد أن ذكر ان الخليل بن احمد واضع علم العروض فلما أحكمه وبلغ منه ما بلغ احد في تفسير اللحون فاستدرك منه شيئاً ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستعمله من عني به ، وكان اسحاق بن ابراهيم الموصلي اول من حذا حذوه وامتثل هديه واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل ابن احمد قبله وقال في الموصلي انه الف في الغناء كتباً معجبة « وجهل له فيها ما كانت صعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاصل ، وحذو راجح ، ووزن صحيح »

مقابل المر يبدو مني عالج عملاً ليس منه بسبيل ، فقد كتب المسعودي في سنان بن ثابت الحراني لما وضع كتاباً في الاخلاق يقول « انه استحل ما ليس من صناعته ، واستنتج ما ليس من طريقته ، وهو وان احسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فانه عيب لانه خرج عن صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو اقتصر على علمه الذي انفرد به من انواع الفلسفة ، لكان قد سلم مما تكلمه ، وابى عما هو ألبس بصنعته ، ولكن العارف بقدره مغرور ، والعالم بمواضع الخلة معذور »

كل هذا يعالجه الجاحظ في نطاق الانصاف والادب باسلوب لا يخلو من لذع وتهكم ومن أقواله وان امرأ اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان ، على اختلاف اهوائهم وتعنتهم لكل ما ورد عليهم ، فان قال قائل هذه الروافض باسرها تابى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه وترى تغييره ، قلنا ان الروافض ليست ممن يستدل ، لان من كان اذانه غير اذاننا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ، وحجه غير حجنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا ، وامامه غير امامنا ، وقرآنه غير قرآننا ، وحلاله غير حلالنا ، وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا

سىل الحاحط مره ما ناو ىل هـده الآىه (وكذلك أحد ر ىك اذا أحد القرى وهى ظالمه ، إن أحده أليم شديد) فقال ناو ىلها ىلاوىها وىحن إدا سئلىا ما هى الصىعه أو التثقىف او الفن فى كلام الحاحط ىقول ىدىروا كلامه ىدركوا ىسلمه من الصنعه وادا كان لا ىد من ىحلىل صىعىه ىقول كان اساع ا فى ضىاى فى اللعه لا ىسىه اساع اللعوىىن ، اسىىطن من أسرارها ما ىعل اسىىطان مثله على عىره ، وعرف طوائف من الالفاظ ىصلح فى الأدب ، وطوائف ىصلح فى الزراعه ، واحرى للصناعات واعمال الحىاه ، وعىرها للدىىىاب و طالب اا ىى ، عدا ما حص ىمعرفىه من الالفاظ الصالحه لـكل سان كان حد عارف ىمـا ىحىار و ىطرح ، ىعدر اللفظه ىحرسها ورىىها ، وما سوقع ىن ىا ىر ىوه ىها وىلحىها اذا قرىت إلى أحىها ، و ىمىر الىقىله والحفىفه ، والمانوسه ىن الوحىىه ، فىحىار ما ىودى حمله حىى الاداء فاىداعه فى فىه ىرحع اولا إلى ما ىحىار ىن الالفـاظ كان ىحاناً وىىاء فى آن واحد ىحو د ىحب احىحاره ، و ىحسن وصعها فى الىاء ، والمهاره كل المهاره فى ابرار المىىاىل ىن المواد الى حا ىب ما ىوائمها ، وقد ىسىحىد الىانى احمل الاحىحار لىىاىه ، فادا لم ىحسن الهىدسه فقد الىىاء روعىه المىعرة ىان الىانى علىم ىالحمال ىقول العسكرى « ان المعانى مشىركه ىىن العقلا ، فرىما وقع المعنى الحىد للسوقى والىىطى والزىحى ، و اىمـا ىىفاضل الناس فى الالفاظ ورصفها وىالىفها وىطمها »

اعظم ما ىدور حوله صىعىه الحاحط اداً ااه فى ىصىده ىن ىحر الاا ه الملاطىه امواحه فى صدره هو لم ىسىعمل الا ما عذب فى المذاق ، وحلا فى

السمع ، وما تحذلق قط فاكره حشو الالفاظ على اداء ضعف المعانى ، وما عمد الى سهل اللفظ للإفصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبداً ان تخير ألفاظاً لمعانيه ، لا معانى لالفاظه تسير مع الطبع ، ولا تتكلف السجع ، و تكتفى منه بما جاء عفواً فى الاحاديث ، متجافياً عن حزونة العمل ، ووعورته[1] الا قصد ، وآية ضعفه ولوعه بتصوير المعانى ، وتقريبها من الأذهان لتخرج البالى بشىء سوى فى نفسه اذا عرفنا كل هـــذا كشف لنا بعض الغطاء عن تفاهته فى ابداعه وفنه

وقد افصح عن ضعفه بقوله « ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال[2] ، وعلى السرقة والاحتيال ، لم تنل طائلا[3] ، وشق عليه النزوع[4] ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة والوجه الصائر ان تحفظ الفاظاً بعينها من كتاب بعينه ، او من لفظ رجل ، ثم تريد ان تجد لتلك الالفاظ قسمها من المعانى ، فهذا لا يكون الا بحيلا فقيراً ، وحائفاً مروقاً ، ولا يكون الا مستكرهاً لالفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف ، منقطع النظام ، فاذا مر كلامه بنُقاد الالفاظ وجهابذة المعانى استجهروا عقله ، وبهرجوا علمه ثم اعلم ان الاستكراه فى كل شىء سمج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو فى الطرف اسمج ، وفى البلاغة اقبح ، وما احسن حاله ما دامت الالفاظ مسموعة من فمه ، مسرودة فى نفسه ، ولم تكن مخلدة فى كتبه ، رهينة الكتب

---

(١) وعث الطريق كسمع وكرم تعسر سلوكه ، والوعث المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر

(٢) الوكال هو الاتكال من تواكلا مواكلة ووكالا اذا اتكل بعضهم على بعض

(٣) لطرف بطائل والطائلة الفضل والقدر والغنى والسعة

(٤) النزوع النسبة

ما اذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه » ومعنى قوله هذا ان جمهور الكتاب ، من لم يستطهر ألفاظاً بعينها ، لسكونها على الاندماج في تراكيبه ، ومن لا يستعمل من الالفاظ الا السهل ، حتى يحوز رضا النقاد ، وأن يجعل تصحيحه لدواوين المعاني لا لدواوين الالفاظ « وسر العلماء من هنا رسم المعنى قبل ان تهيئ المعنى » عشماً للفظ الذي يريد الخاصة ولعل السبب في أنه لم يأت من اللغويين كتاب عظماء كونهم حصروا اذهانهم في الالفاظ ، وما عاموا بمواطن الاستعمال ، فملاوا حافظتهم بالجيد والرديء ، وعدوه كله من الجيد ، لانه كان من محفوظهم ، فاذا جاءوا يحسنون استعملوا كل ما وجدوا امامهم او ذكروه ، فقصروا في البيان ، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغا

وفي نظره « ليس الكتاب إلى شيء احوج منه الى افهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة[1] والحشوة ، ويحطه من غريب الاعراب ووحشي الكلام ، وليس له ان يهذبه جداً ، وينقحه ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق الا بلباب اللب ، وباللفظ الذي قد حذفَ فضوله ، وبعر فيه واسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شَوب فيه ، فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه ، الا بان يُجدِّدَ لهم إفهاماً ، مراراً وتكراراً ، لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت افهامهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا ان تعكس عليها وتوجد بها »

فالطريقة عنده اذاً الا يكثر المنشي من التصفية والتروية في الالفاظ ، ولا يرسل كلامه في الناس ، مقرباً بما جادت به قريحته بادي الرأي فهو يريد التصحيح ، ولكنه لا يوصي بالاكثار منه ، لان في الغلو الزلل ولما كان

(١) سفلة الناس (بكسر السين) كفرحه واسافلهم وغوغاؤهم

على علم بان « فيه الرجل بشعره ، وفيه بكلامه وكتبه ، فوق فتنه بجميع نعمه » اوصى من يكتب كتاباً « ان لا يكتبه إلا على ان الناس كلهم له اعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له » قال أبو زيد البلخى ما احسن ما قال الجاحظ « عقل المنشئ مشغول ، وعقل المتصفح فارغ » قال أبو عثمان « ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ولا يرضى بالرأى الفطير ، فان لابتداء الكتب فتنة وعجباً ، فاذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الاخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فيتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزن طمعه فى السلامة ، أنقص من وزن خوفه من العيب » دل الكاتب بهذا على الوقت المناسب لاعادة النظر فيما كتب اما هو فكان يحسن اختيار الزمن الذى يبرز كلامه فى قوالبه المعهودة احسانه اختيار وضوعه وقد حكى تلميذه المبرّد عنه قال رأيت الجاحظ يكتب شيئاً فيبتسم ، فقلت ما يضحكك ؟ قال اذا لم يكن القرطاس صافياً ، والمداد ناميا ، والقلم وانياً ، والقلب خالياً ، فلا عليك ان يكون غائباً وهذا الكلام لا يصدر عن غير متفنن ، ومن غير الجاحظ ، ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحيوية والمائية ، تبتسم وتغازل وترقص وتغنى

قال الجاحظ « وليس فى الارض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط فى شعره وفى ولده ، الا ان الناس فى ذلك على طبقات من الغلط فمنهم المغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطا ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما احسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل فى استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقى ، ومن اعادة النظر والتهمة ، الى اضعاف ما يحتاج اليه فى سائر ذلك »

وانظر اليه بعد هذا يصور لك كاتباً « خلا بقلمه عند فقد خصومه ، واهل للبراله من صناعته » و يقول ان « صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما اكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ، لانه ابتدا الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون ان الصواب في الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة ، فزاد في غضبه ، فأراه الغضب أن الرأى في الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما اكثر من يبتدى الكتاب ، وهو يريد مقدار سطرين و يكتب عشرة »

فهذا نمت مرتبة الجاحظ من الصنعة معروفة الى موهبة الفطرة المطبوع عليها لا يطيل كلامه ولا يختزله ، ولا يرسله ارسالا ، يسيل سيلا ، بل يطرده اذا خلا بنفسه ، فيحذف فضوله ، و اذا اضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعاني الصريحة ، كان في ذلك البلاغة وجماع الصنعة المعجزة انظره مثلاً في كلامه على الخصاء في الانسان كيف يعبر في جمله قصيرة عن معانٍ كثيرة دقيقة ، و يقول في سهولة وتهكم « وكل خصاء في الدنيا فإنما اصله من قِبَل الروم ، و من العجب انهم نَصارى ، وهم يدَّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد ، ما لا يدعيه أحد من جميع الاصناف » فهذا الايجاز واللفظ المنتقى ، صور المعنى الذي يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة ، وقال انهم المتفردون بين الأُمم في ارتكاب هذه الكبيرة

و شرح هذه العادة في الرد على الروم بقوله ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم ، انهم اصحاب الخصا من بين جميع الامم ، والخصا اشد المُثلة ، وأعظم ما ركبه الانسان ، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم ، ولا نعرف قوماً يُعرفون بخصاء الناس حسب ما كانوا الا بلاد الروم والحبشه ، وهم في

عبرها فليل وافل فليل ، على انهم لم سطلوا الا منهم ، ولا كان سبب فى دلك عيرهم

لا حرم أن فى الحاحظ محس تصو يره ، لا نترك محالا لان يدعى عليه القارئ اول قصور ، تصور لك كالمصور المبدع بالعبارة ، وقد تسطها او يقصها ، و تصور بالاساره ، و بالشاهد والواقع ، حى لا يحرح من كلامه الا وقد وعت أموراً تحمل إليك انك سُحرت ، لما عمُر به صدرك وقلبك مما املى عليك ومن اهم ماقى الحاحظ من صنعه ان كلامه فليل الاسعارات والكنايات والمحازات والتشبيهات ، لا يأحذ منها الا بقدر معلوم عند الحاحه ، لان صفا ديباحته ، ونصاعه معانيه ، لا تحوجانه الى الاستعانه بما يبرقش به حمله والقوى فى امتلاك ناصيه الكلام فى غُنيه عن هذه التهاو يل والزحرف[1] والطلا ، نَصُل ، و ان حَسُن فى الا ين للنظره الاولى ، والعبرة بما تحته من المقاطيع والمسامه وليس معنى هذا انه اسقط الكنايه والاستعار والمجاز والتمثيل حملة ، فانها الاقطاب التى يدور البلاغه عليها كما قال عبد القاهر ، وهى التى نوه بذكرها البلغا ، ورفع من اقدارها العلماء ، وصنفوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعاً من العلم معرداً حصوصًا الاستعاره والمجاز وخَصله احرى وهى ان الحاحظ ليس من ارباب الخيال الواسع ولا الصنو ، هو حلىق ان يعدّ فى جماعه المحسوسات ارباب الفلسفه الحسيه ، ولذلك كان يدير ره فى الا بر اما سعره فلا يتعدى حدّ الحكايه ، وتصو ير حال وحَدَث ، واطالما ناسده وبدوفه

للحاحظ فصول كثيره تحله المحل الارفع من الابداع فى تصو يره ، رمما ه

(١) الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشى ومن القول حسنه بتمويه الكذب ومن الارض ألوانها ، والتهاويل الألوان المختلفه ، وزينه التصاوير والنقوش والحلى

وصفه لا تقلّ عن معانيه في الحكاية والرواية انظر الى حكاياته ورواياته في كتاب البخلاء ، وأمعن النظر فقط في أقوال الكندي ، وتخيّل بن سياحرون الدور وأخلاقهم ونوادرهم ، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة في شؤون الحياة وانظره في رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه ، تدلى الامك بحججه في المدح ، وحججه في الذم ، ثم يحكى لك ولا يبالي أن حذاق الملوك وأصحاب العادات التامة ، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن ، و تشدّوا من مَسهم بالشراب الذي اذا وقع في الجوف حرّك الدم ، و اذا حرّك الدم حرك طباع السرور ، ثم لا يزال زائداً في مكيال الدم ، زائداً في الحركة المولدة للسرور قال « هذه صفة الملوك وعلية سوا امرهم ، جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه » تأمل قوله جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه ، فان فيه صنعة ، و ينطوي على معان كثيرة

كتب رسالة النبيذ الى صديقه الحسن بن وهب ، ومما قال في مدح النبيذ انه « اذا تمشى في عظامك ، والتبس باجزائك ، ودب في جنانك ، منحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخي البال ، خليّ الذرع ، قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهم ، حسن الظن ، ثم سد عليك ابواب التهم ، وحسم دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤونة الحراسة ، والم الشفقة ، وخوف الحدثان ، وذل الطمع ، وكد الطلب ، وكل ما اعترض الا سرور وافسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، واخل بالنعمة ، وهو الذي يرد الروح في طباع الشبان ، و يرد الشباب في بساط الشيبان ، وليس يخاف سار به الا مجاوزة السرور الى الاشر ، ومجاوزة الاشر الى البطر ، ولو لم يكن من أياديه و به ، ومن جميل آلائه ونعمه الا انك ما دمت تمرحه بروحك ، ويراوح بدنه و بين

دملك ، فقد اعفاك من الحد ونصبه ، وحبب إليك المراح والفكاهه ، ونقَّص إليك الاستقصاء والمحاوله ، وازال عنك بعض الحسمه ، وكد المروءه ، وصار يومه جَماماً لاتام الفكره ، وتسهيلاً لمعاوده الرويه ، لكان في ذلك ما يوجب السكر و بطب الذ كر » ، و بالفن الذى حواه هذا الكلام حتى يعاطى النبيذ حتى لمن لا يعاطاه !

وأنت اذا نظرت الى رسالته فى القيان تراه إذا وصف لك الوجه الحسن يكاد يصوره بعينك ، و اذا عرّض للقبيح يعرفك منه أى نفور ألا تعجب منه اذا تلوت فيـه اسطراً قليله فى وصف حال المغنيه فى عصره اذ يقول « وكيف تسلم القَينه من الفتنه أو يمكنها ان تكون عفيفه ، و انما تكتسب الأهواء ، وتعلم الالسن والاخلاق بالمنشا ، وهى إنما تنشا من لدن تولدها الى أوان وفاتها ، بما يصدُ عن ذ كر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والاخانيث ، و بين الخلعاء والمجان ، ومن لا تُسمع منه كلمه جِد ، ولا يَرجع الى ثقه ولا دين ، ولا صـيانه مروءه ، وتروى الحاذقه منهن اربعه آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين الى أربعه ابيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر ، اذا ضُرب بعضه ببعض عشره آلاف بيت ، ليس فيهـا ذ كر الله الا عن غفله ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، و انما بنيت كلها على ذ كر الزنا والقياده والعشق والصبوه ، والشوق والغلمه ، ثم لا تنفك من الدراسه لصناعتها منكبه عليها ، تاخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش[1] ، و اسنادهم مراوده ، وهى مضطره الى ذلك فى صناعتها ، لانها ان جفتها تفلتت ، و ان اهملتها نقصت ،

(١) التجميش كالجمش المغازلة والملاعبه والمطارحون من يلقون اغانى على طرحت عليه المسالة وطارحته علم و غنا و طارحنا

و إن لم تسعد منها وقت ، وكل واقف فالى نقصان اقرب ، و انما فرق ما بين أصحاب الصناعات ، و بين من لا يحسنها الترديد فيها ، والمواظبة عليها ، فهى لو أرادت الهذى لم تعرفه ، ولو تبعت العقبة لم تقدر عليها و ان تابت حجة الى الهُدَى ل عنها يحب على المفكر زال عنها خاصة ، لان فكرها وقلبها واسانها و يدها مساعدة عما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن يُلى مجالسها عليه وعليها »

ألست تلمس فى مفردات هـذا الكلام ومركباته فن الجاحظ ، تأمل قوله « ان جمعها تعلت وإن اهملها نقصت » وقوله « باخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله محمس و إسنادهم مزاوده » وقوله « وكل واقف فالى نقصان اقرب » ، ونحن اذا اكثرنا من ايراد الشواهد من اقوال أبى عثمان ، فذلك لنخرج منها بدليل حسى نسقط به حجة خصومه فى دعواهم انه كان يقول الشى ونقيضه ، على أن هذا ايضاً ضرب من البلاغة ، وأُسلوب من أساليب الص ه ، لا يتيسر مثله لغير افراد فى البلغا ، فقد يوفى الكاتب موضوعه ع د نفسه ، ر بلوغه للوصول الى د ر جة الوفاء مُعربة ، ولـكنه قد لا يرضى غيره ولا يلائم حاجته لامور نفصه

اسمع للجاحظ قطعة اخرى يصف الملك فيها جملة حال النساك ويصف لك طبقاتهم ، ويصف لك الدواعى التى اهابت بهم الى التنسك المصمع ، فتركوا الكدح فى الحياة ، ورضوا ان يكونوا جملة طفيلية ع ص رزق غيرها قال « وجدنا لجميع اهل النقص ، ولاهل كل ص ف منهم نسكا يعتمدون عليه فى الاعمال ، و يحتسبون به فى الطاعة وطلب المثوبة ، و يفزعون الـ ه على قدر فساد الطباع ، وضعف الاصل ، واضطراب الفرع ، مع ح ث النسا ،

وقلة التثبت والتوقف ، ومع كثرة التلف والإقدام مع اول خاطر ، فنسكُ المرتب المرتاب من المتكلمين ان يتحلى بزي الناس بالرتبه ، وبتربص باصابه ما يجد فى نفسه الى خصمه ، خوفاً من أن تكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك الداء بزي الناس به ، ونسكُ الخارجي الذي يتحلى به ويتزين بحماله ، اظهار استعظام المعاصى ، ثم لا يلتفت الى مجاوره المقدار ، والى ظلم الاعداد ، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب ان يظلم أظلم الظالمين ، وأن فى الحق ما وسع الجميع ، ونسكُ الخراسانى ان يحج ويقام على قفاه ، ويتقلد الرئاسه ويهيأ للشهاده ، ويبسط لسانه بالحسبه وقد قالوا اذا تَنَسَّكَ الشريف تواضع ، واذا تنسك الوضيع تكبر ، وبعسيره فرب راضح ونسك الكوفى والجندى طرح الديوان وزيارة السلطان ، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ، ونسكُ الجندى لزوم طرسوس ، واظهار مجاهدة الروم ، ونسك الرافضي ترك النبيذ ، ونسك النسائي ترك شرفه الثمر ، ونسك المعنى الصلاه فى الجماعه ، وكثرة التسبيح والصلاة على النبى ، ونسكُ الهرديى التشدد فى السبت واقامته ، والصوفى اظهار النسك بين المسلمين اذا كان قَسلاً [1] بعض العمل بطرف واظهر تحريم المكاسب وعاد سائلاً ، وجعل مسألته وسيلة الى تعظيم الناس له واذا كان النصرانى قسلاً بدلاً ممساً للعمل ترهب ولبس الصوف ، لانه واثق انه متى لبس وترنا بذلك الزيّ وتحلى بذلك اللباس ، واظهر تلك السيما انه قد وجب على اهل اليسر والثروه منهم ان يعولوه ويكفوه ، ثم لا يرضى بان يَربح الكفايه باطلاً حتى استطال بالمرتبه فاذا رمى المتكلم المرتاب اهل البراءه ظن انه قد حوّل ريبته الى خصمه ، وحوّل براءة خصمه اليه ، واذا صار كل واحد من هذه الاصناف الى ما ذكرنا فقد

(١) القسل الرذل الذى لا مروءه له كالفسول ج أقسل وقسول

ملع الأممه ووقف على النهايه ، فاحذر ان سكون منهم »

وزاد فى مكان آخر ذاكراً الدواعى الى دعب الحصيان الى النسك ، فقال « ان نسك الخصى عدو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوه ، وقال إن سلكَ المتكلم التسرع الى اكفار اهل المعاصى ، وان يرمى الناس بالجبر او بالتعطيل او بالزندقه ، يريد أن يوهم اموراً منها أن ذلك ليس الا من بعط منه للدين والإغراق فيه ، ومنها ان يقال لو كان نَطِفاً [1] أو مرتاباً أو محسحاً [2] على نيله ، لما رمى الناس ولرضى منهم بالسلامه ، وما كان ليرميهم إلا بالذى فى قلبه ، ولو كان هناك من دلائل الريبة شيء لقطعه ذلك عن التعرض لهم ، او التهمة على ما عسى ان حركهم له ان يتحركوا ، ولم نجد فى المتكلمين اتطف ولا اكثر عموماً ممن يرمى خصومه بالكفر »

أرأيتم ابا عثمان يختم جملته الجملة بقوله « فاحذر ان تكون منهم » يأتى بها بعد ان وصف النساك ووصف سخفهم ومصيرهم ، و بعد ان نبههم واستعطفهم حذر منهم استعموه يقول « ولم نجد فى المتكلمين أنطف ولا أكثر عموماً ممن يرمى خصومه بالكفر » والمتكلمون هنا رجال الدين ، و لم لا يكره النساكَ و يدعو الناس الى كراهيتهم وهو الذى لا يقول بغير العمل فى الجمع الذى يرى ؟ ومن مذهبه ان البارى تعالى منح عبده عقلاً وعرفه طرق الخير والشر وهو مسؤول عن عمله ، ولعلك أدركت ايضاً ان خطاب الجاحظ فى النسك كان موجهاً لكل من يقرأ كلامه عربيًا كان أم اعجميًا ، مسلماً كان ام كتابيًا ، موافقاً كان ام مخالفاً لان الكاتب كاره للنساك على هذا الوجه بها كانت صورهم

(١) النطف المتهم بريبه والفاسد
(٢) محسح عليه بعمد

وبخلتهم ، بعمد المصارّ التى يحلونها على المجتمع الإنسانى عامه ، وكلام الجاحظ فيهم سوى فى نفسك اثراً اذا تدبرته ، وهذا من صنعه وفنه ، وقد صَاَغ كلامه لا يجرى فى غير ابداع ، فقد عقد فصلاً فى السعر يكثر و يقل فى الفصل الواحد لدواع و بواعث ، لا لمكان الخصب من أرضهم ، ولا لانهم اهل مدر وأكالو تمر ، وقد يكون هذا بعضهم ردئاً و يأتى فيهم الشاعر « و انما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها » ، وقد ختم كلامه بقوله « وما أعلم فى الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً »

وكذلك تأمل صنعته فى اثباته عن رأيه فى عدم تغليظ حجاب النسا « ثم لم يزل للملوك والاشراف اماء يجلسن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس ثم كن يبرزن للناس احسن ما كن واشد ما يبرزن به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب والدليل على ان النظر الى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المسنة تبرز للرجال فلا تحاشى من ذلك ، فلو كان حراماً وهى شابة لم يحل اذا عنست ، ولكنه امر افرط فيه الناس دون حدّ الغيرة ، الى سوء الخلق وضيق العطن^(١) ، فصار عندهم كالحق الواجب » تدبر قوله ولكنه افرط فيه الخ ، فان فيه صنعة ، وكذلك قوله فى كتاب النساء ايضا يقول ، ولا يقول احد ممن يعقل ، ان النساء فوق الرجال ، او دونهم بطبقة او طبقتين او باكثر ، ولكنا راينا أناساً يزرون عليهن اشد الزراية ، ويحقرونهن اشد الاحتقار ، و يبخسونهن اكثر حقوقهن ، و ان من العجز ان يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والاعمام ، الا بان ينكر حقوق الامهات والاخوال ،

(١) ... واسع العطن اذ كان رحب الذراع

فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجَلَد وقوة المُنَّة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمَته وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وناساً من الخَوَر ، لما تكلفنا كثيراً مما فرطناه في هذا الكتاب قال ونحن وان رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكبر واظهر ، فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الامهات ، وكذلك الإخوة والاخوات والبنون والبنات ، وانا وإن كنت أرى ان حق هذا أعظم فان هذه ارحم انظر ايضاً هذه الجملة بل مجموع العبارة الا ترى فيه حسناً من الكلام لا يحسنه كل انسان

دع هذا واسمع الى ابى عثمان تكتب فى رسالته الفخر بالتجارة « كل ثوب من اللباس والفرش ، اذا كان اللين وانعم واسرى كان ارفع ، وكل عِلق من الجواهر والاحجار ، اذا كان اصفى واضوأ فهو انفس ، وكل حيوان من الوحشية والاهلية ، إذا كان احسن واطوع فهو آثر واخير ، وكل انسان من الشريف والوضيع ، اذا كان اعقل وانبل فهو اجمل ، وكل امرأة حرّة او أمة ، اذا كانت اكثر سكوناً ، واجمل حالا ، وانزر طمعاً ، واشكر للناس فهى أصون ، وكل طير من البهيمة والجملية ، اذا كان آلف كان آثر ، وكل طارف وتالد ، اذا كان اركى واجل فهو أهنأ ، وكل عدو صغير او كبير ، اذا كان حميماً فهو اعدى واشد حسداً ، ومن لم يعرف ماواه فمحذور قربه » تأمل هذه الفوائد التى لا تختلف ، وأنعم النظر فى قوله « من لم يعرف ماواه فمحذور قربه » انما هو من شريف القول الذى يستسيغه كل أحد ويذهب فى تأويله مذاهب ؛ ثم تراه فى هـذا الفصل يعود فيقول والدول تنتقل ، والارزاق مقسومة فاجملوا فى الطلب ، وارحموا المسكين ، واعطفوا على الضعيف ، تجاروا به وتنافوا

والفصاء حالب تحلب الامور ، وحىر النوم ما ىدهب الإعىاء والكسل ومعرفة الاسماء بالحواس الخمس ، حوده السىء بالنطر ان ىكون حسناً رائعاً ، و بالخشوم اذا كان طىباً ارجا ، و بالمداق اذا كان حلواً عدباً ، و بالسمع ان ىكون صافى الوقع والصوت ، و باللمس أن ىكون لىناً ناعماً وكاںب العجم ىقول العاىں والنصر سرىكان ، والطعم والحس ىىعقان ، والفطنه والحفط رفيقان ، والسمع والمنطق محىمعان ورعم سابور الملك انه لىس ىىبعى للعاقل ان ىعىد ىقول سمعه من الناس ىقول السكران والدلال والمصحك والعلىل والعرّاف والىمام والنساء

الحاحط ىمىعه النفس فى صنعىه ، كىف قلّب براعىه وكىب ، ورىحانه الانس اذا حد وهرل ، ىىحلى صنعىه فى وصفه و رواىىه وحكاىىه ، وفى حداله وىقرىره ، رى ىحمىقه و ىقله ، وىطلُّ الانىس على روحه من كل باب ، وحىث ىفلىتَ فى رياض كلامه ىشرف على الوان الاحسان ، و ىاسر عقلك اذا طالب عسرىك له فىسىسلم اليه مؤمناً ، و ان كىب من صعاف الاىمان فىما ىحاول سوىك إليه ، واسىىاعىك فىه

ونحىم هذا ىفصل صغىر رسم فىه الحاحط صوره أخرى من صُوَر صنعىه ، فى موصع حد النىه صور الهرل وهو فى وصف الدىاب ىىال ىن فاحى الىسره ورصىه فى الحس « ىهاىه الفصاحه والاىساع » قال « كان لنا بالىصره قاص ىىال له عىد الله ىن سوار لم ىر الناس حاكما رميناً (١) ركىناً ولا وقوراً حلىماً ، صىط من ىفسه ، وملك من حركىه مىل الدى صىط وملك كان ىصلى العداه فى منرله ، وهو قرىب الدار من مسحده فىاتى مجلسه و ىحىى ولا ىىكى ،

---

(١) الرمىں الوقور وكاسكىں اوقر مىه

فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يَحلّ حبوته ، ولا يُحوِّل[1] رجلا على أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد الى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، اذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط[2] والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الايام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس الا ان يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ باليسير من الكلام الى المعاني الكثيرة

« فبينا هو كذلك ذات يوم (في مجلسه) وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين[3] يديه سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول الى موق عينه ، فرام الصبر في سقوطه على الموق ، وصبر على عضه ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على انفه ، من غير ان يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه أو يذب باصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، اطبق جفنه الأعلى على جفنه الاسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى ان والى بين الاطباق والفتح ، و حتى ربما سكن

---

(١) في رواية ولا يحول رجلا عن رجل ، والحبوة بالفتح والضم ، اسم من احتبى بالثوب اشتمل او جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها

(٢) في رواية من قرأ السجلات

(٣) في رواية والسماط بين يديه ، وسماط القوم بالكسر صفهم

حمه ، ثم عاد الى موقه ناسد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان ، كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله اقل ، وعجزه عن الصبر عليه فى الثانية اقوى ، فحرك اجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، وألحّ فى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدّاً من أن يذبّ عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، ثم الجاه الى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجاه الى أن تابع ذلك ، وعلم ان فعله كله بعين مَن حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال اشهد أن الذباب ألحُّ من الخنفسا ، وازهى من الغراب ، قال واستغفر الله ، فما اكثر من اعجبته نفسه ، فاراد الله عزّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمت انى ، عند نفسي وعند الناس ، من أرزن الناس ، فقد غلبني وفضحني اضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وكان بين اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان بيناً فى أصحابه ، وكان احد من لم يطعن عليه فى نفسه ، ولا فى تعريض اصحابه المسالة »

ولا ينقص هذه الصورة البديعة الا ان تمسك الجاحظ بريشة المصور ، و يعمد الى اصباغه ولعمه ، لتصور القاضى بقده وتقاطيع وجهه ورأسه وعينيه ووجنتيه ولحيته وشَنَبَاته و يديه ورجليه وعمامته وقلنسوته أو دنيته وجبته وقفطانه وسراويله وحزامه وحذائه ، لتضيف الى صورته صورة أخرى صوّر قاضى البصرة صورة لا تصل إليها المصور المبدع ، صور لنا معنوياته ساعة سطا عليه

القناب ، وصور ما ندر منه ، وما انطوى عليه من وقار فى جميع حالاته ، ثم اتى على حسن سيرته وقلة فضوله ، فى حد كان الهزل فى معانيه و اشاراته ، لا فى ألفاظه ووصفها

تقر بما جاء فى الجاحظ واستحلياه تناول كل موضوع من عامة اطرافه ، لا تبقى حاجة فى نفس سامع وتالٍ ، شهدناه مهما بعثت منقب من جهابذة النقد تستحيل عليه ان تقول انه قال كذا ، وكان الاولى ان يقول كذا ، وهذا من بعد مرماه فى الصنعة

علمه وبحثه

تقدم ان الجاحظ لم يقف معارفه عند حد المعقول ، وانه تعداها الى الاخذ من كل معقول ، وأن العلوم التى اتجهت إليها همته ، احدقته فاخرجت منه عالماً فوق العلماء ، ولم يكن صَحَفيا ياخذ من الكتب ما اتفق ، بل كان نظاراً محققاً يدرس الاشياء ، و يقلبها بحثاً وتفتيشاً كان مهاجه فى العلم مطولا واسعاً ، وهو فى كل ما خاض غماره احصائى وأعظم من كل احصائى تناول كل ما يقع عليه الحس ، ويسطره العين ، وتتشوف اليه النفس ولابس نظره فى كل ما عانى النظر المجرد ، بل نظر « الفلسفة والغرائب الى صححها التجربة ، وابرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان » لا تراه وهو يفكر و يحمد التفكير ، و يبحث فيكشف عن الحقائق ، الا داعياً الى استعمال العقل ، ويحبذ التفكير ، لان « مع عدم الفكرة تكون عدم الحكمة » وفى التفكير « مشحذة للأذهان ، ومنبهة لذوى العقل ، وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح فى الصدور ، وعزاء فى النفوس ، وحلاوة تباشرها الروح ، وغرة تعدو العقل »

قال « إن كثرة السماع للأخبار العجيبة ، والمعاني الغريبة ، مشحذة للأذهان ، ومادة للقلوب ، وسبب للتفكير ، وعلة للتنقير عن الامور ، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملا ، كما ان أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الاعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الاصم »

قال « والذي صير الانسان الى استحقاق قول الله عز وجل (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً) ليس هو الصورة ، وانه خلق من نطفة ، وان أباه خُلق من تراب ، وانه يمشي على رجليه ، ويتناول حوائجه بيديه ، لان هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين ، والاطفال والمنقوصين والفرق الذي هو الفرق ، انما هو الاستطاعة ، والتمكين وجود الاستطاعة ، وجودة العقل والمعرفة ، افتظن ان الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ، ثم لا يطالبهم الا كما يطالب بعض من اعدمه ذلك واعراه منه ؟ فلم اعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر ؟ ولِمَ اعطاه المعرفة الا ايثار الحق على هواه ؟ ولم أعطاه الاستطاعة الا لالزام الحجة ؟ »

ويحذر المرء من الاغترار بما ألف وبما يعرض لفائدة بادي الرأي ويرى « ان الناس محتاجون الى طبيعة ، ثم الى معرفة ، ثم الى انصاف ، وأول ما يبدي به صاحب الانصاف امره ، أن لا يعطي نفسه فوق حقها ، وان لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين ، فان بحاله لا تتم الا بالتحفظ منهما ، احدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق الى القلب » ويقول « فلا تذهب الى ما تريك العين ، واذهب الى ما تريك العقل ، وللا ور

حكمان حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة »
« ولعمرى إن العيون لتخطىء ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماماً على الاعضاء ، وعياراً على الحواس »

دعا الى التفكر ودعا إلى الملاحظة ، قائلا « لا تشفنى الا الملاحظة » ودعا إلى الشك ، ومن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة كما قال الغزالى انما هو يقول « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ثم اعلم ان الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على ان اليقين طبقات فى القوة والضعف » ولذا قال بديع الزمان « الشاك اقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل احد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك »

ومع اعتداده بما يكسبه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز الى اكثر مما كتب له ادراكه ، قال « ولو وقفت على حجاج بعوضة وفيه مفكر ، وتأملته تأمل مفكر ، بعد ان يكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصاً على المعانى ، لا يعتريك من الخواطر الا على حسب صحة عقلك » وقال « والإنسان وان أُضيف الى الكمال ، وعرف بالبلاغة ، وقاس العلماء ، فانه لا يكمل ان يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل كتاب واعٍ ، وكل نقاب فى البلاد ودراسة للكتب ، وما أسلك ان عند الوزراء فى ذلك ما ليس عند الزعمة من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ،

وعند الأنساء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الانساء ، وما عند الله عز وجل اكبر ، والخلق فى بلوغه اعجز » قال لو كان الأمر « على ما تشهيه الغرير[1] ، والجاهل بعواقب الامور ، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الاسماء حظوظها وحقوقها »

أهاب بالنفوس ان لا تغتر بما الفت وسمعت ، وان لا تهوى الغرائب الا بامتحانها والنظر فيها ، وحبب التكشيف والتفتيش ، ودعا إلى العقل فى النطاق الذى ينافى الخوض فيه قائلاً « وباب من هذا الشكل فكم أعظم حاجة الى ان تعرفوه ، وتقفوا عنده ، وهو ما تصنع الخبر الساق الى السمع ، ولاسيما اذا صادف من السامع قلة تجربة ، فان قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ ، دخل ذلك الخبر السابق الى مستقره دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً وطيئاً ، وطبيعة قابلة ، ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى ازالته » وقال « ان الناس قد استعفوا عن التدبر ، وكفوا مؤونة البحث والتنقير ، لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه قل فضله ، ومن قل فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير اتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العز ، ولا سرور الظفر ، ولا روح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الامن »

كان اذا راى أن « ليس الى رد الخبر سبيل لتواتره وترادفه ، ولان العيان قد حققه ، والتجربة قد صححت الثقة » زاد اعتقاداً فيما كان لا يعتقد ولا يعتقده كثير غيره وريد الناس ابداً ان يحرروا بانفسهم فقد ذكر عند

[1] الغرير المخدوع او الشاب لاتجربة له

كلامه على اقوال العلماء أن عرق الخال انزع من عرق العم ، وان نصف الأمهات في الأولاد اكثر ، وأنها على الشبه أغلب — ان أكثر ما تلد الأمهات الاناث ، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال فإذا أردت ان تعرف حق ذلك من باطله فاحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر انها اكثر رجالهم او نساؤهم

ونبّه أرباب العقول الى من تعبث بها ، فقال « وقد ابتلينا بضرب من الناس ، ودعواهما كثيره ، احدهما أن يبلغ بن حبه للغريب ان يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وسعفه بالطُّرف ، لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث في السمين ، والممكن في الممتنع ، ويعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر هو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم ، الا بن خاف التقذر[1] من الكذب » وقال في التحذير من صنف من هذه الاصناف المضره « وهؤلاء وما اشبههم يفسدون العلم ، ويتهمون الكتب ، ويضرهم كثره اتباعهم ، ممن تجده مُستهتراً بسماع الغريب ، ومغرماً بالطرائف والبدائع ، ولو اعطوا بدلاً من هذا الاستهتار نصيباً من التثبت ، وحظاً من التوقى ، لسلمت الكتب من كثير من الفساد »

ويحذرك جهده من تحريف المحرفين من العوام ، والمطلاين ممن كان يسميهم من الخواص ، لان في الخواص دخلاء ايضاً ، وان كانوا موامين ومشهورين ، قال انهم « لا يدرسون بالحقيقة ، ولا يحمدون الا ظاهر الحلية ، ومن الدليل على بلادة طبعهم ، والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم

(١) التقذر الاجتناب من قذر الشيء كرهه واجتنبه

بالعلم لمن لا يعرفونه » وهو يرى بعض الخواص أضرّ على سير العقل من العوام ، ولطالما حرب بلاهة الخواص فى قلبه ، وهو لا يبرح يهزأ بهم ، ويبين ما فى المصنوف من رواياتهم ويعلم « أن الناس موكلون بحكاية كل غريب ، ومليسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن احكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيء يكون حكايتهم له واستماعهم اليه » ، « وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة[1] جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس الآن الا لا أو نعم الا ان قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزل الحق جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن »

ويقال التحريف فى الناس ، وفشو الجهل فيهم بقوله « الناس لم يؤتوا فى اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس ناس وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء ، ويعملون على الهوى ، وعلى ما يسبق الى القلوب ، ويستثقلون التحصيل ، ويهملون النظر ، حتى يصيروا فى حال متى عاودوه وأرادوه ، نظروا بابصار كليلة ، وأذهان مدخولة[2] ، مع سوء عادة ، والنفس لا تحس اذا كانت مستكرهة ، وكان يقال الطبع اذا كره عمى ، ومن عمى الطبع حسا[3] وغلط وأهمل ، حتى يأتيه الجهل ، ولم يكن بعهم ما عليه وله »

فهو من هذا النظر ربما يتمنى تحارل بعلمه عن تقليد من يرى تقليدهم ، ويريده ابداً على أن ينظر بعقله ، ويستثبت الاخبار ، ولا يسمع لنقله

(١) الحكومة القضاء

(٢) المدخول المهزول ومن فى عقله دخل ، ونخلة مدخولة عفنة

(٣) حسا كدعا حسوا صلب وحسا هادا

العرائب منها ، وان نستند أبداً على التجربه والملاحظه ، وأن نرى الأمور مع عللها و برهاناتها ، برنده على أن نلاحظ و نتدبر و نحس ، و نكون فى حسه صادقاً حازماً ، لا نهمل شيئاً فى عالم الكون والفساد ، نهتم للدرة كما نهتم للذره و نقول « أوصيك أيها القارى المتفهم ، وأيها المستمع المنصت المنصفح ، أن لا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه ، ثم اعلم أن الجبل ليس بادل على الله من الحصاه ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بادل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله »

فكان الفيلسوف ديكارت فى القرن السابع عشر — وكان يقول بعدم التسليم بشىء الا بعد تمحيصه بنور العقل وتحقق وجوده ، و يرفض كل ما قام على الظن والتخمين ، وما العقه العاده واتى من العرف — كأنه قرا الجاحظ وعرف فلسفته فى هذا الشان ، وتعميمها فى هذا المعنى متشابهه ، كان الواحدة منقوله للأخرى ، أو الأخرى أخذت عن الاولى

وكأن الجاحظ وهو يدعوك الى الاستنباط لا الى الحفظ والاستظهار يقول رأى احدث علماء التربيه من اهل الحضاره اليوم ، وعبارته « وكره الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه ، و اغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا الحفظ عدو الذهن لان مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه الى برد اليقين ، وعز الثقه ، والقضيه الصحيحه ، والحكم المحمود ، انه متى أدام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط ، ومتى ادام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ »

الجاحظ يردم المنافذ التى تتسرب منها الجهالات ، و يحمى عقول الناس ، و يمنع منهم سلعاً فاسده وقد بلغ من حريته فى البحث ، وعبقريته على

العلم ، و بعد نظره فى المسائل ، ان ردّ على سيحه النطام وقال إن عسه الذى لا يفارقه سوء طنه ، وحودة قياسه على العارض ، والخاطر السابق الذى لا يو ق بمثله ، وأنه كان يطن الطن ثم يقيس عليه ، و ينسى أن بدء امره كان طناً ، فاذا ايقن ذلك وأيقن حزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه وقال مرة فى سحه الآخر ابى عبيده « ولولا ان اكون عياباً ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من ابى عبيـده ومن هو ابعد فى وهمك من ابى عبيدة » و يلوم من يقبلون الاخبار بدون نقد ، وممن لامهم على ذلك ، ابو زيد الانصارى ، وبعه من جهه وانكر عليه من اخرى تساهله فى التعليق على الروايات المدخوله فهو يرى العلم وصحه النظر فوق كل اعتبار ، ولا كبير عنده امام النقد ، وفى ميدان الجدال و احقاق الحق ، قال فى رجل نظر بعض النظر بصوبت العلمـاء لبعض الشكال حتى زعم ان الا رز كلها يعرف حقها و باطلها بالاعلب إنه « مات ولم يخلف عقباً ، ولا واحداً يدين بدينه ، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن اسات ، ولـكنى على حال اكره التنويه بذكر من يحرم بحرمه الـكلام ، وشارك المتكلمين فى اسماء الصناعه ، ولا سيما ان كان ممن ينتحل بقديم الاستطاعه »

وقال مرة « ورأينا اقواماً يدعون فى كـتبهم الغرائب الكثيرة والامور البديعه ، و يخاطرون من اجل ذلك بمروءتهم ، و يعرضون بافدارهم ، و يسلطون السفهاء على اعراضهم ، و يجرون سوء الظن الى اخبارهم ، ويحكمون حساد النعم فى كتبهم ، و يمكنون لهم من مقالتهم ، و بعضهم يبطر على حسن الظن بهم او على التسلم لهم والتقليد لدعواهم ، وأحسنهم حالاً من يحب ان يتفضل عليه ببسط العذر له ، و بكفايه الاحتجاج عنه ، ولا يبالى أن يمنّ بذلك على عقبه ،

أو من دان بدينه ، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه »

وناقش غير مرة ارسطو فى كتاب الحيوان ورد عليه فى بعض استقراءاته وقال فيه « وزعم صاحب المنطق فى كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثوراً سَفِد وألقح من ساعته بعد أن خُصى » قال « فإذا افرط المادح فى المدح ، وخرج من المقدار ، وافرط المتعجب فى التعجب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه الى أن يشبه بالعيان ، أو بالخبر الذى لم يكذب مثله ، و الا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا بدل خركبهم خبراً وحكاية ، وتبرأوا عن عهدة ما ضمنّهم ذلك ، ولكان اصون لاقدارهم وأتم لمروآت كتبهم » ورد عليه دعواه فى ان اناث العصافير اطول اعماراً ، وان ذكورها لا تعاش الا سنة ورد عليه زعمه أن فى بلدة طيسفون[1] حية صغيرة شديدة اللدغ ، الا ان تعالج بحجر يخرج من قبور قدماء الملوك ، فقال لم افهم هذا ولم كان ؟ ورد عليه زعمه أن الطائر الكبير الذى يسمى باليونانية اغسولنس يجلب الدارصينى[2] من موضعه فيعشش به غيضه فقال « لست ادفع خبر صاحب المنطق عن خبر الدارصينى ، و ان كنت لا اعرف الوجه فى ان طائراً ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس او بالبر ويقصد نحو بلاد الدارصينى وهو لم يجاور موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الاوابد ، و ان كان من القواطع[3] ، فكيف يقطع

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التى فيها الايوان على ثلاثة فراسخ من بغداد وطيسفون ايضا قرية بفرو أما طمون أو طيفون فلم نجد لها ذكرا

(٢) الدارصينى شجر هندى تكون شجوم الصفى كالرمان تعرب دارجينى أى شجر الصين

(٣) قال ابو زيد الأنصارى إذا كان الشتاء فقطعت إلينا الطير والعربان (أى جاءت) من بلادها فهى قواطع وإذا كان الصيف رجعت فيه فهى رواجع ، والطير التى تقيم بارضنا صيفا وشتاء اوابد

الصحصحان[1] الاملس و بطون الأوديه وهصاب[2] الجبال ، بالبدو بم فى الحواء والمضىّ على السمت ، لطلب ما لم يره ولم يسمه ولم يذقه ، وأحرى فانه لا يخلف منه بثماره ورحليه ما يصير فراساً له ومهاداً الا بالاختلاف الطويل ، وليس بالوطيء الوثير ، ولا هو له بطعام فانا و إن كنت لا أعرف العله ، فلست انكر الامور من هذه الجهه فانكر هذا » والجاحظ ينظر إلى الحيوان فى توالده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربيته صغاره ورفقها و اطعامها من لبن أو لعاب او نبات او غير ذلك ، و يعرف تأثره بالحر والبرد و بالشمس والظل ، وحَذَره من الآدميين الى غير ذلك ، فكيف يجوز له عقله ان يقطع ذاك الطير ألوفاً من الاميال لشئ غشه عاده ليست له طعاماً ولا هي مما يسلمه ، ما دام عقله رائده الذى لا يكذب ، وحليله يجيه بنظره

وقال فى راى ارسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الاسنان لطول مكثه فى بطنها « وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكر ، لأن جماعه نساء معروفات الآبا والاسماء قد ولدن اولادهن ، ولهم اسنان نابته كالذى رووا فى سنان مالك بن انس ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصره ان خاقان بن عبد الله الاهتم استوى فى بطن امه ثلاثه عشر شهراً ، وقد مُدح بذلك وهجى ، وليس ذلك بالمستنكر ، و ان كنت لم ار قط فاله بهرّ شى من هذا الباب ، وكذلك الاطناء ، وقد رووه كما علمت ، ولا اقر ان الولد يخرج راسه من بطن امه حتى يأكل سبعه ثم يدخل راسه ، وليست اراه محالاً ولا ممتنعاً فى القدره ولا فى الطبيعه ، واری ... ار ... ه ... ناً

---

(١) الصحصح والصحصاح والصحصحان ما استوى من الارض

(٢) الهضبه الجبل المنبسط على الارض او جبل خلق من صخر و جمع هضب وهضاب واهاضب

غير مستحيل ، إلا أن قلبي ليس يقبله ولبس في كونه ظلم ولا عبث ولا خطأ ، ولا يقصر في شيء من الصفات المحموده ، ولم يجد القرآن ينكره والاجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست اثب بانكاره ، وان كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر ، والخبر المتظاهر » أي انه في هذه المسالة سأل القابلات والاطباء فما صححوا له هذا الخبر ، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه ، والطبيعة لا تنكره ، والشريعة لا ترده ، وإن كان من الامور التي لا تعرف بالقياس بل بالعيان

مثال آخر من نقده العلمي هزأ بعض المفسرين في دعواهم أن السنور خُلق من عطسة الاسد ، وان الخنزير خُلق من عطسة الفيل عند ما زعموا « ان أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا ، سال ربه الفرج ، فامره ان يأمر الاسد فعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وانثى ، خرج الذكر من المنخر الايمن ، والانثى من المنخر الايسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم [1] شكوا ذلك الى نوح ، فشكى الى الله تبارك وتعالى ، فامره أن يأمر الفيل فسلح فسلح خنازير ، فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو » قال « وهذا الحديث بأفق عند العوام ، وعند بعض القصاص »

مثال غيره وقد قال الناس في قوله تعالى (انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا ما عنى الا الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدتهم ، فقال

(١) النجو ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ، والسلاح كغراب النجو ، وسلح كمنع وأسلح

اهل الطعن والخلاف كيف يجوز ان يصرف البال لشيء لم يره فيتوهمه ؟ ولا وصف لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع بها ، وعلى انه لو كان شيء ابلغ فى الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، او صوره لهم واصف ، صادق اللسان ، بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق « وكل قول يكذبه العيان ، فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وادل على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة »

وبعد فانك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه فى كتاب الحيوان ، يزيف الخرافات والترهات ، فى عصره وقبل عصره ، ويورد عليك بدايته ونهايته ، فيقع فى نفسك انه لو جاء كثير له فى عقلا العلماء لخاب كثير من الاقدمين من الاسرائيليات والسخافات ، فما يحمله من دخلوا فى الإسلام حقا او رياء ، وأنه لا يضر الدين اذا حمل على هامشه ، فوسعوا عما وصفوا دائرة الخيالات ، ويخرجوا دينا ساذجاً ، وما كان ما أدخلوه فيه من اصله ولا من سنه

ثم تأمل قوله « رووا عن وائلة ابناء بن عاوية ، انه زعم ان من الدلائل على ان السفط كان على ، ان الناس لم يجدوا فى طول ما كانوا اسماط فى جوفها نقصاً قط فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بسنده العدل ، المعروف بعون الفراسة ، ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم الصدق عا ... ، وما احلى الخبر أن يكون صحيحاً » ، ومثله قوله فى رد قول ال... فى الكركدن وصغرهم الفيل به فى السند رأموه ... وزعم انه ... طاح ... ورفعه بقرنه الواحد الذى فى وسط جبهته ... بركته لا يحس حتى يقطع

على الايام ، وهذا القول بالخرافة اشبه ، وأعجب من القول فى ولد الكركدن ، ما خبرنا به ناس من اهل النظر والادب وقراءة الكتب ، وذلك انهم يزعمون أن البقرة لا تضع ولدها ابداً الا وهو مطوق بافعى ، وانها تعاش وتنهش ، الا أنها لا تعمل » ، قال « ولو كنت احسن فى كتبى على تكذيب العلماء ، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر »

ومما قال « وفى السمندل آية عريبة ، وصنعة عجيبة ، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب ، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا يحترق له ريشة » وقال فى مكان آخر « خبرت عن فارة البيش[1] واغتذائها السموم ، وعن الطائر الذى يدعى السمندل وطيرانه فى جاحم الاتون ، فلا السم المجهز يضر تلك الفارة ، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر زغبة » وقال هذا الطائر فى طباعه وفى طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين ، واظن هذا الطلاء من طَفَل وحِطمى ومَغرَة وقد كنت رأيت عوداً يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق ، وكان عندنا نصرانى فى عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس هذا العود من الخشبة التى كان المسيح صُلب عليها ، والنار لا تعمل فيه ، فكان يكتسب بذلك ، حتى فطن له وعورض بهذا العود وزعم ثمامة أن الانسان ان اخذ من هذا الطحلب الذى يكون على وجه الماء فى منافع المياه فجففه فى الظل واحرقه فانه لا يحترق

ومما قال « ربما لا اكتبه لك من الاخبار العجيبة التى لا يجسر عليها الا كل وَقَاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب لقرائها

(١) البيش بالكسر نبات كالزنجبيل رطبا ويابسا ، وربما نبت فيه سم قاتل لكل حيوان وبنابه فار البيش ، وهى فار تغتذى به والسمانى تتغذى به ايضا ولا تموت ، ودوا المسك ماومه (القاموس)

الناس ، ويدارس أهل البصرة ومحيطها ، زعموا أن الصنع يكون عاماً ذكراً وعامة انثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا استجيز تسميته »

من جملة علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس ، الف فى المعادن والاصباغ كما الف فى التجارة ، ونقل عن حنين بن اسحق وبختيشوع وسلمويه وغيرهم من علماء عصره وكان يعرف البعض فى كتب الأطباء والعلوم حتى قال « وما كان أحوجنا واحوج جميع المرضى ان يكون جميع الاطباء متكلمين ، والى ان يكون المتكلمون علماء . فان الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد فى الاصول التى يدورون عليها من الخلل ما نجد » وكان يوفر على تربيته بعض الاشجار والنبات ويوفره على تربية بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات ، ليصدر اذا كتب عن خبرة وقد الف فى الاشجار كتاباً قالوا انه بامتاعه ككتاب الحيوان وكان يعارض « اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الاول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد ان يفلح » ، وقال « وكلام كثير قد جرى على السنة الناس ، وله مضرة شديدة ، وثمرة مرة ، فمن اضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئاً ، قال فلو ان علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى اسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا »

من أجل هذا توسع الجاحظ فى بحثه ، وكان على علمه الغاص يسال جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد ان يفهمه ، فيصف الماديات والمحسوسات ، ويسترشد حتى بآراء الحراس ، ويتحدث حتى الى الحُواة والحرازين وارباب الصناعات ، ويسال الحشوة وارباب البطالة ، وقد ياخذ بآراء البحريين اذا رووا له غرائب قبلها عقله ، أو يردها ولا يمرها اذا كانت حديث خرافة ويحدث

الى كل من عنده « طرائف من الكلام ، وعجائب من الأقسام » وقد روى أسماء كثيرة عن الاعراب فى البادية وعن العامة فى المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها

قال فى رسالة « الحنين الى الاوطان » رأيت عبداً أسود حبشياً لبنى اسد قدم من شق اليمامة فصار ناطوراً ، وكان وحشياً محزوناً اطول الغربة مع الابل ، وكان لا يلقى الا ا كرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع افهامهم ، فلما رآنى سكن إليَّ وسمعته يقول لعن الله ارضاً ليس بها عرب ، قاتل الله الشاعر حيث يقول

حر الثرى مستعرب التراب

اما عثمان ان هذا العرب فى جميع الناس كمقدار القرحة فى جلد الفرس ، فلولا ان الله رق عليهم فجعلهم فى حساه لطمست هذه العجم آثارهم اه فالجاحظ لم يحتقر هـذا الحديث الذى ندر عن لسان عبد مستوحش واورده مثالاً على موضوعه فى الوحشة التى تعترى النازح عن وطنه ونحن بهذا الحديث القصير أيضاً ادركنا ان العراق لم تكن تعرّبت كله فى طرق المائة الثانية والثالثة ، وان ا كرته وفلاحيه ظلوا على سريانيتهم ، وان العرب كانوا الى قلة على كل حال

ولم ير ابا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الابحاث مسّ الموضوعات التاريخية بالمعنى الذى بدا المورخون فى عصره يخوضون فيه ، على طريقة الرواية وتصحيح السند ورعما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك فى عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم ، ولا حديث اعدائهم وفتح بلادهم ومساعيهم ومطامعهم ومؤامراتهم ودسائسهم ، ولا طبقات الرجال فى موالدهم ووفياتهم ، وما صرفوا فيه عقولهم واعمارهم وخلفوه من مآثرهم بل كان التاريخ الذى شغل

ولمه وقلمه وصفَ الناس وذكر اخبار من عاصرهم مما فيه تعليم وتثقيف فهو المؤرخ الاجتماعي في عصره ، يورد لك من مشاهداته ومرويَّاته ما يوسع أفق نظرك ، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات في عامة من تألَّف منهم مجتمعه

راى التاريخ السياسي وتاريخ الرجال صنو المضطرَب ، وقد تسربت اليه أخطاء لا تمرها ، فارح للأمه ، والكلام فيها واسع المجال ، وكما كان في التاريخ هو في الفلسفه قرا ما كُتب وتُرجم في عصره ، فما نقل آرا أرسطو مستحسناً لها كلها ، ولا سعف بافلاطون ولا بغيره من فلاسفه اليونان ، بل ط في العلوم الماديه وعلوم الحياه والاحيا وعلم الاجتماع على النظر الفلسفي واهمه ن الفلسفه روحها ، وابتعد عما قد كثر فيها من خيال ومحال ، وبعباره ثانيه انه كان من اصحاب النظر العملي ، وما تعدى في الالهيات حيز المنطق الصحيح ، والمصادر السا مه التي تدعمها الحجه ولا ينكرها الا مكابر

يقول لك حسناً ان « غرائب الدنيا كثيره عند كل من كان كَلِفاً بتعرافها وكان له في العلم اصل ، وكان بينه وبين التدبير نصيب ، واكثر الناس لا يحدثهم الا في حالين اعراض عن التبيين ، واهمال النفس ، واما في حاله تكذيب وانكار ، تسرع الى اصحاب الاخبار ، وتتبع الغرائب ، والرغبه في الفرائد ثم يرى بعضهم ان له بذلك التكذيب فوائد ، ران ذلك من باب ا وفي رحس من استعظام الكذب ، وانه لم يكن كذلك الا من جاز الرسمه في الصدق ، او من السي معانده للاقرار وقهراً بالحق »

ومن استقرائه العلمي في الذئاب قوله « وعندنا بالبصره في الذئاب أعجوبه ، لو كانت بالشامات⁽¹⁾ او بمصر لادخلوها في باب الطلسم وذاك ان الذر يكون

(١) الشامات بلاد الشام

مصبوباً فى بادر التمر فى سق السباس ، فلا ترى على شىء منها ذبابه ، لا فى الليل ولا فى النهار ، ولا فى البرد ولا فى أنصاف النهار ثم وقد تكون الا معاصر ، ولاصحاب المعاصر ظلال ، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل ، وانما تلك المعاصر بين تمره رطبه ودبس ، ثم لا تكاد ترى فى تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار ، وفى وقت طلب الذبان السكنَ ، إلا دون ما تراه فى المنزل الموصوف بقلة الذبان وهـذا شىء يكون موجوداً فى جميع السوق الذى فيه السباس فان تحول شىء من تلك البادية الى جميع ما يقابلها فى نواحى البصرة عشيه من الذبان ما عسى ان لا يكون بارض الهند اكثر منه ولیس بين جزيرة دُبدس و بين موضع الذبان الا قيص البصرة ، ولا بين ما يكون من ذلك نهر أذرب ربين موضع الذبان مما يقابله إلا فرسخان ، وهو ذلك النمر وتلك المعصرة ، ولا يكون تلك المسافه الا مائه ذراع او اريد شيئاً او أنقص شيئاً

وأعجوبه أخرى ، وهى عندى اعجب من كل شىء صدَّرنا به جمله القول فى الذباب فمن العجب ان يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والخطاطيف ، فانهما اذا كان الليل فان احدهما يدلى من غصن الشجرة و يضم عليه رجليه و ينكس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق الفجر ، والآخر لا يزال يدعل فى زوايا بيته ، ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك، وقد قيل ان ذلك مما على ظهر الاسحار ما يسميه بالليف ، فيفسه ثم يقيل منه حبلا ، ثم يعمل منه كهيئه الحلقه ثم يدخله مدلّى بذلك الحبل ، ويعقده بطرف غصن من تلك الاغصان ، الا أن ذلك يصنع برسخ و يداخله بجمبه ، ثم يدخل نفسه فيه ، ياوى اليه مخافه على نفسه »

* * *

كان الجاحظ كان كالطائر ينتقل من شجرة الى شجرة ، ومن حديقة إلى حديقة ، يلتقط الزهرة والحبة ، ومن كان يظن أن الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين ، وهو في أصله امام ديني وصاحب مذهب وعَلَم من أعلام الشريعة — من كان يظن انه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي السحر والنحل ، وفي كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والادبية — من كان يظن أن للجاحظ كتاباً في الامصار وعجائب البلدان أشبه بكتاب البلدان لابن الفقيه ، رآه المسعودي ووصفه بانه في نهاية الحسن ، قال « وان كان الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الاسفار ولا تقرّى[1] الممالك والامصار » ثم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودي ، واقتصر على الرحلة في أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم و بلاد العرب فقط ، وليس من الميسور لكل انسان في دهره ان يطوف الارض ، فان هذا ما كان يتيسر الا للفرد بعد الفرد ، وفي العصر بعد العصر

ووصف الجاحظ الامصار وهواءها وتأثيرها في الطباع والاجسام ، ووصف تأثير الهواء في الانسان والحيوان في حرة بني سُلَيم ، فقال بتأثير البيئة في الكائنات الحية فان كان وصفه الامصار في جغرافيته كوصفه اهل الامصار ، وتأثير ما يحيط بهم ، فانه من احسن ما كتب في الجغرافية الانسانية والطبيعية والوصفية قال في الامصار « انها فاقت كل من نزلها [illegible] لى كثير من طباعهم ونسائهم ، بل لابد للهاشمي قبيح الوجه كان او حسناً ، او دميماً كان او بارعاً رائعاً ، من ان يكون لوجهه وسماته طابع بين بهما [illegible]

(١) [illegible]

وجميع العرب فلقد كانت البلدة بمثل ذلك فسدته ولقد نجيبه وبدخل الصبى عليه ، ويستبين آثرها فيه ، فما ظنك بمضعها فى سائر الاجناس ، ولفساد عقولهم ، ولوم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يكون من النبين الشباب ما يجمعه اوساط اهل الامصار ، على الثروة واليسار ، والمال مثبته كما تعلمون ؛ وقد تكسب الرجل بن عبرهم المول ل النسير فلا يرضى لولده حتى يعرض له المؤدب ، ولا يرضى للسانه بمثل الذى كان يرضاه ولِ ذلك وليس فى الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب سرمد ، ولا مذهب محمود لهم فى شىء منه نصيب وان حَسُن ولم ار بها وجهه حمرا اصفى ولا صفيه ، ولا دماً طاهراً ولا فرساً من ذلك ، وهى قاله للعربا ، على ان حُمَّاها خاصة ليست للعرب باسرع منها الى الغريب ، ووباءها وحماها فى وقت انكساف الوباء وروع الحمى عن جميع البلدان ، وكل محموم فى الارض فان حماه لا تبرح عنه ولا تفارقه ، وفى بدنه منها بقية فاذا برئت عنه فقد احد منها عند نفسه البراءة الى ان يعود الى الخلط ، وان يجمع فى جوفه الفساد ، وليست كذلك الاهواز لانها تعاود من برئت عنه من غير حدث ، كما تعاود اصحاب الحدث لانهم ليسوا يؤتون من قبل التهم ، ومن قبل الخلط والاكثار ، وانما يؤتون من عين البلدة » وقال ايضاً رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحته كغضة الاهواز

وقال فى حَرَّة بنى سُلَيم فى عامة نجد « انهم ليجدون الماءلك للرعى بالسوق بالمنة بالخدمة من الروم والصقالبة ع ساعهم ، فما والدون ثلاثة أبطن حتى تعلهم الحَرَّة الى الوان بنى سُلَيم ولقد بلغ من امر هذه الحَرَّة ان ظباءها ونعامها وذبابها وثعالبها وحميرها وخيلها وابلها كلها سود ، قال والسواد والنماص هما من قبل خلقه البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل

ورب الشمس و بعدها ، وسدة حرها ولسها ، ولس دلك من فبل مسح ولا عمو به ، ولا بسو به ولا بمسح ، على ان حَرّه بي سُلَم يجرى مجرى بلاد البرك ، فانك ادا رأس البرك ، ورابت إبلهم ودوابهم ، وكل سىء لهم حسد به سنا واحداً ، وكل سىء لهم برکی المطر »

و بهدا را ىاه بعول سطور الاحيا بحسب البيه وبعاقب الايام ، و يعلل دلك بعليلاً معمولاً كما يعلل أسبا اخر مثل عدو به المطر والبلح ، و لوحه مياه البحر وكل ما رصعه من انواع الحـ ران وصـعه وصعاً دقيقاً ، كانه رآه المره بعد المره واحرى يجاربه علىه ودوى فيه ، وبطر ما قاله فيه من قبله ، فما وافق الحس والعقل من اقوالهم قبله ، وما لم يوافق عليه ردّه مع ايراد الاسباب الداعيه له الى رده

رماقال ىاا صره بلاد اعح باب لسب فى عبرهامن البلدان ، منها ان عدد المد والجزر فى جميع الدهر ى راحد ، فيقبل ع د حاجبهم اا ه ، و يزيد عند استعمالهم عنه ثم لا يبطى عنهـا الا بقدر هضمها واستمرائها وحَمّا بها واستراحتها ، لا يغفلها عطشاً رلا عرقاً ، ولا يُعمها طما ولا عطشاً ، يجىء على حساب معلوم ، رتدبير منتظم ، وحدود ثابتـه ، وعادة قديمه ، يزيدها القمر فى امتلائه ، كما يزيدها فى نقصانه ، ولا يخفى على اهل الغلات متى يحتلفون ، و ى بدهون ر رجعون ، بعد ان يعرفوا موضع القمر ، وكم مضى من الشهر ، فهى آيه اعجو به ، رمعجز ر أحدر به ، لا يجاوز المحل ، رلا يحسر ن الخط ه[1] »

وقال ايضاً « من شان الملوك ان يطمسوا على آثار ن قبلهم ، ان وا ذكر اعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهليه ، على ذلك هم فى ايام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعه

(١) خطبه ر ىيم و حاطوم سنه السديد

غُمْدان ، وكما هدم الآطام التى كانت بالمدينه ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم اصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبنى مروان »

يكلمك الجاحظ تاره فى رغبات الناس فى العلوم ، ويذكرك بانه لم يظهر له العله فيها ، الا انه يعجب من الوسط فى صناعته ، ومن كان يطربه عمر ثوابه ، فيقول « صار طلب الحساب احبَّ على بعضهم ، وطلب الطب أحبَّ الى بعضهم ، وكذلك النزاع الى الهندسه ، وسمع اهل النجوم بالنجوم ، وتجد واحداً يلهج بطلب الغنا واللحن ، وآخر يلهج بسهوه الفعال ، حتى يكتب مع الحمد ، وآخر يختار وراقاً ، وآخر يختار طلب الملك ، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنه المحركه لهم ، ثم لا يدرى كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر ، الا بجمله من القول ، ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض ، لم لما اختار ذلك فى جمله ولا بتفصيل ، اذ كان لم يجرِ منه على عِرق[1] ، ولا اختاره على ارث وليس العجب من رجل فى طاعته سبب يصل بينه وبين بعض الامور ، ويحركه فى بعض الجهات ، ولكن العجب ممن يموت عشقاً ، وهو لا طامع له فى معرفه الوزن ، وليس له حرم حسن ، ويمكن ان فاته ان يكون لحناً وفى حصه ، ان يكون مطرباً وهى عامه »

واحتج للاماء « قال بعض من احتج للعله التى بن احلها صارا كثر الاماء أحظى عند الرجال من اكثر المَهيرات[2] ، ان الرجل قبل ان يملك الامَةَ قد تأمل كل شىء منها وعرفه ، ما خلا حظوه الخلوه ، فاقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقه ، والحره انما يستشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء ابصر ، وانما

---

(١) يعنى اصل كل شئ (٢) المهيرة الحرة الغالية المهر

تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، واما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فانها لا تعرف ذلك ، وقد تحسن المرأة تقول كأن انفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكان عنقها ابريق فضة ، وكان ساقها جمارة ، وكأن شعرها العناقيد ، وكان اطرافها المداري ، وما اشبه ذلك ، وهناك اسباب أخر بها تكون الحب والعشق »

وقال في رسالة في النساء « ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الامر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من ان تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة[1] ، وانما يريدون بقولهم مجدولة[2] جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وان تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانة وسيفانة[3] ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والتي في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على ان النحافة في المجدولة اعم ، وهي بهذا تجب على السيان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما تجب هذه الاصناف على المجدولات ، وصفوا المجدولة بالكلام المنثور ، فقالوا اعلاها قضيب ، واسفلها كثيب »

ونحن نذكر كلامه هذا نحو لنا ان ندعى ان الجاحظ كان يعرف كل شيء

ومما قاله « قل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه

---

(١) القضافة والقضف محركة وكعنب النحافة وهو قضيف ج قضاف

(٢) لحم رجل مجدول مطوي العصب المحكم الخلق

(٣) رجل خمصان بين واحمصان خمص الحشى دامر بطن وهي خمصانة وخمص من خمائص ومسيفة ؟

في كتب الاطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه في اشعار العرب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا »

ولذلك رأيناه يقرب الفلسفة من الاذهان ويمزجها بالادب واشعار العرب لتخرجها عن جفافها ، ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل في دائرة الحس والعقل ، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله في انكار احاديث الجن وما يرى من السحر في رؤسهم ، فقال ان للناس في هذا ضرباً من الدعاوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ، ومن اسمرا انه قوله « إنهم احصوا اصناف نخل البصرة ، دون نخل المدينة ، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ، ودون الكوفة وسوادها وجزيرتها ، والاهواز وما يليها ، ايام المعتصم ، واذا بثلاثمائة وستون ضرباً من نخل معروف ، وخارجي موصوف ، وبديع غريب ، مع طيب عجيب »

وقال في كتابه الامصار أكبر الدور غلة ثلاث دار الطيخ بسر من راى ودار الزبير بالبصرة ، ودار البطيخ ببغداد وما قاله في وصف البصرة انه لا يعرف مصرا جاهلي ولا اسلامي افضل من البصرة وانها قبة الدنيا وبسطة الارض وفرضة البحر

ومن ملاحظاته واعلم ان الله تعالى انما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب ان يوفق بينهم فيما يخالف مصالحهم ، لان الناس لو لم يكونوا مسخرين بالاسباب المختلفة ، وكانوا مخيرين في الامور المعممة والمحتاجة ، لجاز ان يختاروا باجمعهم التجارة والنسبة ، وفي هذا ذهاب المعاش وبطلان المصلحة ، ولو ان والتنوا ، ولو لم يكونوا مسخرين بالاسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة جميعاً وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم

ما هم فيه ، ويسهل ذلك عليهم ، فالحائك اذا راى تقصيراً من صاحبه ، أو سوء حذق او خرقاً قال له يا حجام ، والحجام اذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك ، ولذلك لم يجمعوا على اسلام ابنائهم في غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة ، ولولا ان الله تعالى اراد ان يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلاً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكياً وآخر غبياً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ، وبالطاعة يسعدون ، ففرق بينهم ليجمعهم ، واحب ان يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما ابلى واولى ، واحكم ما صنع واتقن ما دبر ، لان الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الاقوات ، ولبطل اصل المعاش ، فسخرهم على غير اكراه ، ورغبهم من غير دعاء ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الاسماء الا احسنها ، ومن البلاد الا اعدلها ، ومن الامصار الا اوسطها ، ولو كان كذلك لتشاجروا على طلب الواسط ، ولتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير الى غاية ، وكيف لا يكون كذلك ، وانت لو حولت ساكني الآجام الى الفيافي ، وساكني السهول الى الجبال ، وساكني الجبال الى البحار ، وساكني الوبر الى المدر ، لاذاب قلوبهم الهم ، ولاتى عليهم فرط النزاع

ومما اشتهر انه لما ولى خالد بن الوليد كسر الاصنام التي كانت فيمن بعدها ، ورمى عُزّى بالسيف حتى احرقت غابة مجده « وما امسك فى انه قد كانت

السدنة[1] حيل وكيد ، ولو تتبعت أوراق بعض ما أعد الهند من هذه الحيل في بيوت عباداتهم لعلمت ان الله تعالى قد منّ على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشأوا فيهم » ، قال « وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بانواع الحيل ، كاحتيال رهبان كنيسة الزهاء لمصابيحها ، حتى ان رب قبائلها ليسوقه لهم من غير نار في بعض ليالي اعيادهم ، ويمثل ذلك احتيال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه ان ذلك من الاوثان غضبه على ترك عبادتها وانكارها والتعرض لها حين قال يا عزى كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد اهانك » ، قال « وحلف قريش وقد اهوى خالد بسيفه الى العزى يصيح يا عزى خبليه ، يا عزى عوريه ، ولبس بشيء من تهاونهم ، وعلاها بالسيف حتى كسرها »

وقال في الرد على من زعم ان خالد بن سنان لم يكن من ولد اسماعيل نبيه « المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون ان خالداً كان أعرابياً وبرياً ، ولم يبعث الله قط نبياً من الاعراب ولا من أهل الوبر ، وانما بعثهم من اهل القرى وسكان المدر ، والله اعلم حيث يجعل رسالته »

وذكر الشياطين في بعض كتبه ومما قال « انا وان كنا لم نر شيطاناً قط ، ولا صورة لنا صادق ، ففي اجماع العرب والمسلمين وكل من لقيناه متفق على ضرب المثل بقبح الشيطان ، وهو دليل على انه في الحقيقة اقبح من كل قبيح ، والكتاب انما يدل على الذين بعث هذا في طباعهم عادة الاثبات » ، وقال « ليس من الناس من رأى شيطاناً قط على صورته ، لكن لما كان الله جعل

(١) سدن سدنا وسدانة خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة ، فهو سادن ج سدنة

فى طبائع جميع الامم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته ، واجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به فى ذلك ، رجع بالايحاش والتنفير وبالاضافة والتقريع إلى ما جعله فى طبائع الاولين والآخرين والسوح والصبيان والرجال والنساء »

وانكر انشقاق القمر كما هو راى كثير من اهل الذكر ، فقال انه لم يتواتر الخبر به ، وانه لو انشق حتى صار بعضه فى جبل ابى قبيس لوجب أن يختلف التقويمات بالزيجات لانه قد علم سيره فى كل يوم وليلة ، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير ، فاما قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر ، فان معناه سينشق

زمن ملاحظاته « لا يلتقى بلاثة اسماء باعيانها الا فى الملوك السادة ، الا ترى ان بهرام بن بهرام بن بهرام فى ملوك العجم ، والحارث بن الحارث بن الحارث فى ملوك غسان ، والحسن بن الحسن بن الحسن فى سادة الاسلام » وقال « بلاثة بنو اعمام فى زمن واحد ، سمى كل واحد منهم عليا ، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للامامة على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وعلى ابن الحسين بن على بن ابى طالب بن عبد المطلب وعلى بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، ثم ... بلاثة بنو اعمام وسمى كل واحد منهم محمداً وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للامامة محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ومحمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب بن عبد المطلب ومحمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، ... اشرف ما ... فى العالم ... فى الارمنة ، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها احد) ... هذا ... بلاثة اسماً ... من اعراب ... الى ما ... امة غيره لا ... فى خاطره

زمن ... لا لانه ... « وقد علمنا ان داعى الله ... فى ...

أصناف الجوارح ويقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة ، لأنا نجد عندهم ومواليهم ونساءهم يتنالون مثل منالهم ، ونجد السجستاني وهو عجمي ، والشامي والحراني والجزري وهم عرب ، ونجدُ باهرت وهي بلاد عجم ، كلهم في المنال والنجدة سواء ، وفي باب العزيمة والقوة والشدة متكافئين ، فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، إنما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم هو الدين بالفعال ؟ » وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا يتأتى لأحد ممن كتب في عصره في فلسفة الديانات والأديان

وقال في نار المجوس « ما زال الناس كافة ، والأمم قاطبة ، حتى جاء الله بالحق ، مولعين بتعظيم النار ، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها ويزعم أهل الكتاب أن الرب أوصاهم بها فقال لا تطفئوا النار من بيتي ؛ ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبداً ليلا ونهاراً أما المجوس فإنها أبرص بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران ، وأقامت لها السدنة ، ووقفت عليها الغلات الكثيرة ، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة ، وأحبت السكر على النعمة ، وقد ضرب المثل بنار المجوس بأنها صحيحة وأنها لم يرعوا حق صحبته بهم وخدمته إياهم فقال

عمري أمسد حربكم فوجدتكم نار المجوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها ، وبين من يرى فيها بعلماء ، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها »

وقال « إلا كلها تضرب الأمثال فيها في الشيء الذي يسمع به ولا يرى كما قال أبو نواس

وما حنين لا كمنفا مدرب صقر في بسط الملوك لها مثلُ

يحدث عنها الناس ن عير رؤيه   سوى صورة ما ان تمر ولا تحلو

وما اكبر من سكران يكون فى الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقا مغرب ، و ان كانوا يرون صوره العنقاء مصوره فى بسط الملوك وحيطان قصورهم ، واسمها عندهم مسموع » ومن غريب تحقيقه فى النمل قوله « والذر بما أحلى ا ه من الامم عن بلادهم » ومن تحقيقاته « و يزعم اهل النسرح انهم لم يجدوا فى ضروب الجر ان اسمه بالانسان تركيباً واعضا وجوارح ، ولم يروا اقرب منه خلقه وصوره وادنى النسه سبهاً رمشا كله من القرد ، وان ن يقدم حالسوس ن الاطبا لم يفصلوا قط انساناً ، ولم يسرحوا آدمياً ، و انما عرفوا تلك الا ور الغا صه والسرائر الكامنه بما فصلوا ن احسام القرود ، و ن ص ن وجد ن اد لى على بدره فى بعض معارك الملا لـ » ، وقال فى عجائب البحر « وليس ذلك باعجب من سىء عاينه جميع من ركب البحر وذلك ان الطائر من طَيره يطير فى الهواء ، فيعسب به طائر صغير ، فاذا احرجه ذلك ذرق ، فيلقاه الطائر فاسلمه ، فلا هو يخطى بذلك الذرق حلق الطائر الصغير ، ولا الطائر الك بر يحاول كن درقه ، وما يعسه من ذلك الطائر الكبير ، والدُخس من دواب البحر ومما يعايس السمك وليس بسمك ، وهو يعرف الغر ق ويدنو منه حتى يجمع الغر ق يده على ظهره فيسبح به ، والغر ن يذهب معه ، و يـسـ ن بالاعتياد عا ه والتعاس به حتى يحمه ، وهذا عند البحر ين مسور لا يدافعونه »

وقال فى علة فسو الفاحسه فى بعض الناس   ولو كانت هذه النمرة سائغه فى الاعراب لعسفوا الغلمان ، ولو يعسفوهم لنسوا بهم ، ولجا هم فيه باب ن السبب ، رلهاجوا به وتفاخروا ، واسافسرا فى الغلمان ، رلجرى فى ذلك ما لا يحى ، رلحدث فيه اسعار واخبار ، والذى يدل على سلامتهم ن ذلك

عدم هذه المعانى ، وان كان هناك شيء من هـذا فليس هو الا فى بعض ن
نزل قارعة الطريق او تعرف الاسواق ، وهؤلا ليس فيهم ن خصال الأعراب ة
الا الجوهرية ، فاما الاخلاق والفصاحة والا مة والفروسية فهم على خلاف
ذلك كله

كان يقال أربعة لم يُلحقوا ولم يسبقوا أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل
فى ادبه ، والجاحظ فى بلاغته ، وأبو تمام فى شعره ' وحمل على من يصحح بآ اب
الجاحظ واشاعة فيها ، ورأى ما حوت من آثار حفظه وتدوينه واسهرانه
واستباحة ان يعذر الناس فى كل عصر لإعجابهم بما كتب ، ولا يستنكرنّ ن
الاستنباط بأن العالم كانوا يرفون صدر كتبه كما سوقع المحدثون اا وم صدور
صحف الاخبار ، وورود الاذاعات فى الايام العصيبة ' وكان هو يعرف ا مسه
هذه الشهرة الطائرة ويعرفها له الناس قال بعضهم للجاحظ ملك فى عاملك
مقدارك من الادب ينشد قوله

منطق صائب وتلحن احيا ناً وخير الحديث ما كان لحنا

، بفسره على انه اراد اللحن فى الإعراب ، ا نما وصفها بالطرف والفطنة ،
وانما تورى فى لفظها عن اسماء قال قد فطنت لذلك بعدُ ، ولما اشار عليه
بافده ان بعير بفسيره قال كيف لى بما سارت به الركبان ؟

ومن البراهين على اتساع شهرته فى حياته ما قيل لابى هفان وقد طال
ذكر الجاحظ لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ندّ لك وأخذ بمخنقك ، فقال ا لى
يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى ارنبة انفى لما امست الا بالصين شهرة ،
ولو قلت فيه الف بيت لما طنّ منها بيت فى الف سنة

كتب ورسائل

لدس فى وسع الباحث بعس حد لعلم الحاحظ ، سهى م ه إلى معرفه ما عاب علمه ، وما اسه بآلمعه بمقله من معلمات العلم فى عصره سحب فى جميع المطالب بحثاً ممعاً ، فلا برى فى معالاتها حالاً ، ولا فى وصعها وتصنيفها عثاثه ، ولعد رأسا معلمات رماسا ىلعاب العلم الحدىث ىوارر فيها عسرات ور عا مىات ن العلما والباحسن ، حى ىسكب لها الاحاده ، وىمع من ىعوس ارباب المدارك موقع الاسحسان ، ومعلمه الحاحظ كسها ىعسه ، لم سارکه مسارك فى إعداد موادها ، ولا فى وصع أنوابها ، واسكار فصولها ، وكلها امه درسه و ٮحه ، ىصدرها فى انساق ممى ، وبحه و نالع ، ور ىما كان من امحاتها ما اوىرح عا ه الحرص فه ، فىكسب ما اراد وما أرىد ممه ، ركا به المهى الحجه ىسُ مى فى علوم الدىىا والآحره ، فلا ىلحق عباره احد ، وهو أىداً العارس المحلى فى كل حلمه ، لم ىلححه احد فى طر ىه ه ، وحارل ىما ىده عىر واحد فى العصور التاليه

الاكىار من التالىف مع الاحاده وه هو وحه العرابه فى الحاحظ ، الف حمسىن رالائمائه مولف ، ىىن رسالة فى ىضع صفحات وكىاب فى ىصعه محلدات ، رآها كلها سىط اس الحررى فى اول القرن الساىع فى مسحد ابى حىىمه ىعداد الف كل هدا وحرّده رطر ىه كا ل سى ىسه ان لا ىحل اسدى بالكدب ، رلا ىدحل الباطل فى ىصاعىف الحق ، رلا سكىر ىعول الرور ، رلا ىلىمس ىمو ىه صىعه بالالفاظ الحسن ، وىسىر فىح كلامه بالىاطل المر ق ، ولا ىسىعىن على اىصاح الحى الا بالحق ، وعلى اىصح الحجه الا بالحجه ، ولا ىسىمل الى دراسه ىآ ىه واوهام ، وىسىدعى الى ىفصلها والاساده

مدكرها ، بالاسعار المولده ، والاحادث الموصوعه ، والاسانيد المدخوله ، وبما لا شاهد عليه الا دعوى قائله ، ولا مصدق له الا من لا يوثق بروايته وقد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب ومدارسة العلم ، ان لا يقفوا على الكلمة الصحيحة ، واللفظة السخيفة ، وعلى مواضع من تأليفه قد عرض له فيها استكراه ، ويقول لمن هذا حاله « لو جعل بدل شغله بتقليل ما يرى من المذموم ، شغله بتكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالادب المرضى ، والحلم[1] الصالح ، واشد مشاكله للحكمة ، وابعد من سلطان الطيش ، وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين ، واحذر ان يهب الله تعالى له السلامة فى كتبه ، والدفاع عن حجته ، يوم مناصلة خصومه ، ومقارعة اعدائه »

ويعوذ بالله فى كل موطن « من فتنة القول وخطله ، ومن الاسهاب وتجشم خطله » ويذكر « أن فتنة اللسان والقلم ، اشد من فتنة النساء ، والحرص على المال » ، واستعاذ من التكلف لما لا يحسن ، كما استعاذ بالله من العجب بما يحسن ، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده ، وربما ان يكون من الحاسدين ، ويعود من رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة وقال « ان اسقط الكلام واوعده ، وأبعده من السعاده وانكده ، ما اظهر التزاهد واضمر الحرص ، وتحلى بالورع وتعبث بالقناعة واستشعر ذلة الافتقار ، وافتتح منه والشين ان كان صاحبه ان منه اه حتى رهو ظاهر ، وتأويله بعيد الغور ، وهو قريب الفهم »

أخرج الجاحظ التأليف من طور الروايه ، إلى طور جمع فيه الى الروايه الدرايه ، ودعا الى حمل الصدق ، ورد الافك ، مستمداً من العقل ، داعياً

---

(١) الحلم بكسر الحا الطبعه

الى التفكير الصحيح ، قائلاً « إن من شكرِ النعمة فى معرفة مساوى الناس ومراشدهم ، ومضارهم ومنافعهم ، الا يحتمل ثقل مؤنهم فى تقويمهم ، وأن توخى ارشادهم ، وإن جهلوا فضل ما تُسدى اليهم ، فلن يصان العلم بمثل بذله ، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره » ، « ونعرف أن الحق مر والحد صعب ، ولا نصبر على مطالعة الكتب الطويلة إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر قلبه من عزه ، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد والكثرة من السآمة ، وما أكثر من تمادى الى حظه بالسواجير[1] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة »

ويرى أبا عثمان فى كتبه ينقل عن أرقى الطبقات وأدناها ، وعن العلماء ينقل عنهم ويذكر أسماءهم ، وأشار الى انهم كانوا عظماء فقط ليعرّف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة ، قال مرة « حدثنى بعض أهل العلم ممن طال ثُواؤه فى أرض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفاً بحب التبيين ، معترضاً للأمور يحب ان يُفضى الى حقائقها ، ويثبت اعيانها بعللها ، ويخبر أجناسها ، ويعرف مقادير قواها ، ويصرف أعمالها ، ويفصل حالاتها ، كان يعرف للعلم قدره ، وللبيان فضله » ، وروى عن ابراهيم بن السندى كثيراً ، ونوه به ، وقال فيه « انه كان مولى امير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لابناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ، ويحفظ ايامهم ، ويدعو الناس الى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى ، فخم الالفاظ ، لو قلت ان لسانه كان اردّ[2] على هذا المُلك من عشرة آلاف سيف شهير

(١) الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب وسجر سجر بشده كسوجر
(٢) قال هذا أرد أنفع ، ولا راد فيه لا فائدة فيه كلا مرد

وسنان طرير[1] لكان ذلك قولاً ومذهباً » ، ووصفه فى البيان والتبيين بقوله « كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان عروضياً وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى، وكان كاتب العلم ، كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، و يعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الاعور ، وكان منجماً طبيباً ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة و برجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، واقلهم نوماً ، واصبرهم على السهر » انظر اليه كيف يكرر فعل « كان » مرات فى بضعة اسطر ! يا ما أحلاه فى مكرراته وفى موجزاته وروى عن ثمامة بن اشرس احد شيوخه فى الحديث فقال « ان الصفات التى وصف بها ثمامة بن اشرس جعفر بن يحيى كان ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ، وما علمت انه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه »

والظاهرة المتجلية فى كتب أبى عثمان انه بينا ينقل الينا كلام الاجلاء ومذاهب العلماء والحكماء ، يروى لك « نوادر من كلام الصبيان والمجانين من الاعراب ، ونوادر كثيرة من كلام النخاسين واهل المِرّة من الموسوسين ، ومن كلام اهل الغفلة من النوكى ، واصحاب التكلف من الحمقى » يجعل بعضها فى باب الهزل والفكاهة و يقول « ولكل جنس من هـذا موضع يصلح له ، ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل » و « ان المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد ، وان البطالة وقار ورزانة ، اذا تكلفت لتلك العاقبة » فهو يكره النغمة الواحدة يرددها ، فيختار من الاصوات ما به ل

(١) السنان الطرير هو الرمح المحدد ، والسيف السيف المصقول المرفوع على الناس

فى النفوس ، فتسلبها وتطربها وهو يعلمها ، ويلعب بالألباب ، فى كل رسالة له وكتاب يتجلى فى أقواله ورزانته واستنباطه ووفرة المادة ، ووفرة البحث ، وكثرة ما يعلّم ، وهضم ما يعلم ، فكتبه أعيان متحركة عن جامدة جمود حروفها ، تأخذ من كل وجوه الإجادة بأوفر نصيب ، وتدور على « حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف »

ما كتب الجاحظ وألّف إلا عن تأهب ، وكان فى الأكثر يقدم فيعرض ما حمله على التأليف ، قال فى وصف كتاب الحيوان « وهـذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا ، وإسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ويشتهيه الفتيان ، كما تشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه المجدُّ ذو الحزم ، ويشتهيه الغفل ، كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبى ، كما يشتهيه الفطن » ، ثم ذكر مزاعم الناس فى تمزيق الكتب ، والسبب الذى يدعوهم إلى إسقاطها ، فقال « وليس هذا الكتاب يرحمكَ الله فى إيجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليه المرجى ، ولا فى تفضيل على فيتعصب له العثمانى ، ولا هو فى تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجى ، ولا هو فى تقديم الاستطاعة فيعترضه من يخالف التقديم ، ولا هو فى تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام ، ولا هو فى تفضيل البصرة على الكوفة ، ومكة على المدينة والشام على الجزيرة ، ولا فى تفضيل العجم على العرب ، وعدنان على قحطان ، وعمرو على واصل ، فيرد بذلك الهذَلى على النَظامى ، ولا هو فى تفضيل مالك على أبى حنيفة ولا هو فى تفضيل

امرئ القيس على النابغه ، وعامر بن الطفيل على عمرو بن مَعدى كَرِب ، وَعبّاد ابن الحصين على عبدالله بن الحُر ، ولا فى تفضيل ابن سُرَيْج على الغَريض ، ولا فى تفضيل سيبويه على الكسائى ، ولا فى تفضيل الجعفرى على العَقيلى ، ولا فى تفضيل حلم الاحنف على حلم معاويه ، وتفضيل قَتاده على الزُّهرى ، فان لكل صنف من هذه الأصناف شيعه ، ولكل رجل من هؤلاء حسّاداً وعدداً من مخاصميهم وسفهائهم ، والمتسرعون منهم كثير ، وعلماؤهم قليل ، وانصاف علمائهم اقل »

قال « وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الاراده فيه ، أول ذلك العله الشديده ، والثانيه قلة الاعوان ، والثالثه طول الكتاب ، والرابعه انى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتاب العَرض والجوهر ، والطفره والتولد ، والمداخله والغرائر والاجناس[1] ، لكان اسهل واقصر ايام ، وأسرع فراغاً ، لانى كنت لا افرع فيه الى تلقط الاشعار ، وتتبع الامثال ، واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الروايه ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الاشكال فان وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع نظام ، ومن وقوع الشيء فى غير موضعه ، فلا تنكر بعد ان صوّرت عندكَ حالى التى ابتدأت عليها كتابى ولولا ما أرجو من عون الله على اتمامه ، اذ كنت لم التمس به الا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريف تدبيره ، والذى اودع أصناف خلقه من اصناف حكمته ، لما تعرضت لهذا المكروه ، فان نظرت فى هذا الكتاب ، فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا تذهب مذهب المتعنت[2] ، ومذهب من اذا راى خيراً كتمه ، واذا راى شراً اذاعه »

---

(١) الاجناس مثله الطبعه (٢) المتعنت طالب الزله

ومما قال فيه « وما عندى لك من الحيلة الا أن أصوره لكَ فى احسن صوره ، وأفلكَ منه فى الفنون الحامه » ، « وان وجدت الكتاب الذى كتبه لك بخالف ما وصفت ، فأمضى من ساطكَ له على قدر ما نقصكَ مما بسطكَ اليه لقراءته ، وان وجدتنى ، اذا صح عملكَ وا صابكَ ، قد وفيتكَ ما ضمنت لك ، ووجدت نشاطك بعد ذلك مدخولاً ، وجدّكَ ملولاً ، فاعلم انا لم نؤت الا من قسولتك وفساد طبعك ، ومن اسارك لما اصرّ لكَ »

وقال فى مقصده الذى يرمى اليه نظر منه فى نا مه هذا « ورا ب ان حمله الكتاب وان كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما عليَّ ، ونعدُّ عليَّ فيه بالإطالة ، لانه وان كان كتاباً واحداً فانه كتب كثيره ، وكل صحف منها فهو أم على حده ، فان اراد احد قرا ه الجميع لم طل عليه الباب الاول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو ابداً مستمد و مستطرف ، وبعضه يكون جماما[1] لبعض ، ولا يزال نشاطه زائداً ، و ى حرج من آى القرآن صار الى الاثر ، ومتى خرج من اثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى س ر ، و ن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقليه ، ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله ان يكون ا مل ، والملال اليه ا سرع ، حتى يفضى به الى مزح وفكاهه ، والى سخف وخرافه ، ولست اراه سخفاً ، اذ كنت اسندت ملح سيره الحكما ، وآداب العلما ، و ما الله تبارك وتعالى لى اذا خاطبت العرب والاعراب ، أخرج الكلام مخرج الاشاره والوحى[2] والحذف ، واذا خاطبت بنى اسرائيل او حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد فى الكلام ، فأصوب

(١) الجمام بفتح أوله ا احه

(٢) ا حى الاشار والكنايه والمكتوب وادساله والالهام والسكا حتى وكل ما أعسه إلى غيره

العمل اتباع آثار العلماء ، والاحتذاء على مثال القدماء ، والاخذ بما عليه الجماعه »
وقوله هذا فى نسق تأليف القرآن من ابدع ما احدثت الفئه قوه معكره

قال ابو على الحسن بن داود فخر البصره باربعه كتب كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل زعم بعض علماء الافرنج ان كتاب الحيوان اقرب الى ان يوسم بكتاب أدب منه الى ان يعد كتاباً فى طبائع الحيوان ، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى ان ما جمعه الجاحظ فى صنوف الحيوان ولم يجمعه من العرب والعجم كاف بان يعد السابق المبرز فى هذا الفن ، والسعر الكثير الذى ينقله لا يزرى بما كتب ، وهو يملى على الناس روح عصره كتب الجاحظ كتابه اوائل القرن الثالث من الهجرة ، والعلم كما قال زيسه لم يتجاوز عمره من فرنكلين الى أنسين اكثر من مائه وخمسين سنه وفى كتابه خلاصه من السير الجيد ، واجمل الحكايات والنوادر ، ومنها ما كان من نوع الادب الواقع ، وهناك امتع الفوائد الادبيه والمسائل الدينيه ، واجمع من هذا كله كلامه على اجناس الحيوان وما كتب ما كتب فيه الا عن تجربه وعيان وفيه كلام على الناس وللادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم الى غير ذلك مما لا ظفر به باحث فى كتاب واحد قال ان العرائب والطرائف « ومنها شاهد من كتاب منزل ، او حديث مأثور او خبر مستفيض ، او شعر معروف ، او مثل مضروب ، او يكون ذلك مما يستشهد عليه الطالب ان من اكثر من قراءة الكتب ، او قص من قد دارس الاسفار وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى الهضاب ، ودخل فى الغياض ، ومشى فى بطون الاوديه » — الانسان بالتراب ناطق على عمق فائدته

واما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على وضوعه راساً وبداه بقوله

« اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العيّ والحصر ، وقديماً تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما » يقول صاحب الصناعتين إن البيان والتبيين كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير »

الجاحظ في البيان والتبيين يكثر من الشواهد ، ويقلّ من القواعد ، وضمّنه هزلاً وجداً ، وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق ، وكان الأمثل به أن يضع كل شيء في مكانه فاعتذر مرة بقوله « وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير » وقال في مناسبة أخرى « وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان من كتاب الحيوان ، وفي فصل ما بين الذكر والأنثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد في نشاطه »

أراد الجاحظ في البيان والتبيين أن يعلم طالب البلاغة بالعمل كما تعلم هو البلاغة ، وكان البيان في عهده يُعلّم على هذه الصورة وبعده قام العلماء بوضع

قواعد فلما أفادت الكاتب والشاعر ، اللهم الا الوقوف على ما عللوا له ،
واستشهدوا به ، وسموا له من الفوائد . وكان معظم من كتب لهم الاجادة فى كل
فن من فنى المنثور والمنظوم ممن لا يعانون كثيراً مما قاله علماء البيان . قال ابن
نُعَـلِّم بالذوق والعمل ، لا بالقواعد والقوانين . والجاحظ كان فى كتابه هذا عملياً
سابقه فى كل ما كتب . وكذلك هو فى النحو فقد قال فى فصل رياضة الصبى
« وأما النحو فلا تشغل قلبه منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش
اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب كتبه ، وشعرٍ ان انشده ، وشىء إن
وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو اولى به ، ومذهل عما هو ارد عليه
منه ، من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع »

والغالب أن البيان والتبيين على كثرة إمتاعه لم يظفر فيه الجاحظ بطرفة
أخيرة ، فقد رأيناه ذكر قصيدة سلمة بن خُرشب فى قتال عبس وذبيان مرتين ،
ونسبها فى المرة الثانية لسلمة بن الحارث الإيادى . وهى القصيدة التى انشدها
الجاحظ لسهل بن هرون فقال . والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب الى
أبى موسى الاشعرى فى سياسة القضاء وتدبير الحكم

وقال فى السبب الذى دعاه الى تأليف كتابه « الدلائل والاعتبار » وفيه
مباحث من شواهد آثار الصانع فى صنعه ، وتنبيه على أسرار قد اودعها ما يشاهده
المرء من فطرته ، تضطره الى معرفته وتشهد بوحدانيته ، وتخبر عن جلال عظمته
وكمال قدرته ، قال إنه الف مثل كتابه هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما
وصححوا معانيه ، ولا بينوا المشكل منه ، منهم جبريل بن نوح الانبارى ، وقد له
الف فى معناه تيودروس اسقف طرسوس وسمى كتابه الدر ، ونقله واحد عنه
من السريانية الى العربية ، فافسده بارذل الالسنة وسوء العبارة ، وهناك

بطمه باور بطوس أسقف فورس كسه بالدوناسه ، ونقل بعده إلى السرناسه ثم الى العربيه ، فجرى مجرى الاول المقصود بتداول النقل والعبارات ، ومنها كتاب ألف فى أيام بنى أميه ، نظمه سوعيحت مطران فارس ، وكتبه بالفارسيه فما كتبه استقلالاً اه وجمع الجاحظ محاسن ما وجده فى هذه الكتب وزاده بمقدار الطاقه ، وشرح ما نقل من غيره ، و بين القول فيما زاده ، وزينه تزيناً يونق السمع ، و يسر القلب ، و يبسط السامع ، و يوجب الحجه على الخالف

وقال فى مقدمه كتابه حجج النبوه والذى دعانا الى تأليف حجج الرسول ونظمها ، وجمع وجوهها وتدوينها ، انها متى كانت مجموعه منظومه بسط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها على اللفظ الموجز عنها ، ومن كان عسى ان لا يعرف وجه طلبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها و يجهل بعضها ، ولعل بعضهم ، وان كان قد عرفها بجمعها وصدقها ، فلم يعرفها من اسهل طرقها ، وأقرب وجوهها ، ولعل بعضهم ان يكون قد كان عرف فنسى ، او تهاون بها ونسى ، بل لا نشك انها اذا كانت مجموعه مشجره مستقصاه مفصله انما تزيد فى تبصره العالم ، و يجمع الكل لمن كان لا يعرف الا البعض ، و يذكر الناسى و يكون عده على الطاعن وعلى بعض من لحد فى دينه ، عمى عن رشده ، والحظ وضع حظه ، ان يدع ما يعجب بنفسه ، والانه ما عنده الى ان يثبت فى ... ما عدم فى معضها والسدها ، فاذا قراها فهمها ، و اذا فهمها انتبه من رقدته ، وافاق من سكرته لمعرفة الحق من الباطل ولاشراف الحجه على الشبهه ، ولان من يعود كمن قراه لمن كمن يابرع صاحبه وحافاه ، لان الانسان لا ... نفسه ، والحق بعد فاقر له ، ومعها لاقى بحدث الساهى ، وفى الخافل نقل الخشوع و بسد الزرع اه

وقال فى مقدمة رسالته التبصر بالتجارة « سألت ، أكرمك الله ، عن أوصاف ما يستطرف فى البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ، لتكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب ، وعوناً لمن مارسه وجوه المكاسب والمطالب » وقال فى مقدمة رسالة « الحنين الى الأوطان » « إن لكل شىء من العلم ، ونوع من الحكمة ، وصنف من الأدب ، سبباً يدعو الى تأليف ما كان فيه مشتتاً ، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً ، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة ، تمييز الأخبار ، واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله ، وتأليف كل نادر من الحكمة الى مثله ، بطلت الحكمة وضاع العلم ، وأميت الأدب ، ودرس مستور كل نادرة ، ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، وتقييدهم آثار الأوائل فى الصحف ، لبطل أول العلم وضاع آخره ولذلك قيل لا يزال الناس بخير ما بقى الأول يتعلم من الآخر »

وهكذا نراه يبين فى مقدمات كتبه ورسائله بغيته فى تأليفها ووضعها ، فقد قال فى مقدمة كتابه البخلاء « ذكرت حفظك الله انك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل ، وانك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى أن لا يبلغه كيد ، ولا تجوزه مكر ، وذلك ان مرفع بعمه عطيم ، وان التقدم فى درسه واجب ، وقلت اذكر لى نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً ، والراحة جماماً ، فان للجد كداً يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته »

وبدأ كتابه المحاسن والاضداد بقوله « كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان

والمدن والحصون ، مثل ما أردشير وبناء إصطخر ، وبناء المدائن والسَّدير ،
ثم ان العرب شاركت العجم فى البنيان ، وتفردت بالكتب والاحجار والشعر
والآثار ، فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران ، وقصر أرب وقصر مارد ،
وقصر شَعوب والابلق الفرد وغير ذلك من البنيان وتصنيف الكتب أشد
تقييداً للمآثر على ممر الايام والدهور من البنيان ، لان البناء لا محالة يدرس ، وتعفى
رسومه ، والكتاب باق يقع من قرن الى قرن ، ومن امة الى امة فهو ابداً
جديد ، والناظر فيه مستفيد ، وهو ابلغ فى تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير

« وكانت العجم تجعل الكتاب فى الصخور ، ونقشاً فى الحجارة ، وخلقة
مركبة فى البنيان ، وربما كان الكتاب هو الناتئ ، وربما كان هو المحفور
اذا كان ذلك تاريخاً لامر جسيم ، او عهداً لامر عظيم ، او موعظة يرتجى
نفعها ، او احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى
باب القيروان ، وعلى باب سمرقند ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقَر ،
وعلى الابلق الفرد ، وعلى باب الرها يعمدون الى المواضع المشهورة ،
والاماكن المذكورة ، فيضعون الخط فى ابعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من
الدرس ، واجدر ان يراه من مرّ به ولا يُنسى على وجه الدهر ولولا الحكم
المحفوظة والكتب المدونة ، لبطل اكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان
الذكر وما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولو لم يتم ذلك لحرمنا اكثر
النفع ولولا ما رسمت لنا الاوائل فى كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت
من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا
الى قليلنا كثيرهم وادركنا ما لم ندركه الا بهم ، لقد بخس حظنا منه واهل
العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر ، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل ،

وورية الأنساء ، وأعوان الخلفاء ، يكسون كتب الظرفاء والصلحاء ، وكتب للملاهي ، وكتب أعوان الصلحاء ، وكتب أصحاب المراء والخصومات ، وكتب السخفاء وحمية الجاهلية ومنهم من يفرط في العلم أيام حموله ، ويترك ذكره وحداثة سنه » انظر إلى هذه الرشاقة مع الجزالة ، وإلى هذه الإحاطة بكل ما يجب أن يقال في هذا المجال وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلي بها « إلف بعكر وسمر ، ودرّاسة كتب ، وحلف بيس » لاقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يحلو بالتدوين ، ويرد بها على من يتهمهم « بالملاء بالخرافات ، أو بالرد على الصحيح ، وبتصحيح السقيم » قال في سبب تأليفه « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » « إن دهشا ، حفظك الله ، بعض هذه الاحتجاجات ، وعند تقطع هذه الاستدلالات تستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم ، وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم ، وطرق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم ، وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنوفق بين قلوبهم ، إن كانت مختلفة ، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التقارب في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، لا يفخر بعضهم بفخر ، ولا يفسده عذر الباطل بمموهه ، وبشبهات مزوره ، فإن المنافق العليم والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم » « وأنا أقول إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك ، إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب ،

والإضراب عن هذا الكتاب أحزم ، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجمل ، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالفسح ، لأن ذكر الأكثر بالجمل بأوله ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالفسح بعضه ، وباب من ترك الواجب ، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع ، ولكل الناس نصاب من النقص ومقدار من الذنوب ، وإنما يتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوى فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوى دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف »

وعلى هذا المعنى يقدم بين يدى نجواه ، الدواعى والبواعث إلى التأليف ، خصوصاً وبعض ما يورده بالتصنيف قد يكون مما يستغرب الكتابة فيه ، مثل رسالته فى فخر السودان على البيضان ، وقوله فى المقدمة إنه كتب فى ذلك ما حضره من مفاخر السودان ومثل رسالته فى أخلاق الكتاب ، جرياً على من مدح أخلاقهم ووصف فضائلهم وأعمالهم ، فذكر رداءة مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم مسموعة بالحجة « إذ كان فى ذلك من البيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم » ، وقال فى غرض تأليف رسالته فى القيان « فوضعنا فى كتابنا هذا حججاً على من عاب ما عاب القيان ، وسببنا بمقادمة الأحوان ، ونعم عا ا اصمر ا ر الحدث بها ، ورجونا ا صر اد قد نُدينا ، والا ادى اطلم ، وكان اجب قد ح (ر روى ر ب حو قصيح) مس اخرج لا به له ، وصرله لخاب اب لا بما بعده قسا الحجة فى اطراح الغيرة فى غير محرم ولا ريبة »

ـ كر فى رسالته يفضل النطق على الصمت أنه رجد كلام من زعم أن الصمت أفضل من الكلام « كلام امرئ قد أعجب برأيه ، وارتطم فى هواه ، وظن أنه قد نسج فيه كلاماً ، رأيت الغلط ، وتسجل له ما أتى على نحو ما وجده

ومقصده ؛ أنه كان مَثَله فى ذلك مثل من يخلص الى الحاكم وحده فناجى بحجته ، و إنى ساوضح لك ذلك ببرهان قاطع ، و بيان ساطع ، وأ برح فيه من الحجج ما يظهر ، ومن الحق ما يبهر ، بقدر ما أنت عليه معرفتى ، و بلغته قوتى ، وملكته طاقتى ، بما لا يستطيع احد رده ، ولا يمكنه انكاره وجحده » وفى رسالته فى « مدح التجار وذم عمل السلطان » « وهذا الكلام لا يزال يسمع من حشوه اتباع السلطان ، فاما عليتهم ومصاصهم[1] وذوو الابصار والتمييز منهم فيعلمون انهم (اى التجار) أروح الناس ابداناً واهدؤهم عيشاً ، وآمنهم سرباً ، لانهم فى أفنيتهم ، كالملوك على أسرتهم ، يرغب اليهم اهل الحاجات ، و يفزع اليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ، ولا تمسهم الضرَع لمعامليهم ، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وفاز به بحذ...ه ، فان أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم بما هم فيه خَوَل مملوءة ، قد البسها الرعب ، والفها الذل ، وصحبها ترقب الاحساس ، فهم مع هذا فى تكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغير الدول ، واعتراض حلول المحن ، فان هى حلت بهم وكثيراً ما تحل ، فناهيك بهم مرحومين ، رق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء »

ومما قال فى رسالته فى الوكلاء « وأحق من كان فى صفتك ، وأحرى بمن جرى عن دربك ، ان لا يكون سبب تسرعه ، وعلة تسخطه ، الا من صدق المصدر ، جميع الخير راجع الى سعة الصدر ، فقد صح الآن ان سعة الصدر اصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع وقد رأيتك حفظك الله تعالى حوّيت جميع الوكلاء بخيرهم ، وسبقت على جميع الورافين وطلبهم ، وحويت

(١) مصاص ... ...

جميع المعلمين وعيوبهم ، وحفظت مساويهم ونسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الاعلام والحمله »

وكانت رسالته فى « الرد على النصارى » جواب كتاب جاءه من أحدهم ، يذكر فيه من مسائل النصارى قبله ، وما دخل على قلوب أحداثهم وضعفائهم من اللبس ، وما خاف على جواباتهم من العجز ، وسأله اقرارهم بالمسائل ، وحسن معونتهم بالجواب قال « وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع الكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القويه ، والادلة الاضطراريه » ، وقال فى الابانه عن رسالته فى الاخلاء « ولكَ فى هذا الكتاب بلاغه اسنانه نفس حججه طريقه ، أو يعرف حمله لطيفه ، او استفاده نادره عجيبه ، راب فى ضَحِكٍ منه اذا سئمت ، وفى لهو اذا مللت الجد »

وكتب فى كتابه طبقات المغنين ما دعاه الى تأليفه فقال « انه خُص زمانه بنفسه اشراف اسطع لهم من آلات الفتوه واسباب المروءه ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدماً من سواهم ، لحملى الكلف بهم ، والموده لهم ، والسرور بتجديد ذكرهم ، وتسييد ذكرهم ، والحرص على تقويم اود ذوى الاود منهم ، حتى يلحق باهل الكمال فى صناعته ، والتفضل فى معرفته وعلى تبحر طبقته طبقه طبقه ، وسميته اهل كل طبقه وصفتهم وكلامهم وادراكهم والمذاهب التى سلكوها بأنفسهم ، واجمعتهم اخبارهم عليه وخلطنا حداً بهزل ، ومزجنا مزحة بتعريض ولم نرد بذلك مس سمعنا ، ولا تذليلاً لهم ولا تجاوزنا حداً ولو استعمله غير الصدق لسلك قوماً ، وجانبنا آخرين ، ولم يك فى ذلك مجانباً للحق ، بل قصدنا الانصاف ولم نقصد فى وصف من وصفنا من طبقته الى ضعته منهم ولا ... وكما ... من اهل زمانه من حصل ... السلا

وذلك فى سنة خمس عشرة ومائتين وقد تركنا فى كل باب من الابواب التى صنفناها فى كتابنا فرجاً لزيادة إن زادت ، أو لاحقة ان لحقت ، أو نابتة ان نبتت ، ومن عسى ان ينتقل به الحذق من مرتبته الى ما هو اعلى منها ، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها الى ما هو دونها الى مكانه الذى الذى يليه ارتفاع درجته أو انحطاطها ، ومن لعلنا نصير الى ذكره ممن عزب عنا ذكره ، وأنسينا اسمه ، ولم نحط علما به ، فنصيره فى موضعه ونلحقه بأصحابه ، وليس لأحد أن يثبت شيئا من هذه الاصناف الا بعلمنا ، ولا ينبغى لامرئ يرى دوننا ويورد ذلك علينا فنصححه ، ونعرفه مما عنده ونصير الى مرتبته فى المرتبة التى يستحقها ، بالطبقة التى يحتملها ، فلما استتب لنا الفراغ مما اردنا من ذلك ، خطر ببالنا كثرة الناس من الجهال بين الناس ، فلم نأمن ان يسرعوا بسفه رأيهم ، وخفة احلامهم الى نقض كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وازالته عن اماكنه ، التى عليها رسمنا ، وان يقول كل امرئ منهم فى ذلك على حاله ، ويقدر هواه ورأيه ، وموافقته ومخالفته ، والميل فى ذلك الى نقص ، والذم لطائفة والحمد لاخرى ، فيهجنوا كتابنا ، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا ، ولا يحل ان يأخذ فى ذلك بالحزم ، وان يحتاط فيه لانفسنا ومن صحبه كتابنا ، وبادر الى تفريق نسخة منها وتصييرها فى ايدى اثبات والمستبصرين الذين كانوا فى هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن ابى صالح وكأحمد بن سلام وصالح مولى رشيد ، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة فى أعناقهم ، ونسخة باقية فى ايديهم ، رضينا بهم امناء ومستودعين ، وحفظة غير مضيعين ولا متهمين ، وعلمنا انهم لا يدعون صيانته ما استودعوا ، وحفظ ما علمه الله ونوى اذا شئت به شرب مخالفة ، وأصف الله ما لا يلائمه اهـ »

وبدأ كتابه صناعة القواد بقوله « أرشدك الله للصواب، وعرّفك فضل أولي الألباب، ووهب لك حمل الآداب، وجمّلك بشرف عز الأدب، كما يعرف روائد الغنى، قال أبو عثمان دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله، فقلت له يا أمير المؤمنين، في اللسان عشر خصال أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ يعرف به القبيح، ومعز ترد به الأحزان، وخاصة ترهى بالصنيعة، وملهى يونق الأسماع »

وقال في مقدمة كتابه الحجاب « أطال الله بقاك، وجعلني من كل سوء فداك، وأسعدك بطاعته، وتولاك بكرامته، ووالى إليك مزيده، اعلم أنه قيل « أكرمك الله » إن السعيد من وعظ بغيره، وإن الحكيم من أحكمته تجاربه، وقد قيل كفاك أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك، وقيل كفاك من سوء الفعل سمعته، وقيل إن من فطنة الفهم للواعظ ما يدعو النفس إلى الحذر من الخطأ، والعمل إلى تحصينه من الغدر، وكانت الملوك إذا أتت ما يحل عن المعاره عاقبه ضُرِبت لها الأمثال وعُرِض لها بالحديث »

وبهذا وصف غيرنا بعض طريقته في التأليف

وقد كتب في صدر رسالة أنشأها رداً على من حاول الطعن على كتابه وسخف الرأي الذي دعا إلى إنشائه والإشادة بذكره « إذا كانت الدنيا لا تخلو من حاسد باغ، ومن قائل متكلف، ومن سامع طاعن، ومن منافس مقصر، كما أنها لا تخلو من ذي سلامة مستسلم، ومن عاقل مُلم، ومن بعيد الخطر، حسن المخبر، شديد تحامله على حزب الأدباء، فإلى الله المشتكى إلى أعراض الأمة

والحاصل أن أبا عثمان ابدع فى رسائله وكتبه وفى مقدماتها ، وقد طلب اليه أحد أصدقائه أن يكتب له صفات الشارب والمشروب ، وما فيهما من المدح والعيوب ، وان يميز له بين الانبذة والخمر ، وان يقفه على حد السكر وأن يعرفه السبب الذى يرغب فى شرب الانبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبذ الاوعية — طلب منه هذا فكتبه ، فكأنه عاش حياته بين المواطن والجرار والقدور والخمارين والسكارين والمخمورين ، وهذا آية ابداعه وعنوان ناحية فى أدبه يحسنُ كل شىء ويحسن وصف كل شىء

وقال فى صدر كتابه فى المعلمين اعانكَ الله على سوره الغضب ، وعصمكَ من نوره الهوى ، وصرف ما اعاركَ من القوه الى حب الانصاف ، ورجح فى قلبك ايثار الاناة ، فقد استعملت فى المعلمين تَوكَ السفها ، وحطل الجهلا ، و مجانبه الادباء ، ومجانبه سبل الحكماء ، وتهكم المقدرين ، وامن المغترين ، ومن تعرض للعداوه وجدها حاضره ، ولا حاجه بك الى تكلف ما كفيت

كتب ابو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه ، ومنهم من ذكرت اسماؤهم ومنهم من لم يعرف كما وقع له فى كتاب تصحيح النبوه ان قال قد اعجبنى حفظك الله استهدارك العلم وفهمك له ، ووسمك بالانصاف ومدلك اليه ، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ، ورغبتك عن التقليد ، وزراءتك عليه ، وإيثاره كتبك على بعد دارك ، وتقطع اسبابك ، وصبرك الى اوان الامكان ، واستعلك عند سبق الدر ، وفهمت حفظك الله كتابك الاول وما حسبت عليه من تبادل العلم والامارات على الحب والانحراف فى الدين والنصيحه لجميع المسلمين ، وقلت اكتب الىّ كتاباً تقصد فيه الى حجاب النفوس والى اصلاح القلوب ، والى مصاحبات السلك وخطار السبب ، دون الذى عليه اكثر الكتاب

من التطويل ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، وإضاعة ما يجب ، وقلت كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد الخ

***

اطلنا الآن جملة بعض ما خاض الجاحظ غماره ، وجلى فى مضامره من الابحاث ، وما اشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن ، وحزب الدولة ، وحزب الدين ، ويدل الناس على مراشدهم ، ويكشف عن عورات الفاسدين ، ويعلمهم الفضائل ، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم لاستصلاح جماعاتهم ، يعرفهم بالاسلام من طريقى العقل والنقل ، يثبتهم بما به يهم ، ويزيد ايمانهم وثوقاً ، ككتبه فى اثبات النبوة ونظم القرآن وفضل ما بين النبى والمتنبى

قال ابن الخياط ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الاخبار واثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن علم ان له فى الاسلام غناء عظيماً ، ولم يكن الله عز وجل ليضيعه له ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وانه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ ، وهذه كتبه فى نسب لرسالة وكتبه فى تصحيح مجى الاخبار مشهورة اهـ

حسبنا لا نزال نعلم ان [illegible] لا [illegible] الا ادا صح فى نظر العقل ، وعلى ان يدب ملاحظيهم ، ويرهف حسهم ، يعلم جزئية الاطار والمحب وبينه ان الدين لا يصلح بغير الدين ، وان الشريعة جاءت لاصلاح الاولى والاخرى ، ووراء كتب دفاتر مشبعة فى [illegible] الرأى وفى السارق والمسروق ومن المسكر ، وفى سرائع المروءة ، وفى الغش والنساء وفضل ما بين الرجل [illegible] فى [illegible] والمعلمين الطفيليين [illegible] وفى المرجين والبرصان

والفرعان ، وفى الأسماء والكنى والالقاب والاسار ، وفى الأصنام ، وفى الاس والسلوة ، وفى حيل اللصوص وغش الصناعات وأخلاق الشطار ، و بكتب فى المعادن والتجارة وفى الزرع والنخل والزيتون والاعناب ، وقلما نرى له تخليطاً يذكر الى جانب تخليط غيره من المؤلفين

ذكر الجاحظ بنى مروان و بنى أمية فى رسالة ما لهم وما عليهم ، مع انه لا يتولاهم ، يقول المسعودى وقوله يؤخذ ابداً بتحفظ ان الجاحظ ألف كتاباً بإمامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب وأنه لم يصنف هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحجج للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لانه لم يكن يدين به ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً ، وقد صنف كتاباً استقصى فيه الحجج ترجمه بكتاب العثمانية ، يحل فيه عند نفسه فضائل على ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى امامة المروانية واقوال شيعتهم قال رأيته مترجماً بكتاب امارة امير المؤمنين معاوية بن ابى سفيان فى الانتصار له من على بن ابى طالب وشيعته الرافضة يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه امامة بنى أمية وغيرهم ، ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل امير المؤمنين على ومن تبعه اه وهذه الكتب لم تصلنا فى جملة عشرات من كتبه فقدت ، فما استوثقنا مما ادعاه عليه المسعودى

وذلك ما الله فى عتب عليه من كتبه ، وكانه جواب لمخالفيه ، والمسعودى داخل فى زمرتهم « وعبتنى بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخر السودان والحمران ، وموازنة ما بين حق الخؤولة والعمومة وعبتنى بكتاب الزرع والنخل

والرسوب والاعماب ، واقسام فصول الساعات ومراتب المحاراب ، وبكتاب فصل ما بين الرجال والنسا ، وفرق ما بين الذكور والاناث ، وفى اى موضع نعلس ونفصل ، وفى أى موضع نكن المعلوبات والمفصولات وصاب أيهما فى اولد اوفر ، وفى اى موضع نكون حمهن أوجب ، واى عمل هو بهن الى ، واى صناعه هن فيها أبلغ وعننى بكتاب المحطاسه والدباده ، وفى الرد على المحطسه ، ورعمت انى جاوزت فيه حد الحميه الى حد العصبيه ، وأنى لم أصل الى تفصيل العدناسه الا سعص المحطانيه وعنانى بكتاب العرب والموالى ، ورعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما انى أعطيت العرب ما ليس لهم وعنانى بكتاب العرب والعجم ، ورعمت ان القول فى فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب نسا ى الى التكرار والترداد والى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخطال ، وحمل الناس ... وعناى بكتاب الاصنام وذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عباده العرب اياها ، وكيف احتمعا فى جهه العله ، مع اتفقهما على جمله الدنانه وكيف صار عباد البدده والمتمسكين بعباده الاوثان المنحوته والاصنام المنجوره ، اسد الدنا بين [illegible] [illegible] له واحوهم حدا واسدهم على [illegible]

[illegible] لاص فى [illegible]

[illegible] محوفه [illegible] سرع [illegible] على [illegible] الالوان تصبغ ولا تصبغ وبعضها تصبغ ولا تصبغ وبعضها تصبغ وتصبغ ، وما القول فى [illegible] يكسب فرق ما بين [illegible] ، وكتاب فرق ما بين الجن والانس [illegible] فرق ما بين الملائكه والجن [illegible]

استيلاء العفريت على سليمان وفى الهدهد ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما الذى هو ذلك العلم ، وما تأويل قولهم كان

« وعبتنى بكتاب الارفاق والرياضات ، وما القول فى الارزاق والإنفاقات ، وكتب تجرد التجار الحرفاء ، وكتب الاحتيال للودائع ، وبكل ما كتبت إلى اخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن افصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقف ، ومن هجاء لا يزال منسمه(١) نافماً ، ومديح لا يزال اثره نامياً ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكى وعبتنى برسائلى الهاشميات واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها وتصويرى لها فى أحسن صوره ، واظهارى لها فى اتم حلية وزعمت انى قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الى حد الزيدية ، ومن حد الاعتدال فى التشيع والاقتصاد فيه ، الى حد السرف والافراط فيه ، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة ، وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية وزعمت ان فى اصل القصة والذى جرت عليه العادة ان كل كبير فأوله صغير ، وان كل كثير فانما هو قليل جمع الى قليل »

وانت ترى ان ذلك العائب لاى عيب لم يبق له كتاباً لم يعبه بانا به ، وان كان بلغ من احكامه سوطاً بعيداً ، ثم عاد فقال « وعبت كتابى فى خلق القرآن ، كما عبت كتابى فى الرد على المشبهة ، وعبت القول فى اصول الفتيا والاحكام ، كما عبت كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وعرضت بالامامة وبدع تركيبه ، وعبت معارضتى للزيدية ، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصرانى واليهودى ، ثم عبت جملة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكل حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت

(١) اسم المكوا

من قدرها ، واعترضت على ناسخها والمنتفعين بها ، فعملت كتاب الحيوانات ، وكتاب المسائل ، وكتاب أصحاب الالهام ، وكتاب الحجة فى تثبيت النبوة ، وكتاب الأخبار ، ثم عملت انكارى بصيرة غنام المرتد ، وبصيرة كل جاحد وملحد ، وتفريقى بين اعتراض الغمر ، وبين استبصار الملحد ، وعملت كتاب الرد على الجهمية فى الادراك ، وفى قولهم فى الجهالات ، وكتاب فرق ما بين النبى والمتنبى ، والفرق ما بين الحيل والمخارق ، وبين الحقائق الظاهرة والاعلام الباهرة ، ثم قصدت الى كتابى هذا بالتصغير »

لقى الجاحظ الأذى من خصومه الناقمين والمعارضين ، ولكن ذهبت أقوالهم فى الريح ، وذهب هو بالاحسان ، بقيت مصنفاته وانتشرت وبقى الادب ، وانقرض الغابرون وما زوروا به ، واى عصر ، واى مذهب ، واى جنس خلا من ابتلائهم

سياسته ودهاؤه

الجاحظ رجل سياسة ايضاً كما هو معلم معلمين[1] ، عرف سياسة اوقات مروءة سياسة العلم ومع اعتقاده عادة العلماء كما قال ابن خلدون « انظر الفكرى ... عن ... ما ... من المحسوسات ، وتجريده فى الذهن اموراً كلية عامة ليحكم عليها ... لا بخصوص مادة ولا شخص ، ولا جيل ولا امة ولا صنف من الناس » مع اعتقاده هذه انتشرت فى الدفوع عن كتاب الدولة ، وقصر ركونه على الامور الكبرى ، وقد دخل فى تفاصيل السياسة العباسية وتوسع فيها لكثير غلطه عند ارادته انواع السياسة فى ... نظره ، وتوقع

(١) رجل معلم كتبى ... ومعلم الخطيب ورجل معلمين وهو من اسكام

استدلالاته ، من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض

وأول نظره فى كتبه تسلك بانه آزر فى خدمه دولته ، واسفاره فى الفرق ما بين « هاشم وعبد شمس » و « الرسائل الهاشميات » و « العباسيه » و « العرب والموالى » و « العرب والعجم » و « وجوب الامامه » و « الدلاله على أن الامامه فرض » و « مناقب الترك » كلها شاهده انه شاطر السياسيين الى الحد الذى اسجاره لنفسه وإنا اذا نظرنا الى اتصاله بوزراء الدوله ، والى حرص كل واحد منهم على ان يختص به دون غيره ، ندرك ان من سعوا بصحبته للاستماع بفضله وعلمه والاستمتاع بحديثه ، لابد ان يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مسا كلهم ، علماً منهم بسائر كلامه فى الافكار ، ومنهم من كان يعمل للدولة فى حاضرها ، ونهم لمستقبلها ، امثال ابن خاقان وابن ابى دواد وابن الزيات

ومن يقرأ كتاب الفرق ما بين هاشم وبنى عبد شمس ، لا يعقل الا ان ينسبه الى حب بنى هاشم ، وهم اصحاب الدوله القائمه ، والجاحظ خصوصاً بحكم مذهبه لا يميل الى بنى اميه ومن يقرأ « الهاشميات » و « كتاب العباسيه » لا يوحى عن خدمه العباسيين ولا يكتب الا ما ينفع الهاشميين من جهة أخرى نرى ان ابا عثمان لو لم يجد هذه الخطه السياسيه ، يراعى الخلفاء ، وانما الدعوه ووزراءهم ، لاستعمله اعداوه ، وكان له اعداء فى مذهبه ، وأعداء فى علمه وفكره ، وحساد غلاظ شداد من طبقه العلماء ، وطواغيت اغبياء ، يكرهون رؤاه ويسرهم كل من يسعى و يشهر هذا وفى أرض المملكه ألوف من المعجبين به ، واكثرهم من الخواص ، والعوام متساقطون عليهم فى اغلب الازمان البلدان فلولا السياسه التى اتبعها الجاحظ ، ولولا ما ادرك المخالف

والموالف ، أن له بدأ عند السلطان ، وانه برعاه و بسط عليه جناح رحمته ، اماله شيء من اذى العامه والخاصه ، بإيعار ابصار السوء ؟ فابو عثمان اتخذ بالنظر مه الى سلـكها فى بعض بأنمه بدأ عند الخلفاء ورجال الدوله فعدوا له قوه وسندأ

انظر إلى قوله فى جمله طبقات الناس « وضرب آخر من الناس همج هامج وَرعاع منتشر ، لا نظام لهم ولا احسار عندهم ، اعراب أحلاف ، واشباه الاعراب ، لا يدفع صولتهم اذا هاجوا ، ولا تؤمن هجماتهم إذا سكنوا ، ان احصبوا طغوا فى البلاد ، و ان أجدبوا آثروا العباد ، ثم هم موكلون ببعض العده ، واهل الثرا والنعمه ، يتمون الدكنه ، و يسمسون بالمره ، و يسرون بالحوله ، يعرفون الدائره ، وهم كما وصفوا الطعام والسفله »

وقال من رسالة فى وصف العوام « قد عرفت ما كان الناس فيه من القول بالعامه ما لهم من الجماعات الكثيره والقوه الظاهره واسب للخاصه طاقه بالعامه ، ولا للعليه قوه على السفله وقد قالت الاوائل فيهم ، وفى الاستعاذه بالله تعالى منهم ، فقال على رضى الله عنه نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يملكوا [illegible] وقال واصل بن عطاء ما اجتمعوا الا ضروا ولا تفرقوا الا نفعوا فقيل له قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق قال [illegible]

[illegible]

[illegible] والحشره [illegible] فقبح الله هذه الوجوه [illegible] »

ذلك [illegible] كلاماً [illegible] ، [illegible] عليه ، لا [illegible] من ان [illegible] الى ان هذا [illegible]

ما كسه الا ليعلل من سأن الناقمين على السياسه يومئذ ، وحوابه المقـدر أصح حواب بقوله سامى ، وهذا هو

« السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، و ں محكوم عا ٮه ساخط ، و ں م ںدول عن الحـكم زارٍ ، ومن متعطل متصفح[1] ، ومن معحب برأيه ، ذى حطل بيانه ، مولع بتهجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ، حتى كا ىه رائد لجميع الأمه ، ور كيل لسكان المملـكه ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع المصفح على الخلفاء رالوزراء ، لا يعذر وان كان مجازُ العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محملاً ، ولا يصدق بان الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وانه لا يعرف مصادر الراى من لم يشهد وارده ، ولا مسىدبره ں لم يعرف مسـ ٮ له ، ومن محروم قد اصطفه[2] الحرمان ، ومن لئيم قد افسده الاحسان ، و ں مستبطئ قد احذ اضعاف حقـه ، وهو لجهله بقدره ، واضيق درعه ، وقله سكره ، يظن ان الذى بقى له أكثر ، وان حقه اوجب ، ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف اياديه اا مض عنده ، ونعمه السالفه عليه ، لكان لذلك اهلاً وله مستحقا قد عره الاملاء ، وابطره دوام الـكفايه ، وافسده طول الفراغ ، رصاحب فتنه حا ل فى الجماعه ، رئيس فى الفرقه ، عاق فى الهرج ، قد اقصاه عن السلطان ، واقام صعره ثقاف الادب[3] ، واذله الحـكم بالحق ، فهو معمط لا يجد عير التسنيع ، ولا يشفى بغير الارجاف ، ولا يستريح الا الى

(١) الزارى العائب ، والمتصفح الذى ينظر فى الأمر يمعان ، وتهجين الأمر تقبيحه ، والطالب والرائد الذى يرسل فى طلب الـكلأ

(٢) اصطفه جعله مستبا على اصيص وهو الحقد

(٣) اصعر الميل والثقاف كسحاب ما سوى به الرماح أى يقيمها ، والغش صوت ا امى نعمه ، والهرج اعسه والاحا ص

الامانى ، ولا باس الا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وحارص لا خير فيه ، وحالف لا غنا عنده ، يريد ان يسوى بالكفاه ، ويرفع فوق الحماه ، لامر سلف له ، ولاحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب(١) قديماً محدث ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحسنين ، وبين الحفظ لاساءه المحسنين، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام ، وثواب الكفايه ، من لا يعرف طبقات الحق فى مراتبه ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله »

كتب هذا الى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى المشكله التى كان يراها رجال الدوله من اهم ما تُعالج يومئذ ، وهى مساله الغلط فى الجنس بتسرب الاتراك اليه . ومن يقرأ رسالته فى مدح الاتراك لا يصعب عليه ان يدرك ان الجاحظ على بلاغته ولطيف حيلته ، كان فيها مجمجماً لا يصرح ، فهو يحكم ذمه ... ومدحه ... الترك ، ويذم ... الامم دونهم فى المنزله والجنس ، ويرى ان ... الترك فى اخلاقه افضل من رجال الامم ، ويقول « فما ظنك بالراى منهم اذا كانت مقدمه فيهم » ويقول « لم يكن احد الطالب فى فرش نظير كما انه ليس فى الترك لفرس نظير وكما انه ليس فى الترك للناس نظير »

... دعته ... الترك فى الجنس ... للاتراك فى الدوله ... لسمعه ... عن محمد ... فى جانب ... من ... الترك ، ... سلطانهم ... على ... وسكنهم ، ... يعرف مرامهم . وعلى هذا كان الجاحظ على بعض صواب فى كتابه هذا ، والى معذره فيما مَوّه فيه ... ان يرضى الاتراك ، ويقع دراية ان اهدأ الأفكار الثائره ، ويضع صفحات

(١) يرب لامر ... سابقه ... ...

من كلام الجاحظ افعل فى الناس من عشرات من رسائل غيره وخطبهم ، وهذا سر تمسك رجال الدولة به والنص بصداقته

عالج بما راى مسالة تكاثر الاتراك فى الجيش ، وربما أخذ فى اشادته على الترك بعوض بعض العرب عليه ، وهكذا اقتضت سياسة دولته وأمته وعالج ايضاً مسألة سياسية اخرى ، عندما مسالة الشعوبية[1] من الحملة على العرب ، وقد راى الساخر من الفرس يؤدى الى انقسام المملكة على نفسها ، اذا فسد ركب الجيش ، واذا فسد تركيب الامة ، فهب يتناول من حكمة مال الشعوبيين ، ويصغر من شأنهم ، ويرفع من قدر العرب ، وما عابه من ذلك الا خدمة الدعوة العباسية ، ونزل فى الطعن عليهم « واعلم انك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا اعدى على دينه ، ولا اشد استهلاكاً لعرضه ، ولا اطول نَصَباً ، ولا اقل غُنماً من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعُّر تلك النيران المضطرمة »

حاربهم فى البيان والتبيين ، وحاربهم فى كتاب الموالى والعرب ، وحاربهم فى رسالة النابتة ، وربما فى مواضع اخرى لم تنسبه الى اقواله ، وحارب الموالى بكراهية « العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التى لا تبقى ديناً

---

(١) الشعوبيون الأعاجم وفى العقد ان العرب تسمى الاعجمى إذا اسلم المسلمانى ، ومنه قال مسلمة السواد ، والعجمى عندهم لدى ابو عرب وبه العجمة والعرب الذى أمه عربية وأبوه اعجمى والعجمى النصرانى ونحو وان كان فصيحا ، والاعجمى الاخرس اللسان وان كان مسلما ومنه قيل زياد الاعجم ، وكان فى لسانه لكنة ، ودعى الفرس بالموالى فى الاسلام ، وكانوا يسمون ابناء الاحرار فى الجاهلية ومن قبائل العرب كعبد القيس من كتاب فجر حوالب

إلا افسدته ، ولا دنيا الا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب » قال « وليس أدعى الى الفساد ، ولا اجلب للشر من المفاخرة
وأي شيء أغيظ من ان تكون عندك ترعم انه اشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفاً بتشريفك اياه »

فالجاحظ لم يتلكأ عن خدمة الدولة فى مداواة هذين الجرحين الغائرين فى جسم المملكة ، ناقش من يتنازعون فى صميم الجنس ، ويتنازعون فى صميم الامة ، وكال بالكيل الوافى لكل من يدعى هذه الدعوى من الخاصة والعامة ، خلافاً لابن قتيبة الذى ادعى أن الشعوبية الذين عادوا العرب كانوا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فاما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً

أى أن هذه العداوة كان العامة يشعرونها ويظهرونها للعرب ، والخاصة من الفرس براء منها . اما الجاحظ فاعقل من ان يغتر بالظواهر ، ويدرك ان معظم النار من مستصغر الشرر . ويقول ان « الفرس اصحاب تفتيح [illegible] ، ولا سيما فى كل شىء يتأتى فى باب العصبية »

وهو ينتهز كل فرصة [illegible] الدعوة [illegible] سميعة [illegible] ذكر الشكر منكراً فى العرب ، وانتهى به الكلام الى مدحهم فى هذا الشأن ، على أسلوب يفقد صحة كل ما يرى أنه ، أما كلامه فى هذا المعنى ، فيعطيك ساطعة الرأى فى ان الجاحظ يألم بأحط من حظوظ العباسيين ، [illegible] من ذلك الى مدح من يريد تحميل صورتهم قال

« والمذكورون من أهل الشكر هم من قريش ثم من بنى هاشم ثم [illegible] أمية ، و [illegible]

العرب بنو جعفر بن كلاب و بنو زُراره بن عُدَس خاصه ، فاما الا كاسرة من الفرس فكانوا لا يعدون الناس الا عبداً ، وأنفسهم إلا أرباباً ، وانما نخبر الا عن دهماء الناس وجمهورهم ، وكيف كانوا بن ملوك وسوقه ، والكبر في الاجناس الذليلة من الناس ارسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان بن ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك الا اهل المعرفه كعبدنا من السند وبنا من الهند ، والجملة ان كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين ادنى قدره ، ظهر من كبره على من تحت قدرته ، على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فان كان دمياً وأحس عاله في صدور الناس بزيد في ذلك ، واستظهرت[1] به طبيعته ، ما يظن ان فيه رفع ذلك الخرق ، وخاص ذلك العنق ، وسد تلك الثلمه ، فعقدّ ما اقول لك فانك ستجده فاسياً وعلى هذا الحساب بن هذه الجهه صار المملوك اسوا ملكاً من الحر وسيء فنا به علماً ، وهو انى لم ار ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ، فاما بنو مخزوم و بنو أمية وجعفر بن كلاب و بنو زرارة بن عدس فابطرهم ما وجدوا لانفسهم بن الفضيلة ، وان كان في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم ، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم » و ذكر في مكان آخر ان بني مخزوم ضرب بهم المثل ، ووضعوا في كل غاية ، فمثل ابنه بن مخزومي ، قال وكانت بنو مخزوم تسمى ريحانة قريش لحظوة نسائها عند الرجال ، وكانت الحا به تولد لاحد آل الحرث بن هشام (المخرومي) فتبنا بر النسا بها ، وترى اهلها انهم اعتبا لرغبة الخطاب فيها ولذلك قال ابن هَرمه بن قصيده

ومن لم يرد مدحي فان قصائدي نوافق عند الا كرمين سُوامي[2]

---

(١) استظهرت به استعانت (٢) السوم في المبايعة كالسوام

وسبق عبد المسيري الحمد بالذي تعلق بنات الحارث بن هشام

ونقل الثعالبي أن الجاحظ لم يترك مزيداً في وصف قريش ومدحه اياهم وتخصيصه بني هاشم ، فإنه رحمه الله الى خُتِمَه فصاحته واستفرغ بحر بلاغته في فصل له وهو قوله « العرب كالبدن ، وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الارض ، وزينة الدنيا ، وحلي العالم ، والسَّنام الأضخم ، والكاهل الاعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، ومناهل الظامئ الى الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع الاناة والحزم ، والصفح عن الجرم ، والاغضاء عن العثرة ، والعفو عند المقدرة ، وهم الانف المقدم ، والسنام الاكوم[1] ، والعز المشمخر ، والصيانة[2] والسر ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس لا تخفى بكل مكان ، وكالنجم للحيران ، والماء البارد للظمآن ، ومنهم القمران ، والطيبان ، والسبطان ، والشهيدان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وسيد الوادي ، وساقي الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والانصار انصارهم ، والمهاجر من هاجر اليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ، ولا خير الا فيهم أو لهم أو معهم أو يضاف اليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الاولين والآخرين ، وسيد المرسلين وخاتم النبيين »

مثال آخر يثبت أنه كان يغلو في مدح بني هاشم وهو قوله كتاب الطراعين

---

(١) الأكوم : المرتفع

(٢) صان وصيانة يصونها وحفظها خالص والصميم والأصل والخيار من الشيء ، وصيانة سند ، والمشمخر الجبل العالي

تقع كثيراً بمصر بوارح كطاعون عمواس ، وطاعون العذارى ، وطاعون الأشراف وغيرها ، ولما ملك بنو العباس رفع الله عنهم ببركتهم الطواعين والموتان الجارف عن بنى آدم ، فانها كانت تحصد فيهم حصداً وفى ذلك يقول العمانى للرشيد

قد أذهب الله رماح الجن وأذهب التعليق والتجنى

يريد ما كان بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالاموال ، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد قد ذهب وكلامه هذا مفوض نوناً فى التاريخ ، فان الامويين كانوا أرحم فى باب الجباية من العباسيين ، وفى رسالة الخراج التى كتبها ابو يوسف للرشيد وصف كثير لما كان يعذب به الناس فى الخراج فى دهر العباسيين ، على ما لم يعهد بعضه فى زمن الامويين

وبعد فانك لا ترى فى كل ما سلم من كتابات الجاحظ الا نابساً منه لما يرتكب من المآثم فى المجتمع ، والسلطان فى العادة والعرف هو مسؤول عنه فى الدرجة الاولى فوجهه نظره فى سياسة استصلاح اهل المجتمع لتصلح الناعون عامة بالضرورة ، ومن لطف ما ناه ان لا ينبه الاذهان الى عيوب الدولة لانه يحاذر عليها اعداءها ، ومصلحته بعصمة الدفاع عنها ولعل الجاحظ كان يعرف بعيوب الخلفاء من بنى هاشم ومن عيوب رجالهم وعمالهم مالا يعرفه كثير من كبرا الدولة فى عصره ، وقصاراه الاغضاء اضطراراً لا اختياراً ، فهو يوجه نقده الى الكثرة العامرة من الامة ، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة ولا يؤخذ من هذا ان الجاحظ صانع رجال الدولة ، ولو كان يحاول ذلك ، ولا يحس مقدار قبح هذه السعة لاعذر عنهم فى اكثر ما تم على ايديهم ، وابدى ابتاعهم فى السرور والمظالم ، والاقام لهم الاعذار ، وهو لا يعدم حجة ، ولا يقصر فى بلاغة ،

بيد انه رأى الإعصاء و اسدال السر على ما هنالك ، وانطلق يضرب فمن سالون من السلطان بما احتار لقيام أمره من أحماس عن عرسه أعصات العرب ، و ىن يكيدون من السعو ىمن اعدا العرب ، وهواه أبداً مع بني ها م ، ر ثمهم في عسه كونهم اصحاب السلطان وهو القائل « وقصه واحده ان الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع سملهم و يكفهم و يحميهم من عدوهم و يمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم » ثم إن قصوره فليل يوم يصح عزمه على ذكر خصومه لانه يعد الكذب كبيرة ، و يكره التردد في كل شيء ودا موه موه يعل ، ر اذا احب قد يترك محالاً حفظ حظ الرحمه كما يقول المعاصرين ، لا يعني عما ظهر من الاسباب ، و ان اضطره الدرعى الى اغماض الطرف عن ترددها

تهكم وسادره

قلّ في العارفين من الناس من يذوق الحياة بالمعنى الذى يذوقه الجاحظ حذّ حذاً لم يبلغه غير افراد في الآحاد ، وهزل هزلاً قوى به على معاوده الجد ، فروّح عن نفسه رغم حظٍّ به وعسره زمنا كسه ادرك ان مرارة الحياة لا تحلو [illegible] ان يلطف من سره [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

« إن الكلام قد يكون فى لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابه فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعقّدوا فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً حيراً لهم ، والباطل محضاً أرد عليهم ، ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى وضعه كالقطوب فى موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط ، فإن ذممنا المزاح ، ففيه لعمرى ما ذمٌ ، وان حمدناه ، ففيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ الى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فاما أن نذم حتى نكون كالظلم ، ونسعى حتى نكون كالعذر فلا لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً »

« والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرّق له مطرق ، لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لانه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الاخلاق الا ما سَخُف ، ومن بنائه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر سيئاً أبعد من بر ، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ، ولا أكثر خلطاً ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء »

هذا قوله فى رسالته التربيع والتدوير ، وهى الرسالة التى عبث فيها بأحمد ابن عبد الوهاب الكاتب ، وقد أبدع فيها ما شاء ابداعه ، وعاد بعد حين فقال

« وقد ذهب الناس فى المزاح الى معان متضاده ، وسلكوا منه فى طرق مختلفه ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون ان الخير والشر عليهما مقسومان ، وان الحمد والذم بينهما نصفان فاما المحامى على الهزل

والمفصّل للمزح ، فانه قال أول ما اذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة ، والمزح لا يكون الا من فضل غنى ، وأن الجدّ عصب ، والمزح جَمام ، والجدّ مَنعصة ، والمزح محبة وصاحب الجد في بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاء الى ان يخرج منه والجد مؤلم ، وربما عَرضك لأسدّ منه ، والمزح ملذ ، وربما عَرضك لألذّ منه فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وبأنه يحتمل الخير دون الشر ، وانما يتعاطى الناس ليفرحوا ، ويَحدُّوا ليهزلوا ، كما يذللوا ليعزوا ، وكذا ليسر بحزا ، وان كان المزح انما صار معيباً ، والهزل انما صار مذموماً ، لأن صاحبه لا يكون الا معرّضاً لمجاوزة القدر ، ومخاطراً بمودة الصديق ، فالجد داعية الى الإفراط ، كما ان المزاح داعية الى مجاوزة القدر ، ومجاوز الحد قاطع بين الفريقين في جميع الرعين ، فقد ساواه المزاح في هوله وبانته فيما ليس له ، وان كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فاقبح من المزح ما صَيّر المزح قبيحاً وإذا صار المزح قبيحاً ، لان الذي يكون بعده الجد ، ولم يصر الجد قبيحاً ، لان الذي بعده المزح ، كان الجد في هذا الوزن اقبح من المزح ، وكان المزح على هذا المقدار احسن من الجد ، لان ما حمل السيء قبيحاً اوح من السيء ، كما ان ما حمل السيء حسناً احسن من السيء »

« واما الذي عدل بينهما ، فانه زعم ان المزح في موضعه كالجد في موضعه ، كما أن المنع في حينه كالبذل في حينه » قال « ولكل شيء موضع ، وليس شيء يصلح في كل موضع وقد قسم الله الخيرة على الأدلة ، واجرى جميع الامور على غاية المصلحة ، وقسط اجزاء المثوبة على العزم والحصة ، وعلى الاعلان والـ ه فامر بالمداراة كما امر بالمساواة حذر لمعـ ص ، كما امر بلاقبح ، ورتّح

فى المزاح ، كما سدد فى المفروض ، وجعل المزاح جماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الاعمال ، فصار الاطلاق كالحظر ، والصبر كالسكر ، وليس للإنسان من الخيرة فى الذكر شىء الا وله فى النسيان مثله ، ولا فى الفطنة شىء الا وله فى الغفلة مثله ، ولا فى السراء شىء إلا وله فى الضراء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً ، وبالصدق صرفاً ، وبمر الحق صمحاً ، لهلك العوام ، وانتقض أمر الخواص ، ولو ذكر الانسان كل ما أنسيه لشقى ، ولو جد فى كل شىء لانكسر ، وقد تكون الذكر الى الهلكة سلماً ، كما تكون النسيان للسلامة سبباً وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم »

أبان ابو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه فى الهزل والجد ، وفى مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره فى ذلك ، وما ندرى ان كانت هذه آراءهم ام هو تصور انها آراؤهم فاوردها بهذه الصفة ، وسبكها هذا السبك اعتاد الانسان المزاح النادر والمرح ، ولكن ادخال ذلك فى هذا القالب العلمى وتدوينه بالتأليف مما لم نعرفه قبل الجاحظ عبر افراد ، ان لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته مباشرة فهو منظم شؤونها ، ومطرز نصوصها و متونها

قال ان « اهل العلم والنظر ، واصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل ، وورثة الانبياء ، واعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهى والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات ، وكتب أصحاب المراء ، وكتب اصحاب العصبية وحمية الجاهلية ، لانهم لا يحاسبون انفسهم ، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولا أئمة الادباء »

فهو إذاً يعتمد رفع الملل عن قارئه وعدم إضجاره بالدوام على الجد ، لأن « الأذن مجاجة وللنفس حمضة » كما روى ابن قتيبة وزاد هذا بأن « المزاح إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلاً ، ليس من القبيح ولا المنكر ، ولا من الكبائر ولا من الصغائر ، ورعاية الناس متفاوتة » وأما الكتاب « مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين » ومعنى الأذن مجاجة وللنفس حمضة ، أن الأذن لا تعي كل ما تسمعه ، وهي مع ذلك ذات شهوة لما تستطرفه من غرائب الحديث ونوادر الكلام هكذا شرحها الجاحظ وقال إنها كلمة للقدماء

وقال في كتابه النساء «ليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن تُحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل ، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف ، كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولا بد للكتاب [illegible] أن يكون فيه بعض ما يبسط القارئ ، وينفي النعاس عن المستمع

أدرك الجاحظ بحكمته نفسية البشر ، وما ينفعهم وما يضرهم ، وما يملهم وما يحمسهم فقال « رحم الناس السهل الطلق الوجه المتواضع ، وفراسة الرجل السوء [illegible] يكون منقبضاً عبوساً [illegible] عن [illegible] غير مرض ، وأن يكون [illegible] ، [illegible] للدعابة [illegible] كارهاً [illegible] عاماً ، [illegible] اللفظ عند [illegible] من فراسة الرجل الصالح أن [illegible] طلقاً ، ذا منطق [illegible] وكلام سهل ، بسط الحديث [illegible] ولا [illegible][1] و [illegible] كاره [illegible] المزاح ، [illegible]

(١) [illegible]

متواضعاً » « ورجال الجد غير رجال الهزل ، وقد يحسن الشيء بالشباب و يقبح مثله من الشيوخ ، ولولا التحصيل والموازنه ، والابقاء على الأدب والديانه ، لشده المحاسبه ، لما قالوا لكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال »

* * *

ر بما لم ينس ان الجاحظ كان دميم الوجه ، قبيح الا ماطيع ، يحمل القِسمات ، وكان الأخفش أحد مسامحه — والاخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما — أجلحَ أيضاً — والأجلح الذي لا يضم شفتاه على أسنانه — ولا شك أن القبح وبلغه كانا اذا اجتمعا ، والجاحظ نابي العينين ، بالغت مهما صورتان عريسان ولعل أبا عثمان لم يرض كما قالوا ان يفارق سمحه بعد ان أحد اعنده ، وآ ر ان ينفيا صديقين لبعض المشاكله في الصوره والخَلق ، ولعل الجاحظ ما يعف كثيراً عن العيب باستاده ، وهو ابن النكته الحاره لا البارده ، وعنده أن « النادره البارده جداً قد تكون اطيب من النادره الحاره جداً ، و انما الكرب الذي يجثم على القلوب ، و يأخذ بالانفاس ، النادره الفاتره التي لا هي حاره ولا هي بارده ، وكذلك الشعر الوسط والغنا الوسط ، و انما الشأن في الحاره جداً او البارده جداً » ولذا نراه كان يحكي نوادر الا وام بالفاظ العوام ، حتى لا تفقد النكته جلمتها الاولى ومؤثراتها الخاصه وقال عن نفسه انه وصف للجلفه المتوكل لتأديب احد اولاده ، فلما راى صورته استبشع بها فصرفه وقال عن نفسه انه اشترى له جاريه تركيه حسنه رجاء ان يرزق منها ولداً يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها

ومن نكاته قوله ومن البخلاء المذكورين ابو الهذَيل ، اهدى مره الى موسى بن عمران دجاجه ، وكانت دون ما يُعتد لموسى ، الا انه لكرمه وحسن

حلقه ، اظهر العجب من سمنها وطيب لحمها ، فقال له كيف رأيت يا ابا عمران تلك الدجاجة ؟ قال كانت عجباً من العجائب ، قال او تدرى ما جنسها ، وتدرى ما سنها ؟ فإن الدجاجة انما تطيب بالسن والجنس ، وتدرى بأى شيء كنا نسمنها ، وفى اى مكان كنا نعلفها ؟ ولا يزال فى هذا ، و يونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه ابو الهذيل ، وصار بعد ذلك ان ذكروا دجاجة قال اين كانت يا ابا عمران من تلك الدجاجة ، و ان ذكروا بطة او عناقاً او جزوراً او بقرة قال فأين كانت هذه الجزور فى الجزر من تلك الدجاجة فى الدجاج ، و ان استسمنوا شيئاً من الطير أو البهائم او الدجاج قال لا والله ، ولا تلك الدجاجة ، وإن ذكروا عذوبة الشحم قال عذوبة الشحم تُصاب فى البقر والبط وبطون السمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج ، و ان ذكروا ميلاد شيء او قدوم انسان قال كان ذلك قبل ان أهدى الىك تلك الدجاجة بشهر ، وكان بعد ان اهديتها لك بسنة ، وما كان بين فلان وبين البعث بتلك الدجاجة الا يوم ، وكانت مثلاً فى كل شيء ، وتاريخاً لكل شيء » ويونس بن عمران من ارباب الثروات فى البصرة كان ، وهو الذى رشح للجاحظ بذيا بر اساع ـا ما يصاب به ، واحرج ابا عيان من ـهكم امه به ـ بدما ره ، لا رل امره ، على ما مر بنا فى الفصل الذى عقدناه لوصف بيانه وتهكمه ـ علينا ان نتامل فى هذه القصة قوله « ـ يونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ـ لا يعرفه ابو الهذيل »

فالجاحظ كما رأيت يسلى نفسه بهذه المداعبات ، و ينسى ابتسام العظمة ـ اذا تبرم بأبناء الزمان عدد مساوى الدهر فقال حاداً « نصف ابن حرمه ازمان ، ـ فساد الانام ، ـ ـوله الابدال »

« وقدماً كان من قدم الحيـاء على نفسه ، وحكم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، وسد المستهان عليه من سوونه ، عمت له السلامه ، وفاز بوفور حظ العافيه ، وحمد مغبه مكروه العاقبه ، فنظرنا اد حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان ، والصدق آفه على المـال ، والقصد فى الطلب بترك استعمال القحه ، و اخلاق العرض من طريق التوكل ، دليلاً على سخافه الراى » وبعد أن قال فمن وجد فيه الفسوله الواضحه ، والمثالب الفاضحه ، انه ان زل قيل حَكَمَ ، وان اخطا قيل أصاب ، وان هذى فى كلا مه وهو يقظان ، قيل رؤيا صادقه من نسمه مباركه قال فهذا دليل ان الطلاح أجدى من الصلاح ، وان الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائره عليه ، كما كانت الدائره على ضده ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يَحظى به خدينه ، ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعربا عن الانام حيث يقول

تحامق مع الحمقى اذا ما لقيتهم ولاقهم بالجهل فعلَ اخى الجهل
وخلط اذا لاقيت يوماً مخلطاً يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فانى رايت المرء يشقى بعقـله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال « فوالله ما عُذِّبت امة برجفه ولا ريح ولا سخطه ، عذاب عينى برؤيته المعانطه المدمنه ، والاحجار المهلكه ، كأن الزمان يوكل بعذابى ، فما عاش ن لا يسر باح سمعى ، ولا يصطبح فى اول نهاره الا برؤيته ن كرهه و ه ه »

وهذه هى الناحيه العابسه من نفس الجاحظ المرحه ، رأ ه ه ا يذكر ما يحط به من المكدرات والمنغصات حتى لنسى طبه بالصلاح ، و يفضل عا ه الطلاح ، شان المتشائمين والسوداويين وبعض عُمِّرت كثيراً ، واختلفت عليها الاحوال

قصاً و سطاً ، وحمصاً ورهماً ؛ ومثل نفس الجاحظ لا تكون على حاله واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر رأى من الخلفا اشكالاً ، ومن الامراء والوزراء والعلماء طبقات بعد طبقات ، ومن أبناء المجتمع من لا يحصيهم غير خالقهم ، ومن ضروب الاخلاق ما لا يتسع لذكره الأوراق ، وليس من شأن الدهر ان يثبت على حالة واحده حتى يفسح للجاحظ ان يعيش قرناً على وتيرة واحده ، وهو القائل لما مسخ الانسان قرداً ازيل فيه تشابه من الانسان ، ولما مسخ زمانا لم يزل فيه مشابه من الازمان وأنشد

وكان لنا اصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خلدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنو ن فمات الصديق ومات العدو

بعد غلبت الدعابة على الجاحظ ومحلت جمه رزحه وتهكمه حتى فى بعض ما يكتب من امر الجد ، وقد تفهم تهكمه من اسلوب الادا فى عبارته التى فى قول الجاحظ لما تكلم على الخنزير فقال « لو ان التكبر والافلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير ، وكان ذلك بعض الاسباب التى مسخ بها الانسان خنزيراً ، فان القرد سمج الوجه قبيح فى كل شئ ، وكفاك به جرى المثل المضروب به ، ولكنه من وجه آخر امتح ، فملاحة يعرض على قبحه وجه يستملح منه ، والخنزير اقبح منه لا ان وجه جسمه فيه فسر أسمح منه كثيراً » الست فى قوله هذا ... ان ... تسعب من ... الهزل فى الجد ؟

قال فى وصف الانسان ... حده ... ط بع الح ... « ... علمت ان الانسان الذى خلق له ما فى السموات والارض ... كما قال ... سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعاً ... ...

الـكبير حين وجدوا فيه من جميع اشكال ما فى العالم الـكبير ، « ووجدوا له الحواس الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما تقتاته السبع والبهيمة ، ووجدوا له صولة الجمل ، ووثوب الاسد ، وغدر الذئب ، وروغان الثعلب ، وجبن الصِّفْرِدِ وجمع الذَّرة ، وصنعة الزَّرافة ، وجود الديك ، وإلف الكلب ، واهتداء الحمام ، وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلقين او ثلاثاً ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصولته وحقده ، وصبره على حمل الثقل ولا تلزمه تسمية الذئب بقدر ما بينهما فيه بل مكره وغدره واستثرواحه ، وتوحشه وشدة قلبه ، كما أن الرجل يصيب الرأى الغامض ، المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ بذلك المقدار ان يقال له داهية وذو مكر وصاحب خدعة ، كما يخطئ الرجل فيفحش خطؤه فى المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ الامر به ان يقال له غبى وابله و موص » وعلى ما فى هذا الـكلام من عجب يمسى لا يخلبه من معانى التهكم والهزل ، وعنده « ان الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد »

ومن نوادره انه سُمع يقول رأيت جارية فى سوق النخاسين ببغداد ينادى عليها ، فدنوت منها وجعلت اقلبها ، فقلت لها ما اسمك ؟ قالت مكة قلت الله اكبر قد قرب الحج ، اتأذنين ان اقبل الحجر الاسود قالت اليك عنى ، الم تسمع الله يقول لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ؟

ومنها سمع أبو بكر محمد بن اسحق يقول قال لى ابراهيم بن محمود ونحن ببغداد ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت مالى وله قال اذا انصرفت الى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه ثم لم

نزل بي حتى دخلت عليه يوماً ، فقدم الينا طبقاً عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومر فيه ابراهيم ، فاستربت الله أن يمسك ، فرمقني الجاحظ ، فقال لي دعه يا فتى ، فقد كان عندي في هذه الايام بعض إخواني ، فقدمت اليه الرطب فامتنع ، فحلفت عليه فأبى إلا ان بر قسمي بثلاثمائة رطبة

وحدث الجاحظ قال وقفت انا وابو حرب على قاص ، فاردت الولع به فقلت لمن حوله انه رجل صالح ، لا يحب الشهرة فتفرقوا عنه ، فتفرقوا ، فقال لي حسبك الله ! اذا لم ير الصياد طيراً كيف يمد شبكته ؟

روي أن رجلاً من اهل السواد تشيع ، وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له بلغني أنك تبغض علياً ، والله لئن فعلت ليردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك فقال والحوض في يده يوم القيامة ؟ فقال نعم فقال وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالعطش ! فقيل له أتقول هذا مع تشيعك وديِنك ؟ فقال والله لا تركت النادرة ، ولو قذفتني في الدنيا ، وادخلتني النار في الآخرة

ومنها حكى بعض ابناء البرامكة قال تقلدت السند وحصل لي ما شاء الله ثم صُرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين الف دينار فيه منها عشرة آلاف اهليلجة[1] ، فجاء الصارف وركبت البحر وانحدرت الى البصرة فخبرت ان الجاحظ بها ، وانه عليل بالفالج ، واحببت ان اراه قبل وفاته فصرت اليه ونزعت الباب فخرجت الى خادمه صفري فقالت من رجل غريب احب ان ينظر الى الشيخ فبلغته ، فسمعته يقول قولي له ما تصنع بشق مائل

---

(١) الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء ، ثمر منه اصفر ومنه اسود ومنه النالج نضيج ومنه كابلي ينفع في الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع (القاموس)

ولعاب سائل ، ولون حائل فقلت للجارية لابد من النظر اليه فقال هذا رجل ورد البصرة ، وسمع بي و يريد ان يقول رأيت الجاحظ ، فاذن لي فدخلت وسلمت ، فرد رداً جميلاً وقال من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء ، فلقد كانت أيامهم رياض الازمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً ، فسقياً لهم ورعياً فدعوت له وقلت له انشدني شيئاً ، فقال

لئن قُدمت قبلي رجال فطالما مشيت على رسلي فكنت المقدَّما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه فتُبرمُ منقوضاً وتنقض مبرماً

ثم نهضت ، فلما قربت من الباب قال يا فتى ، أرأيت مفلوجاً ينفعه الاهليلج ؟ قلت لا قال الإهليلج الذي معك ينفعني ، فانفذ اليَّ منه فقلت نعم ، وخرجت من وقوعه على خبري مع كتمي له ، وبعثت له منه شيئاً

قال الحصري بعد ايراد هذه القصة وهذا يدل على كثرة تجربته وتنقيره ، اذ كان وهو في هذه السن العالية ، والفالج الشديد ، يبحث عن الاخبار ، ولا تطوى عنه الاسرار ، فكيف كان قبل هذا ؟ ومن احدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال

قال ابو عثمان ما أخجلني احد مثل امرأتين رأيت احداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فاردت ان امازحها ، فقلت انزلي كلي معنا ، فقالت اصعد انت حتى ترى الدنيا وأما الاخرى فانها اتتني وانا على باب داري فقالت لي اليك حاجة واريد ان تمشي معي ، فقمت معها الى أن أتت بي الى صائغ يهودي فقالت له مثل هذا ، وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال انها اتت اليَّ بفص وأمرتني أن انقش لها عليه صورة شيطان ،

فقلت يا ستي ما رأيت الشيطان ، فاين بك وقالت ما سمعت

لما جيء به مقيداً من البصره الى بغداد عقيب مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، أمر احمد بن ابى دواد أن يفك قيده ، فجيء بالحداد ، فقال الجاحظ لتفكوا عنى أو لتزيدوني ؟ فقيل له بل ليفك عنك ، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن يعنف بساق الجاحظ ، و يطيل امره قليلاً ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال له اعمل عمل سنه فى يوم ، وعمل يوم فى ساعه ، وعمل ساعه فى لحظه ، فان الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجه فضحك ابن ابى دواد وأهل المجلس منه

صنف كتاباً من كتبه و بوّبه وبثه فى الناس ، فاخذه بعض اهل عصره فحذف منه أشياء جعله أشلاء ، فاحضره وقال له يا هذا إن المصنف كالمصور ، وانى قد صورت فى تصنيفى صوره كانت لها عينان فعورتهما ، اعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله اذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك حتى عد اعضاء الصورة

وساله شخص كتاباً الى بعض اصحابه بالوصيه فكتب له رقعه وختمها ، فلما خرج الرجل من عنده فضها فاذا فيها « كتابى اليك مع من لا اعرف ولا ارجب حقه ، فان قضيت حقه لم أحمدك ، و ان رددته لم أذمك » ورجع اليه الرجل ، فقال الجاحظ كأنك فضضت الورقه ؟ قال نعم قال لا ضيرك ما فيها فانه علامه لى اذا أردت العنايه بشخص ، فقال الرجل قطع الله يديك ورجليك ولعنك فقال ما هـذا ؟ قال علامه لى اذا اردت ان اشكر شخصاً

وحكى ابو طاهر قال صرت الى الجاحظ فى حرفه وقد أسن

واعتلّ في آخر عمره وهو في منطرة له وعنده ابن خاقان جاره فرغبا الناس فلم يصح لنا ، وانصرف من المنطرة فقال الا انى قد حوقلت وحمات ر مح أبي سعد وسمت العم[1] ، فما تصنعون بي ؟ سلموا سلام الوداع فسلما وانصرفا

دخل احدهم على الجاحظ فسأله عن حاله ، فقال له الجاحظ سالتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً حالى ان الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ امرى ، ويواتر الخليفة الصلات الىّ ، وآكل من لحم الطير اسمنها ، والبس من الثياب ألينها ، واجلس على اللين الطرى ، واتكي على هذا الريش ، ثم اصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج فقال له الرجل الفرج ما انت فيه ، قال بل احب ان تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بامرى ، ويختلف الىّ ، فهذا هو الفرج

وقال ان مهما لك في الشاعر أن تبرّه وترضيه والا فاقتله

حكى الجاحظ انه الف كتابا في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب ، قال دخلت يوما مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد على احسن رد ، ورحب بي فجلست عنده ، وباحثته في القرآن فاذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول واشعار العرب ، فاذا هو كامل الآداب ، فقلت هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب قال فكنت أختلف اليه وازوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فاذا بالكتاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه فقيل مات له ميت ، فحزن

---

(١) قوله حوقلت اى كبرت من قولى لا حول ولا قوة إلا بالله لتتابع الأمراض ، وقوله رمح ابى سعد هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من فعل ذلك فقيل لكل من ساخ احد رمح أبى سعد ، وقوله سمت العم هو عند العرب كناية عن الهرم ، لأن سائق الغنم يطأطئ رأسه

عليه وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت الى بيته وطرقت الباب ، فخرجت الىّ جارية وقالت ما تريد ؟ قلت سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت باسم الله ، فدخلت اليه و اذا به جالس فقلت عظم الله أجرك لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له هذا الذى توفى ولدك ؟ قال لا ، قلت فوالدك ؟ قال لا قلت فاخوك ؟ قال لا قلت فزوجتك ؟ قال لا فقلت وما هو منك ؟ قال حبيبى فقلت فى نفسى هذه اول المناحس فقلت سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها فقال اتظن انى رأيتها ؟ قلت وهذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال اعلم انى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا انظر من الطاق اذ رأيت رجلا عليه بُرد وهو يقول

ياأُمّ عمرو جزاك الله مكرمة ردى علىّ فؤادى اينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به وكيف تلعب بالانسان انسانا

فقلت فى نفسى لولا ان أُم عمرو هذه ما فى الدنيا احسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول

اذا ذهب الحمار بام عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت بانها ماتت فحزنت عليها ، واغلقت المكتب وجلست فى الدار فقلت يا هذا انى كنت الفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمى على ابقائه ، واول ما ابدأ ابدأ بك ان شاء الله تعالى

وكان الخبز ارزى الشاعر مغرماً بحب الغلمان وكان له مع احد خطط ملاحاة بحضره قد كتب فيه قداحا حسن وكان الخحط يعصب احيانا

مأبى هِفّان الساعر وعيرهما من السعراء والـكتاب والمولفس والقصاصس وكل دلك من عير سدل و إسعاف

ومعانى الحاحط فى هدا الباب مدكوره فى كلام له ، قال ولم ىر العيون ، ولا سمعت الآدان ، ولا توهمت العقول عملاً احساه دو عقل ، او احاره دو علم ، مأو نا ولا اقسد لعرص ، ولا اوحب لسحط الله ، ولا ادعى الى مقت الناس ، ولا أىعد من الفلاح ، ولا اطهر ىعوراً عن الدو ىه ، ولا اقل ادراكا عىد الحقيقه ، ولا اىقص للطىيعه ، ولا امىع من العلم ، ولا اسد حلافاً على الحلم ، من الكبر فى عير موصعه ، والىدىل فى عير كىهه وما طىك سىء العحب سقيمه ، والىدح صدىقه ، والسعح أليفه ، والصلف قصده والىداح متزيد ، والىفاح كداب ، والمىكىر طالم ، والمعحب صعير النفس ، و ادا احىمعت هده الحلال ، واسطمت هده الخصال فى قلب طال حرانه ، واسىعلق نانه ، وسر العيوب ما كان مصمماً ىعيوب ، وسر الدنوب ما كان علىه الدنوب

نمارج مىه رقاعه وكلماته

(١) كىب الى اس أبى دواد بسـ طىفه « لىس عىدى ، أعرك الله ، سىب ، ولا اقدر على سفيع ، إلا ما طمعكَ الله عليه من الـكرم والرحمه والىامل الدى لا ىكون الا من ساح حسن الطن ، و ا اب الفضل محال الىا ول ، وأرحو أن أكون من العىفاء الساكرين فىكون حىر معىب ، وا كون افضل ساكر ، ولعل الله ان ىحعل هدا الامر سىداً لهدا الإىعام ، وهدا الإىعام سىىلاً للانقطاع الىكم ، والـكون ىحت احىحىكم ، فىكون لا اعطم ىركه ، ولا أىمى ىمه ، ن ىب اصىحب فىه ، و ىمثلك ، حعلىت فداك ، عاد الدىب وسمله ، والسيئه حسىه ،

ومثلك من انقلب به السر حيراً والعُرم عُماً ، و ن عاقب أحد حطه ، و اما الاحر فى الآحره ، وطيب الدكر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال ، ومحرع المرار[1] ، وارحو ألا أُصيعَ واهلِكَ فيما بين عملك وكرمك ، وما اكبر من يعفو عن صغير دنبه ، رعظم حمه ، و اما الفضل والثنا ، العفو عن عظيم الجرم ، صعب الحرمه ، و ان كان العفو العظيم مستَطرَفاً من عيركم ، فهو تلاد فيكم ، حتى رعا دعا دلك كثيراً من الناس الى مخالفه امركم ، فلا انتم عن دلك تنكلون ، ولا على سالف إحسانكم تندمون ، وما مثلكم الا كمثل عيسى بن مريم ، حين كان لا يمر على من بنى اسرا ئيل الا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا ما رايت كاليوم كلما اسمعوكَ شراً أسمعتهم خيراً ، فقال كل امرئ ينفق مما عنده ، وليس عندكم الا الخير ، ولا فى اوعيتكم الا الرحمه ، وكل اناء بالذى فيه ينضح

(٢) وكتب الى محمد بن عبد الملك «اعادك الله من سوء الغضب ، وعصمكَ من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوه الى حب الانصاف ، ورجح فى قلبكَ ايثار الاناه ، فقد خفت ، أيدكَ الله ، ن ا كون عندكَ من المنسو بين الى نزق السفهاء ، ومجانبه سبل الحكما ، و بعد فقد قال عبد الرحمن ان حسان بن ثابت

ر ان امرا ً سى ر صبح سد اا ب الناس الا ما جنى لسفه

وقال الآحر

ومن دعا الناس الى دمه دمه ه الحق و طـــل

وان كنت احبرت علىكَ صلحكَ الله فما احدى لالان در ام ماو ث عن سد ه بالاهال لدى نورت الاعمال العف ' ع ب ن لك ه وبذاك

---

(١) ـ ر سى ـ '

قال عيينه بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله عُمَرُ كان خيرًا لى منكَ ، رهبنى فاتقانى ، واعطانى فأغنانى فان كنت لا تهب عقابى ، أبدك الله ، لخدمة فيه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد الى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الاحدوثه ، والا فأت ما انت اهله من العفو دون ما أنا اهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجاوز عن عقاب المصر ، حتى اذا صرت الى ذنب عقوبته ذكرى ، ونسيه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر الا لك ، والإنعام الا منك ، هممت عليه بالعقوبة واعلم أبدكَ الله ، ان سن عصبك على كربن صفحك عنى ، وان موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة علم ، وغفلة كريم والسلام »

(٣) وكتب إلى أبى حاتم السجستانى وبلغه عنه انه نال منه « اما بعد فلو كففت عنا من غربك ، لكنا أهلاً لذلك منك » فلم يعد ابو حاتم الى ذكره بقبيح

(٤) وله فصل فى استنجاز وعد « اما بعد فقد رسخنا فى قعود سواء بذلك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ، فأطلقنا ، ابقاك الله ، من ضيقها ، وشديد غمها ، بنَعَم منك مثمره او برحة ، اما بعد فان شجر مواعيدكَ قد اورقت ، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المطل ، اما بعد ، فان سحاب وعدك قد برقت ، فليكن وبلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال »

(٥) وله فصل فى عتاب « اما بعد فان المكافاة بالاحسان فريضه ، والتفضل على ذوى الاحسان نافلة ، أما بعد فلها (؟) السكوت على لسانك ، ان كانت العافيه من شانك ، اما بعد فلا تزهد فيما رغب اليك ، فيكون لحظك معانداً ،

والنعمة جاحداً ، اما بعد فان العقل والهوى ضدان ، فمن العقل التوفيق ، ومن الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فأيهما ظفرت كنت فى حزبه ، أما بعد فان الاشخاص كالأشجار ، والحركات كالاغصان ، والالفاظ كالثمار ، أما بعد فان القلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما فى الوعاء ينفد ، اذا لم تمده المعدن ، أما بعد فكفى بالتجارب تأديباً ، وبتقلب الايام عظة ، وباخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكرك الموت زاجراً ، أما بعد فان احتمال الصبر على لذع المصيبة ، أهون من اطفائه بالشتم والقذع ، اما بعد فإن أهل النظر فى العواقب ، أولو الاستعداد للنوائب ، وما عظمت نعمة امرئ الا استغرقت الدنيا همه ، ومن فرغ لطلب الآخرة سعيه ، حمل الايام ظهرا عمله ، والآخرة معقل مرتحله ، اما بعد فان الاهتمام بالدنيا غير زائد فى الرزق والاجل ، والاستغناء غير ناقص للمقادير ، اما بعد فانه ليس كل من علم أمسك ، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران ، أما بعد فان احسب ان تتم لك النعمة[1] فى قلوب اخوانك فاستقلّ كثيراً مما تولهم ، أما بعد فان أنظر الناس فى العاقبة من لطف حين كف حرب عدوه بالصفح ، لا تجاوز ، راسلّ حقده بالرفق والتحبب »

(٦) وكتب الى ابن الزيات « نحن ، اعزك الله ، سحرنا ناس ، وخوف بالقول ، والناس ينظرون الى الحال ، ويسوون بالعتاب ، فان فى امرنا ... سطى اذا سكتنا ، فان المدعى يغير بينة معرض للتكذيب »

(٧) وله فى رضاه « اما بعد فان احق من اسعفته فى حاجته ، واجبته الى طلبته ، من توسل اليك بالامل ، ونزع نحوك بالرجاء ، اما بعد فما اقبح الاحدوثة ، من مستمنح حرمته وطالب حاجة رددته ، ومن حججته ،

(١) نعه خب

ومبسط اليك فصبه ، ومعمل إلىك بعبابه لو ب عنه ، فتثبت فى دلك ولا تطع كل حَلاف[1] مهين همار مساء[2] نمم ، أما بعد فان فلاناً اسبابه متصله ا لم بنا دمامه ، و بلوغ موافقه من اياديك عندنا ، واب لنا موضع اسعه ن مكافاته ، فأر لنا فيه ما بعرف موقعا من حسن رأيك ، وىكون مكافاه لجمه عا بنا ، اما ، د فقد اتانا كتاب فى فلان ، وله لدينا ن الذ ام ما يلزمنا مكافاته ، ورعايه حقه ، ونحن من المعنه باسره ، على ما كان فى حرمته ، و نؤدى شكره »

(٨) وله فى الاعتذار اما بعد فنعم البديل من الزله الاعتذار ، وبئس العوض من التوبه الاصرار ، اما بعد فان احق ما عطف عليه بحلمك ، من لم يتسع البك بعذرك ، اما بعد فانه لا عوض ن اخائك ، ولا خلف ن حسن رايك ، وقد انتقمت منى فى زلتى بجفائك ، فاطلق اسير تشوقى الى لقائك ، أما بعد فانى بمعرفتى بلوغ حلمك ، وغايه عفوك ، ضمنت ا منى العفو ن زلتها عندك ، اما بعد فان من جحد احسانك بسوء مقابلته فيك ، مكذب نفسه بما ، بدو للناس منه ، اما بعد فقد مسنى من الالم ما لم يسعه غير مواصلتك ، مع حسبك الاعتذار من هفوتك ، ولكن دينك بغيره مودتك ، فامنن علينا بصلتك ، تكن بدلاً من مساءتك ، وعوضاً ن هفوتك ، أما بعد فلا خير فيمن استعرف موحدته عليك فدركَ عنده ، ولم يتسع لهبات الاحوان ، اما بعد فان اولى الناس عندى بالصفح من اسلمه الى ملكك التماس رضاك ، ن غير قدره لك عليه ، اما ، د فان كنت دممتنى على الاساءه فلم رصت ا مسك المكافاه اه

ونكرر « اما بعد » والعاده دكرها مره فى اول الخطبه ، و اما « ، د

(١) المهين الضعيف الحقير

(٢) الهمار والهمز الذى يخلف الناس ن ورائهم وياكل لحومهم اى الذى يهمز أخاه فى قفا ومن خلفه ، والمشا الذى يمشى بين الناس بالنميمه

دعائي لك » من أجمل مكرراته ؛ وكأن الجاحظ بخروجه على مألوف الكتاب في
مثل هذا التكرار سدع أسلوباً أو أن ذلك من جملة مبتدعاته في الكتابة

(٩) وله في التعازي اما بعد فإن الماضي قبلك الباقي لك ، والباقي بعدك المأجور فيك ، وانما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب اما بعد فان في الله العزاء عن كل هالك والخلف من كل مصاب ، وأنه من لم يعز بعزاء الله يقطع نفسه عن الدنيا حسرة اما بعد فان الصبر يعقبه الاجر ، والجزع يعقبه الهلع ، فتمسك بحظك من الصبر ، تنل به الذي تطلب ، وتدرك به الذي تأمل ، أما بعد فقد كفى بكتاب الله واعظاً ، ولذوي الالباب زاجراً ، فعليك بالتلاوة تنج مما أعد الله اهل المعصية

(١) ومن كلامه وبلك الله بالنعمى ، وكفاك ما اهمك من الآخرة والاولى من عاقب امثل الله على الصغيرة عفو به الكبيرة ، وعلى الهفوة عفو به الاصرار ، فقد تناهى في الظلم ومن لم يعرف بين الاسافل والاعالي ، والاداني والاقاصي ، فقد قصر والله لقد كنت اكره سرف الرضا ، مخافة ان يودي الى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف السخط ، وعليه العصب ، ن طاس ع ل خاس ، ومعه من الحر و بعذر فسطه من التباب المرة الحمرا ، راس ر ح كا اب حسم ، وكذلك حسبك بوعك ، الا ان السر في الروب امرح رصده في العلائط الحده اكل ولذلك اسد حرعى ع لك ن سامه اه ط وعلمه ، فاذا اردت ان تعرف مقدار الذنب اليك من مقدار عقابك عليه ، فانظر في علته ، في سبب اخراجه الى مدته الذي منه بح وعسه لذى مه درح ، الى جهة صاحبه في التسرع والتسب الى حلمه عند اعمر ص ، وفطنه عند اا به ، وكل ذلك ذ ب كان سه ص و صدر ن جهة اع ص

فى المقادير ، أو من طريق الأنفة ، وغلبة طباع الحمية من جهة الحموة ، أو من جهة استخفافه فيما زين له عمله أنه مقصر به فى حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مسلماً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جارياً فيه غير ممتنع منه ، فاذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حازم ، ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لا أسميه بكف العقاب حكيماً ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وترك ، وبى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له الا النقص المحض ، والنقار الغالب ، فلو لم يرض لصاحبه بعقاب دون قمع حجتهم لعذرك كثير من العقلاء ، وصوّب رأيك عالم الأشراف ، إلا أناة أقرب من الحمد ، وأبعد من الذم ، وأنأى من خوف العجلة ، وقد قال الأول عليك بالأناة ، فإنك على ايقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته ولبس بصارع الغضب أيام سلطانه شىء الا صرعه ، ولا يشاركه قبل انتهائه الا قهره ، وانما يحتال له قبل هيجه ، فمتى تمكن واستفحل ، واذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو استطبته بالتوراة ، وأوجرته بالانجيل ، ولددته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن افراغاً ، وأتيته بآدم شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته وأى شكل عصب العقد ، الا ذكره عصب الرب فلا تقف ، حفظك الله ، بعد صلتك فى عتابى التماساً للعفو عنى ، ولا تقصر عن افراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم ان للكرم أعداء ، وعسك امساك من لا يبرئ نفسه من الهوى ، ولا يرى الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك ان تزل ، ولعملك ان تهفو فقد زل آدم (ص) وقد خلقه بيده ولست أسألك الا ريثما تسكن نفسك ، وتريد البك ذهنك ،

وبرى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة والله يعلم وكفى به عليماً

لقد أردت أن أقيك بنفسي في مكاسابي ، وكنت عند نفسي في عداد الوفي وفي حجر الملكي ، فرأيت من الخيانة لك ، ومن اللؤم في معاملتك ، أن أقيك بنفس مثله ، وأن أريك انى قد جعلتك أنفس ذخر والذخر معدوم

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف مودة الاخ التالد و ان أخلق خير من مودة الاخ الطارف ، و ان ظهرت مساعفه ورافت حديثه سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومعك

(١١) ومما كتب الى ابن الزيات من كتاب لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو انفذ من شماتة الاعداء ، ولا اعلم باباً اجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه ، والمبتلى ما دام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك ، وإن تطاولت به الايام فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم اقصر في المعرفة بفضلك ، وفي حسن النية بيني و بينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الامل على تقصير قد احتمله ، وتفريط قد اغتفرته ، ولعل ذلك ان يكون من دون الادلال وجرائم الاعمال ، ومهما كان من ذلك فان اجمع بين الاساءة والانكار ، و ان كنت كما تصف من التقصير ، وكما تعرف من التفريط ، فاني من شاكرى اهل هذا الزمان ، وحسن الحال متوسط المذهب ، وانا أحمد الله على ان كانت مرتبتك من المنعمين ، فوق مرتبتي في الشاكرين وقد كانت على نعمة اذاقتني طعم العز ، وعودتني روح الكفاية

ومن كلماته ما قاله في كتاب الادب اعلم ان ثمر المال آلة المكارم ، وعون على الدين ، ومتألف للاخوان ، وان من فقد المال قلت الرغبة اليه

والرهبة منه ، ومن لم تكن بموضع رغبة أو رهبة استهان الناس به ، فاجهد جهدك كله فى أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة فى دين أو دنيا

ومما قال للسدرى مرة اذا كانت المراة عاقلة طريفة كاملة كانت قحبة فقال السدرى وكيف ؟ قال لانها تاخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت فقال له السدرى فكيف عقل العجوز ؟ قال هى أحمق الناس واقلهم عقلاً

ومن كلامه يجب للرجل ان يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القِحّة ، قوالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العى ، حليماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافذاً لا يبلغ الطيش

ومن كلامه فى الطيب فاما الطيب فانى لم اشمم رائحة قط احيا للنفس ، ولا أعصم للروح ، ولا اقوى ولا اعبق ، ولا اطيب خمرة من ريح عروس ، اذا احكمت تلك الاخلاط ، وكان عرف راسها وبدنها سليماً ، وان كانت مدنسة الرسول ، فانك ستجد ريحاً تعلم انه ليس فوقها الا ريح الجنة

وقال فى نفسه الاغنيا وبعد فلا يخلو صاحب الثروة ، والصامت الكثير ، الخامل الذكر ، من ان يكون ممن يرغب فى المركب الفاره ، والثوب اللين ، والجارية الحسنة ، والدار الجيدة ، والمطعم الطيب ، أو يكون ممن لا يرغب فى شىء من ذلك ، فان كان لا يرغب فى هذا النوع كله ، ولا يعمل فى ماله للدار الآخرة ، ولا يعجب بالأحدوثة الحسنة ، ويكون ممن لا يعدو لذته ان يكون كثير الصامت ، فان هذا حمار ، وأفسد طبعاً من الحمار ، واجهل من الحمار ، وقد رضى ان يكون فى حاله اسوا حالاً من الوكيل

وقال ان الذى تشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التى تضاف الى ابن الكلبى والشرقى بن القطامى وابن أبى اليقظان وابى عبيدة النحوى ، بل الى دغفل بن حنظلة وابن لسان الحُمَّرة ، بل الى صُحار العبدى و الى ابى الطماح اللحمى ، بل الى المحار العدوى وصبح الطائى ، بل الى مسحور بن عيلان الضبى و الى سطيح الذئبى ، بل إلى ابن شرية الجُرهُمى و الى زيد بن الكيس النمرى ، و الى كل نسابه راويه وكل متفنن علامه ووصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام فقال والله لهو انسب من سعيد بن المسيّب وقتاده بن دِعامه للناس ، بل هو انسب من ابى بكر الصديق رضى الله عنه

وقال فى نفسه المجمع المصرانى فى عهده ووقع بين فتى من الانصارى و بين ابن قهزر كلام ، فقال له الفتى ما ينبغى ان تكون فى الارض رجل واحد اجهل منك وكان ابن قهزر فى نفسه اكبر الناس علماً واداباً ، وكان حريصاً على الخلافه ، فقال للفتى وكيف حلت عندك هذا المحل ؟ قال لانك تعلم انا لا نجد الخليفه الا مديد القامه ، وانت قصير القامه ، ولا نجده الا جهير الصوت جيد الحلق ، وانت دقيق الصوت ردىء الحلق ، ولا نجده الا وافر اللحيه عظيمها ، وانت خفيف اللحيه صغيرها ، وانت لى انا لا نختار للخلافه الا رجلاً زاهداً فى الرياسه وانت أشد الناس عليها كلباً واظهرهم لها طلباً فكيف لا تكون اجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الخلافه وانت قد سعيت فى طلبها بالمال واسهرت فيه املك

قال وانت اربعه أشياء لم ار مثلهن وانت لا تسأل فى حجة وناجد مواعيد من فيه الى ان يخرجوا ، وانت علماً ما اصبت احدين واحد العين ، وانت حجاماً يحجم بنسيئة الى ارجعه وانت حجين يجلون ح ره

هكذا أعيوا وصموا عن رءوسهم الى ان يلموا سعير الفقر

وقال نسمه موجودة فى نسعه الجمه فى الصم ، والهوَح فى الطوال والعجب فى القصار ، والسل فى الربعه ، والملاحه فى الحول ، والدكاء فى الخرس والحفظ فى العميان ، والثقل فى العور ، والنساط فى العرج

ومن كلامه اجمع الناس على أربع انه لىس فى الدنيا اثقل من اعمى ولا ابعض من أعور ، ولا أخف روحاً من أحول ، ولا أقود من أحدب

خلوده ومجده

و يسأل القارئ بعد أن رأى صوره الجاحظ فى كثير ن ظاهره ، ولمس مداه موضع العجب من سوعه وافتنانه فى علمه وادبه ، وهل كان له ن بعدُ حظ من الخلود ؟ و الى اى مدى بلغت تاثيرانه فى دىار الاسلام ؟ ولا بدَ قبل بحث خلوده أن نعرف معنى الخلود ، ثم ننظر اذا استحق الجاحظ هذه الصفه

يقول امبرسون الفيلسوف الامىركى « ان الكتاب الصالح كالمجتمع الصالح و انك اذا أدخلت رجلاً مسحطًا فى حلقه جماعه راقين لا يرفعه لانه لىس منهم ، ولن يصبح مساوياً لهم ، هكذا حال كل مجتمع يحمى نفسه ، واهله وا ثقون ان هذا الدخيل فيهم ، والواغل عليهم ، و ان كارهم بحسمه ، فلن يشركهم فكا نهم

« نعاس تاثير الكلام فى الجماعات بما انطوى عليه من دقه فى الفكر و ان كان بنه دهشك و يرهف حسك ، و يسمو بك بصوت فصاحته العالى ، اكان له فى افكار الناس أعظم الاثر ، وليس تاثيره بالسريع ، الا انه سـ يدوم ثابت وأنت اذا لم نستفد سيئاً من صفحات هذا الكتاب ، بل انه سـ ىمى كما يمى الذباب من ساعته الكاتب هو الذى لا يعتمد بذوق العصر فقط ، و انما على

ما على ورائده الإخلاص والحجة التى لا تعمل فى نفسى عملاً علماً قد لا تفعل فيك أيضاً »

يقول سعدى « أنظر فى قلبك واكتب — ومن يكتب لنفسه يكتب للجمهور سوى فعليك إن اشتاب سيئاً ان ترضى هواك اولاً ، وليعلم الكاتب الذى اهتدى إلى موضوعه سيئه وأدبيه ، لا بعلمه وبفسه ، أنه ما استفاد ولا أفاد ثم إن الكتاب لا يُحكم عليه بما يقدّر له من الرواج ، ولو اجمع بعض الناس على استحسانه ، فهو شىء اذا خلا من حراره ، والحرارة وحدها سبب الحياه ونحن اذا استعجنا حتى عرفنا ، لا نسامى الى اكثر مما حصلناه من قدر

« لا دخل للحظ فى الشهره الادبيه ، ولا يتوقف صدور الحكم النهائى على كتاب بما يقوله فيه اصحاب الاهواء من القراء، المكثرين من الضجه حوله اول نشره ، ويحكم على مثلمه من الاجاده محكمه ، لك ان تقول انها مؤلفه من ملائكه ، او من جمهره لا تخاشك برشوه ، ولا تخافك الا سلك وسلطانك ، وهى تقضى وتمنح جلاء[1] المجد وعلاقته لمن هو خليق بهما وامثال هذه الاسفار فقط يحق لها ان تحيا اما المذهّبه المُعلّمه المعموله بالرُّقوق المرينه بالنقوش ، وان ورعها صانعها على الورق الناشر باسرهم ، فانها تبيد ، ولا تُصيب من الرواج اكثر مما هى الحق به »

« ليس فى الارض ارشد من ابى عشر سجعاً ، فى آن واحد ، يقرؤون كتاب افلاطون يفهمونه و يتعذر عليك ان تجمع من مجموع قرائه من اعدد ما يصح الاعتماد عليه لاعاده طبع كتابه ومع هذا نرى مصنّفه يدل الى كل

(١) احيا ما خاص به من الألقاب حسنه وعكس اضافتها على ترتيب فى عهد الحدث ، والعلاقه واحج العارف الادب

حمل لمسمع به هؤلاء الاسحاص الملاىل ، كأن الله أرسله الىهم ىه امىره »

ىمول ىىلى « ما من كىاب سمط و ىاد الا عا حوىه دَفّىاه — ولا ىحدد ىما الكىاب عا ىال من حب او ىعص ، ولا ىحلد إلا عا ىىه من قىمه داىمه ، و ع ىحمل من حاحاب العمل على الدهر

« لا ىعرف الرحل المعطم اىه على سىء من العطمه ، واا طمه لا ىحررها الا ادا اىى علىه ورن أو ورناں ، لىىكسف للملا حمىمىه هدا وهو ىعمل لاں ں واحىه ان ىعمل ، والدواعى والىواعب حا كمه علىه ، و ىومىد ىراه ، طم فى اا ون ، وكل ما اىعث مىه ىعدو رمراً عاماً ، و مالاً ىمىدى ىه ، حى ما كان من حركه إصىعه الصعرى ، وما ىاوله من طعام و ادام ، فىمسى ىدلك صاحب السلطان الأكىر على العمول ، والدهما ىُعحب ىطرىىمه

« فالوا ان الصوره لا ىكدب ، والمرء ادا طى ىالحى ، ىىكر حى ، كا ب ع ىه اصى من السما ، ومى حالف دلك وأورد الرور والىهىان ، احىلحىت ع ىه ور عا أُصىب ىالحَوَل

« وأىى لك ىعحام لم ىمسع ىىراىه وكله ان ىُمىع الحىكمه لىمصى له ىالىرا ه ؟ هدا الماىون ىسرى على افكارىا ، فىحكم على كل اىر ىالمىكر الدى عرص للمؤلف ، ىوم اىسا ما اىسا من ىىاب اوكاره وهىهاب ان ىمول فولاً صحىحاً ابداً فى الحكم على كل سىء ، ولو اسىطهرىاه رىدارسىاه ، ولىں ىطال المر الى مكاىه لا ىسىحمها ، وىاطل ان ىحاول معرفه ما ىمول الىاس فىىا ، وىاطل كل الىاطل ىحوفىا من أںـ لا ىُعرف ومى أىمں المرء اىه ىحسں سىئاً ، واىه ىىد فىه عىره فى ىاب الاحسان ، فلىس ان حمىله ممىرف ىه ، و احساىه مىىدور فدره ، فى كل رمان ومكان العالم ملى ىالاحكام ، و الى اى محلس احلف المرء ، وفى

كل عمل حاوله ، لا يُنكال الا بقدره ، ولا يُعلَّم الا بقيمته

« قد تقوم للدعوى قائمه ، وهى بمجرد من الوفا بعمل عظيم ، وما كانت الدعوى يوماً خليفه بإقحام امر يُلابس عظمه حقيقيه فبالدعوى لم يكسب الالياذه ، وبالدعوى لم يُكسر كسرى ، وبالدعوى لم يستجب الناس لرسالة المسيح ، وبالدعوى لم يُبلغ الرقى العصامى بقدر بارها ، وعلى قدر الصلاح يكون الحرمه ، والناس سواء فى احترام الفضيله واساتذه الانسانيه هم اصحاب طبعه الكرماء المخلصين ، وارباب الافكار العاليه ، يعرضون عليها ما يريدون به ، يحاولون الدعوه اليه وما ضاعت كلمه طيبه قط ، وما سقط مجد ولا كرم ، من دون ان يسقطهما قلب ما كان له ان يسود بهما ، و بارك عليهما و بعد بهما وقيمه المرء ما يحسن ، وما يحسبه مغموس على سيماه و يتم عليه ظاهره ، و ما رُزق من سعاده ، ولن يعيده التوارى ، كما لا ينفعه الا صحح والتصحيح [1] »

هل انطبقت هذه الصفحه فى شروط الخلود على الجاحظ ؟ وهل له بعد هذا ان يعد فى الخالدين بما الف وصنف ؟ نعم انطبقت عليه لاستهاره بو بذا للا ضار به عه ، وكمُلت له العظمه قبل ان يأتى عليه قرن او قرنان وهذا مستمر فى عصر ليس فيه طامع ولا حراد ولا محلاب ، ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات ولا ... ولا ... ولا ...

حص الجاحظ عصب اليه بلبه عسه لا عمه راد به وط فاستماص صيته وصل صوته الى ابعد مدى لانه قام احسن قيام بما يجب عليه لامته ، ورحب علامه معرفاته فى دهره ، بدا لقومه مع عابه هو فى السكه له ، سرت الصفه الدائمه بعرفه على عبره ... رايه ... ان كد به محمل

(١) سابح ... كسمح ... سحج ... سحار و ساه

علماً كثيراً ذلك لأنه أرضى نفسه بما كسب ، فارضى أمة واحد بمجامع قلبها ، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب ، لا سلطان الدربة والدعوى

تصفحت كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر ، لأنها ابنة العقل الناضج ، وربيبة الروية والتفكير الصحيح ، قصد بها التعليم والارشاد ، لا الافساد والإفساد ، وقدر له بها من الاعجاب ، ما لم يكتب لملىء ولا لذمى من العلماء مثله ، في الملبس مثاب ، وفي الدمس عسرات ، كانت لهم الحُظوة عند العامة والخاصة ، يحفهم رعاية الامراء والخلفاء ، فتقدمهم الجاحظ في السبق ، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة كان ، والحق يقال ، انساناً كاملاً احد من المادة بقدر ما يضمن له عيشه ، وما اسف الى ما سفّ له اكثر طبقته من العلماء ، ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمع في قصور الخلفاء بكل ما يطمع فيه ، ولكن هدفه كان أسمى من كل هذا ، كان صاحب فكر ، همهُ نشره لينفع العالمين ، في دور كان حملة الرأي والرواية من عصره بين عالم دين ، نُهي ادبه عن علوم الدنيا ، أو عالم مادي لا يحسن شيئاً كثيراً من علم الدين ، يجمع الجاحظ بين المطلبين ، حتى كثر المعجبون به من كل صنف ، وما استطاع حساد فضله ان يطفئوا نوره ، ولا ان يُعموا على الناس امره ، لما ادركَ المنصفون انه على صفات قلّ ان يدانيه فيها احد ، وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب في اشد أعصار حماستهم ، وتصلبهم في آرائهم ، جادلهم فاحسن جدالهم بأدب لا غرور فيه ، وبعض ما ساق له الاجادة في ضروب من القول ، وما كان يضمره سخف السخفاء ممن يعذب عليهم مداناته ، فوضع صفحته للحق ، وحاورهم قائماً بالواجب عليه نحو دعوته ونحلته ، فتم له ما اراد لما بعد قوله الى اعماق القلوب والعقول ، بما خص به من نَفَس طويل ، وابداع جزيل ، ثم بعد الجاحظ

عما كسب الى القلوب والعقول ، لانه لم يكتب كأفلاطون ألغازاً ومعميات يتعذر حلها ، فهى كلام الحكيم اليونانى — على ما قال أميرسون — مقصور الفهم على ابى عشر سبعاً فى كل جيل ، وكتب الحكيم العربى السهل الممتنع الذى يفهمه كل من يقراوه ، فاسرع كل ذلك فى خلوده

الجاحظ موهوب ، رزق القبول من القلوب ، وساغ ما كتب فى كل صقع وكل قرن ، وكلما كرر كلامه حلا ، وهل اعظم فى باب الخلود من بنات افكار تتناقل خلفاً عن سلف أحد عشر قرناً ، ثم لا ترى الجميع الا معجبين مستعذبين ، بما ابرعن علم الاعلام وافضل المجالس

و انا اذا استقرينا ما قاله اولياء الجاحظ وخصماؤه فيه ، لا يتعذر علينا ان نضعه فى الدرجة التى بلغها قيل لابى العينا الراوية الاخبارى ليت شعرى اى شئ كان الجاحظ يحسن ؟ فقال ليت شعرى اى شئ كان الجاحظ لا يحسن ؟ ويقول المسعودى « لا نعلم أحد من الرواة راهل العلم اكثر كتباً من الجاحظ ، وقد كان ابو الحسن المدائنى كثير الكتب ، الا ان ابا الحسن المدائنى ، كان يؤدى ما سمع ، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بالغة ، الى نادرة طريفة ، ولا نعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة افصح منه »

وقال ثابت بن قرة الصابى وهو من المعاصرين للجاحظ ومن اكبر فلاسفة العباسيين واكثرهم اجادة فى بالمعاهم ما احسد هذه الامة الا على ثلاثة انفس اولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث الجاحظ وقال

عه « انه حطب المسلمس ، وسىح المىكلمس ، ومِدره[1] المىقد مں والما احرں ، إن ىكلم حكى سحىان وائل ، ر ان ناطر صارع النطام فى الحدال ، و ان حد حرح مں مَسك[2] عامر ں عىد قىس ، و ان هرل راد على مَرىَد   حىىب القلوب ، ومَزاح الارواح ، وسىح الادب ، ولسان العرب ، كىىه رىاص راهره ، ورسائله أفىان مىمرة ، ما ىارعه ىارع الا رساه آنفاً ، ولا ىعرص له ىعوص الا فدم له الىراصع اسىعفاء ، الحلفاء ىعرفه ، والامراء ىصىفه وىناد ه ، والا لما ىأحد عىه ، والحاصه ىسلم له ، والعامه ىحىه ، حمع ىىں اللسان والعلم ، و ىىں الفطىه والعلم ، ر ىىں الراى والادب ، و ىىں النىر والىطم ، و ىىں الدكاء والفهم ، طال عمره ، وفسىت حكمىه ، وطهرت حَلىه ، وربطىء الرحال[3] عمىه ، وىهادوا أدىه ، وافىحروا ىالاىىساب الىه ، وىححوا ىالافىداء ىه ، لفد أُوتى الحكمه وفصل الحطاب »

هده ىلاب سهادات فى الحاحط ، الاولى لرحل عاصره وعرفه عں أمم ، والىاىىه لعالم حاء ىعده وسهد فىه هده السهاد ، سهاده ىىى فى ىمعىرلى ، والىالىه لصاحب الىحله وسهادىه ىساده ىرى مں الارص ، و ادا حدىب ىمسك ىاں هده الشهادات فلىله ىورد لك عىرها ، الاولى للمرزُىانى مں ائمه الادب حاء فىها ان الحاحط كان واسع العلم ىالكلام ، كىىر الىىحر فىه ، سدىد الصبط لحدوده ، ومں أعلم الىاس ىه و ىعىره مں علوم الدىں والدىىا ، و ان له كىىا كىىره مسهوره حلىله فى ىصره الدىں ، وفى حكاىه مدهب المحالفىں ، والآداب والاحلاق ،

(١) المدره كمىر اسىد الىىىف والمعدم فى اللسان والىد عىد الحصومه واالفال
(٢) المسك الحلد
(٣) ىقال فلاں موطأ العقب اى له سلطان ىىىع وىوطأ عقىه والحلىه الحصله ، والحلىه ايصا الطرىق راسد ب وهو اولى هىا

وفي ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها ، وعرفوا فضلها
قال : وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول ، وشحذ
الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ، ومذاهب
الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة
من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » . واستهداه الثناء لأبي حيان
التوحيدي ، وقد ألف فيه كتاباً سماه « تقريظ الجاحظ » . وقال فيه : اتفق أهل
صناعة الكلام أن متكلمي الدنيا ثلاثة : الجاحظ ، وعلي بن عبيدة [1] وأبو زيد
البلخي ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه
على لفظه ، وهو علي بن عبيدة ، ومنهم من يوافق لفظه معناه وهو أبو زيد ».
قال : قلت لأبي محمد الأندلسي ، كان من عدد أصحاب السيرافي : قد اجتمع أصحابنا
في مجلس أبي سعيد السيرافي في بلاغة الجاحظ ، وأبي حنيفة صاحب النبات ،
ووقع الرضى بحكمك ، فما قولك ؟ فقال : أنا أحقر نفسي عن الحكم لهما أو عليهما ،
فقيل : لا بد من قول ، فقال : أبو حنيفة أكثر نداوة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة ،
ومعاني أبي عثمان لائطة [2] بالنفس ، سهلة على السمع ، ولفظ أبي حنيفة أعذب
وأغرب ، وأدخل في أساليب العرب . قال أبو حيان : والذي أقوله وأعتقده وآخذ به
وأستهيم عليه أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان
على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم ،
مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم
أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة وبسطنا فيها هذه الحكاية

(١) علي بن عبيدة الريحاني متكلم صاحب تصانيف في الأدب ، من الناس من يفضله
على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف .
(٢) لاط الشيء بقلبي [illegible] وحبب إليه [illegible]

أعى اما عيان عمرو س محر والثانى ا و حسعه الدسورى والىالث أ و ر ىد أحمد س سهل البلحى

والشهاده الىالىه سهاده امىر المؤمىس المامون ، ڡالوا لما ىطر المامون فى كىاب الحاحط فى العاسىه ، وكان الىر ىدى ادحله علىه ، دعا ىالحاحط ڡڡال ىا عمرو ڡد كان من ىرىصى عمله ، و ىصدق حىره ، الىى الى صىعه هدا الـكىاب ، ڡـكىب ارى الصىعه عىاىاً ، ڡلما حصر العىان أر ىى على الصڡه ، ولما ڡُلى ار ىى العلى على العىان ، كا رىاء العىان على الصڡه وهو كىاب ىىوب عن حصور الصاحب ، و ىحل عن الحاحه الى المحىحں له ، حامع لاسىڡصا المعانى واسىىڡاء الحڡوق ، ىلڡط حرل ، ومحرح سهل ، سوڡى ملوكى ، حاصى عامى ڡال الحاحط ڡوالله لمـا ادىه مں ىعلم صىعه هدا الـكىاب آ ر عىدى من الـكىاب

وعلى الحمله ڡالشهادات كىىره على ىىو ع الحاحط وا ىه كان « ىسىح وحده فى حمىع العلوم » ڡال الصڡدى من وڡڡ على كىاب الحىوان وعالب ىصاىىڡه ، ورأى ڡىها الاسىطرادات الىى اسىطردها والاىىڡالات الىى ىىڡل الىها ، والحهات الىى ىعرص ىها فى عصون كلامه ىادىى ملاىسه ، علم ما ىلرم الادىب و ما ىىں علىه من مساركه المعارف

ولمـا دكر الدهىى فى الىىلا محو ىد الحاحط فى كىاب الىىوات ىرحم عا ه ، وڡال ڡـكدلك ڡلىكن المسلم ، مع اىه من حصومه فى المدهب وڡال اىں ىىاں الحماحى « ڡىكا ىه فى كل علم ىحوص ڡىه لا ىعرف سواه ولا ىحسں عىره »

حدث ا ىو العاسم السىراڡى ڡال حصرىا مجلس الاسىاد الرىىس ابى الڡصل اس العمىد ڡىصر[١] رحل ىالحاحط واررى عا ه ، وحَلُم الاسىاد ع ه ڡلما حرح

(١) ىصر ىه اررى ىه وحڡر

قلت له سكت ابها الاستاد عن هـذا الجاهل فى قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ، فقال لم احد فى مقابلته ابلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته و ندبت له ، لنظر فى كتبه وصار انسانا ، يا ابا القاسم « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والادب ثانياً » وكان ابن العميد يقول ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة انفس اما الفقه فعلى أبى حنيفة لانه دوّن وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً اليه ومخبراً عنه ، واما الكلام فعلى ابى الهذيل ، واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى ابى عثمان الجاحظ اه وهذا فى نظرنا داعية جاودة

أبو حيانه التوحيدى

عصره

القرن الذى اولد البوحىدى وسبٌ فمه وا كبهل وساب هو ا حىر العباسى الباب ، فسدب فمه عصبيه بنى العباس ، فلم ىبو لهم كلمه سموعه ، ولا راى جمع[1] ، رلا فوه باوده ، رلا كىان برنحى معه اا ماء بعلعلب الاعاجم فى حسم الد له ، ر سلطب على الا ور ، وما دحل القرن الرابع حى را ب الامر بلمهوى ، ر-رله الخلافه بصوّل وبىراجع ، وفد سمل الص ف م ط ا اوصاعها ، وعاب سوس الفساد فى داك الحسم العظيم ، وىبار عمد اا لاد الاسلا ه راسعصب من اطرافها ، والاهواء مسسه ، واا موس سعاع[2]

لم كد بسلخ[3] الربع الاول ن هذا القرن حى اسه ولى ابن را ق على البصره وواسط ، واسبا ر البرىدى بالاهواز واعمالها ، ودهب اسا ىُو به الديلم ىمارس رالرّى راصمهان وطبرسىان وحرحان وكرمان والحل ل وىد ب حراسان وما ررا النهر ىىد السامانىه ، والموصل وديار ىكر و ضر ور ه فى ايدى بنى حمدان ، وا ىعاب مصر والسام الى الاحسدىه ، والبحرين والىامه الى القر طى ، رالمعرب و افر ىىمه الى القائم اا لوى ، والاندلس لا اصر عمد الرحمن الاموى

---

(١) الجمع صد المف ق (٢) السعاع كسحاب الفر ـ واا اى المفرق

(٣) سلخ (كىصه ومىع) السـ ـ صى كانسلخ ، وفا ن سهر امصا وصار فى آخر

ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد واعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة غير ذلك ، واما كان له كاتب يدبر اقطاعاته واخراجاته الضئيلة وكلما امتدت كلمة ملك او امير سقط على من يجاوره وسعى لمكه صاحبه ، فان رائق بعد البصرة استولى على دبيس ، والبريدى بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد المشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة ، وهكذا كانت مملكة بنى العباس نهبا لايدى الاتراك والديلم — والاتراك جيل من التتر معروف ، والديلم سكان الجبال فى فارس — وكلهم كانوا شاركوا العرب فى سلطانهم بل حاولوا نزع تراث الاسلام من ايديهم

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

الى الشام ، بعد أن عاثوا بمقدسات الأمة في الحجاز ، وكذلك كان شأن غيرهم
من الخوارج والزراع إلى الفتنة . اما الروم فكانوا يعادون الشام الشمال
و يراوحونها ، ودولة بني حمدان كفت البلاد عاديتهم ، وعرامهم منصور بن نوح
الساماني عام النفير(١) في الوقف من اهل خراسان وما وراء النهر . وفي خلال
هذا القرن انقرضت دول ، ولا سيما السامانية والاخشيدية ، وقام محمود بن
سبكتكين رجل ذلك القرن فاستولى على خراسان ، وامتدت فتوحه حتى فتح
جزءاً مهماً من بلاد الهند والشرق

وفي هذه المملكة ، بل الممالك التي كانت تسقط في اقدارها ، وتحفظ
أمورها بايدي احبارها واسرارها ، نشأت زمرة صالحة من العلماء والادباء ،
تقوه السلاسل المتصلة من عمل القرن الثالث . وقد خصبت السياسة في ا ه ،
وبقي فوقها المفكرة سائرة سيرها ، وعلوها آخذة بالنظام الذي كان لها ، كما قال
« بقي القمص روحه ريح المندل(٢) » ، ولقد ساعد على هذه النهضة نص
اصحاب السلطان من هؤلاء الملوك ، من ارادوا ان يكونوا في حللهم الاخلاء
بالفضلاء ، يساوون بهم دون جبرانهم ، ويرون بهم لكهم ، او ...
ليعينوهم على قيام امرهم ، او يجاورون طبقة من الادباء والشعراء ، فيادونهم
ويمدحونهم ، ويخلدون مآثرهم ، ويعظمون مفاخرهم ، فيفخرون بهم عند الفخر ب
والعرب ، والنقص والحسد . فكانت في هذه السبل تجاري بغداد كل من
اصفهان وشيراز ونيسابور وهمدان والري وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة

(١) النفر والنفير القوم ينفرون معك ويتنافرون في القتال ، ونافروا ذهبوا
(٢) المندل العود أو اجود كالمندلي ، ومندل بلد في الهند ، ولعل هذا العود نسب إليها

وسوعت المذاهب التى غلب على البلاد ، فكان اهل ا عمره فدريه وسنيه وحنابلة ، وبغداد ؤوى جمع النحل وفيها غليه يحبون معاويه و سنيه وهم اصناف كثيره ، وبهرد اقليم الجبال اكثر من نصاراها ، ويحو بها كثير ، والمجوس اصحاب زرادشت ، المعظمون للنار وسائر الأنوار ، بقيت منهم بقيه مهمه الى هذا القرن فى العراق والاهواز وفارس واصبهان وحراسان وغيرها من مملكه الفرس قبل الاسلام ولكل بلد من بلاد العجم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما يجد فيه الغلبه للحنفيه ، ومنها ما كانت حنابلته كثيره ، ومنها ما كانت شيعته غالبه ، ومنها ما يغلب فيه اصحاب الحديث ، وا كثر اقليم خوزستان معتزله ، وفى الاقاليم الاخرى شيعه وحنابله وسوافع والفتن كثيراً ما يقع بين الحنابله والشافعيه فى بغداد او بين السنه والشيعه فى دار السلام ، وبعض اصقاع فارس والجبال وما اليها ، فيفنى بعضهم بعضاً

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء باهداب التقيه[1] خشيه العامه وجهله السلاطين ، فكان ما كان من تأليف المجالس السريه من الفلاسفه وارباب العقول الكبيره ، وكان التوحيدى احد اساطين تلك الحلقه خشيه من الفتن ، والحركه الدائمه فى الاباده والاستعاده ، والعقل الكبير واهل الحذر ، ما ست حسابه مراتب ـ سكان يحيا فى مسه زرسه

---

(١) التقيه مشتقه من اتقا اى خشيه وهى ضد الجهاد به وكان المسلمون لاول عهدهم وهم ضعاف يخفون من عدوهم يداورونه اذا كان قويا ، من غير ان يستحلوا دما حراما او مالا حراما او غير ذلك من المحرمات او يظهروا الكفر على غير المسلمين والخلف بعض الاسماعيليه فى التقيه ومنها من يحرف فيها كثيرا ، وبعضهم حدد لها شروطا ، ولاسيما عندما خشى امرا على نفسه فيدفع عنه بعضها بحذر ويدفعه ويناصبه وبعضى يشرع واحتمل ان يستعمل فى درجه من لا يستعمل فى درايه به

نشأته وأعماله

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون اليا المثناه من تحتها) نسبةً فيما قيل للتوحيد ، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق ، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبي قوله

يترشفن من فمي رشفات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل ان التوحيدي نسبة للمعتزلة ، لانهم يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد ، وهو الارجح ذكروا في اصله انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي ، وهو عربي ، وما كان يعرف الفارسية ، ولو ولد في فارس لكان يتكلم بها ، وكنيته ابو حيان ، ولد على الغالب في اواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في اوائل العقد الثالث ، ونشا في بغداد وعُمّر لانه مات على راس الخمسين او بعدها بقليل ، وقيل مات بشيراز سنة ٤١٤

نزل التوحيدي بغداد صغيراً على ما يظهر ، وتخرج في النحو بابي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمّاني ، وبالفقه الشافعي بابي حامد المَرْوَرُّوذي وابي بكر الشاشي ، وحضر في اوقات مختلفة بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ هـ دروس يحيى بن عَدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل ابي الحسن العامري ، وقد اجتمع به أبو حيان وقال انه يتكلم في الفقه بالفاظ الفلاسفة ، ومثل ابي الفتح البوزجاني الفيلسوف ، فجاء متفنناً في العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على راي المعتزلة ، واخذ الفلسفة عن رجال علوا الافق في عصره فجاء حكيماً عظيماً ، وصفا ذهنه ، وزاد نباهة ، واصبح يُحكِّم عقله فيما يرى ويسمع ، لا ياخذ الاشيا على ظواهرها ، بل يواصل الدرس والنظر ، غير متحجر افقه ، لا يتعصب لراي جماعة

وصفه ياقوت بانه كان جاحظياً، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ،
ويشتهي ان ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الادباء،
واديب الفلاسفة، ومحقق اهل الكلام، ومتكلم المحققين، وامام البلغاء، وفرد
الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنةً، كثير التحصيل للعلوم
في كل فن، حُفَظَة واسع الرواية والدراية. قال ولم ار واحداً من اهل العلم
ذكره في كتاب، ولا ادمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب. وقال
وبه انه صوفي السمت والهيئة، وانه كان فقيراً صابراً، وعده السبكي في فقهاء
الشافعية. وقال انه من المؤرخين وروى الحديث ازراه، وآخر ما أُخذ عنه سنة
اربعمائة. وقال النووي في تهذيب الاسماء انه من اصحابنا المصنفين، وان
من غرائبه انه قال في بعض رسائله لا ربا في الزعفران. ووافقه على قوله القاضي
ابو حامد المروروذي.

ولابي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصداقة، كتاب
المقابسات، كتاب الاشارات الالهية والرد على ابن جني في شعر
المتنبي، كتاب الامتاع والمؤانسة، كتاب الزلفة، كتاب رياض العارفين،
كتاب تقريظ الجاحظ، كتاب مثالب الوزيرين(1)، كتاب الحج العقلي اذا

(1) [illegible]

صاق الفضاء عن الحج الشرعي ، ورسالة في صلات الفقهاء في المناظرة ، الرسالة البغدادية ، الرسالة في اخبار الصوفية ، الرسالة الصوفية ايضاً ، الرسالة في الحنين الى الاوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة . وقد ساق الصفدي في الوافي بالوفيات نبذاً طويلاً في مصنفاته ، ومنها كثير من كتب فتح الله بن ادان يستدل بها على نقائصه من التاريخ أيضاً . واذنب في اكثر من اربع صفحات كلها اسماء كتبه وكتب ابي حيان اسماء راحوبه ورراياب ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات ، بعريع بعربط ، ونقد ولمز ، ووعظ وارشاد ، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلوم ، وبلوغه درجة عالية في الفهم ، اراته منازل اعاظم المتسمين بالرلمس ، صرّر فيها العلم والادب في اتامه احسن صورة . وكرب النفوس لمسرته رانكره كثيرون حسداً ولوماً ، رما مثله بالذي يكون كره ذلك لانه قال الحق ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المارى

كان التوحيدي على ما ظهر من كلامه ، من اهل الباطن اى الصوفية ، ومن اهل الظاهر اى الدنس الحكما ، جمع بين مذهب الصوفية امثال المحاسبي والبسطُري والجنيد والسَّري السقطي وابراهيم بن ادهم وغيرهم من النساك ارباب الصوفية ، وبين مذهب السجستاني والزّنجاني والمهرجاني والصّيمَري والمقدسي والمجمي رابن زرعة وابن سرار وابن رِفاعة في الحكمة . وقد مهدت له كتبه انه متصوف ، ومهدت له بانه فيلسوف ، رانه جمع بين العلوم المادية والعلوم الآدابية ، ووفى كل علم قسطه من النظر . وليست له طريقة خاصة في التصوف ، ولا مذهب معروف في الفلسفة ، بل انه أحاط بجميع الطرق ، وحَنى عليها ، وطابت نفسه بسيره أهل نبتها والاخذ عنهم . وقد تخلف شخصيته العلمية عما نقله من

المباحثات والمناقشات المدربة تعامل الجرأة على كسر القيود التي قيدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الديني او الفلسفي ، ويبدا كل ذلك في ظهر عرب باسلوب انسانه وما عمله المؤرخون او تغافلهم عن الترجمة للتوحيدي ، مع هذه البسطة في العلم الواسع ، والبيان الرائع ، الا بسبب اخلاقه على ما ظهر ، فقد طوره بذلك حقه ، لكن الفضل لا يستر بحجاب ، والفضل لا يخفى على ذوى الالباب

وظهر ان ابا حيان كان مقتراً عليه في الرزق ، وانه ربما كان يعيش بأجر اوه ار النسخ ى ، لداد مده ط لله — وكانت الوراقة في القديم حير معوان لاحراج العلما والادبا — ولم بل التوحيدي امراً من امور الدولة و يستحيل على من كان في مثل علمه استمراره في دفاتره ان يتقلد الاعمال ، فاذا لم يكن له ادرارات من السلطان او الخليفة بس ـا برح به الا ر الاما و وهكذا كان شان من عصر به مثل ابي بكر القومسى الفيلسوف الذى وصفه او حيان بانه كان بحراً عجاجاً ، وسراجاً وهاجاً ، كان فرس الحـمدى في الصبر والفاقه مقاساة الشدة ، ومن الاصاقه بمنزلة عظيمة ، وهو الذى قال للتوحيدي ذات يوم ما طبت ان الدنيا و نكدها بلغ بانسان ما بلغ بي ان قصدت دجلة لاغتسل منها سبب ما ها و ان خرجت الى المد ر لا ~م با حد دعاء صالحا املس

التوحيدي لم يوظف له ضيعة ولا حتى عليه رزق ومن اين كان يرزق لما رامى الى بغداد بيا مكرم ابن العميد والصاحب بن عباد وزرا آل بويه في الشرق كانا يفضلان على اعلام العلم في مدينة دار السلام و مراسلهم امهما الحس مد الآخر ، وصلت عطاياهما الى سمحي التوحيدي أبي سليمن المنطقى وابي سعيد السيرافي — سمت نفس ابي حيان الى ان يقصد دينك

الوزيرين وانقطع اليهما ، وقدم بين يدى نجواه مدحهما اولا ، الا انه لم ينل منهما رغيبة ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين فى دار الصاحب لم ينله منه درهم ، ولا اعطاه راحلة ولا زاداً . أخفق فى قصر الصاحبين مع انهما كانا مع الوزير المهلبى من اكبر حماة الادب ، كما كان سيف الدولة بن حمدان فى حلب ، وربما كان التوحيدى استطال عليهما ، وفهما عزة السلطان وأبهة الفرس ، فازدرياه فسق عليه الامر ، وهجاهما فى كتاب اسماه « مثالب الوزيرين » اورد فيه حكايات فى ثلبهما ، ومنها ما عزاه الى بعض من روى عنهم . وذكروا به معهما ، قال انه فارق باب الصاحب سنة ٣٧ وقد نال منه هذا الحرمان الذى قصده به ، واحفظه عليه ، وجعله من جميع غاشيته فرداً . ومن جملة ما عزاه بن الصاحب ان هذا قدم اليه رسالة فى ثلاثين مجلد على ان ينسخها له فقال نسخ مثله يأتى على العمر والبصر ، والوراقة كاسدة منحوسة . ... فاحفظ الصاحب فى نفسه عليه

وقد عرفنا شيئاً من اخلاق التوحيدى فى هذا الكتاب ، ومن الآثار ما قاله ... ثار التعصب للوزيرين واخبارهما كثار فى الامصار ، فاعرض الناس عنه وأرفعوا فيه ، واسقطوه من دواوينهم ... ان ... الناس ... المهجرين ، ولا يتعاطون لحوق الهاجين ، وقلما يحفلون بالسباب الذى يأتى به الى الهجا احياناً . وقيل ان الصاحب بن عباد اتهم التوحيدى بالزندقة فهرب منه ، وطلبه الوزير المهلبى ليقتله فهرب الى ديار بكر ، وفى رواية انه مات فى الاسفار ولكن التوحيدى اذا فاته افضال الوزيرين الصاحبين ، فقد لقى اكراماً من الوزير صمصام الدولة بن سعدان وعبد الله بن عارض الشيرازى ، ولابن سعدان الف كتاب الصديق والصداقة ، وكتاب الامتاع والمؤانسة ، وللدُلَحى ...

الف كتاب المحاضرات ولم نعلم السبب الذى عاق التوحيدى عن اهدا كتبه كلها الى بعض عظ عصره ، وكانت طريقة اهـدا الموامس مصنفاتهم لا بر او عظم من السابع المعروف ، كثير من الموامس كان ن اهم وارد عنسهم المصنف باسما عظى عصرهم ، رالاربراق نعطاياهم وهداياهم

وصب العافه على التوحيدى ان سكنف ، ص الامرا وكتابه الى ابن العميد عردح من هذا الا مرل ، رالسكن امجر عاب لانه مدور فى اطنسه كما بال عن نفسه رقال انه نصفح الناس ورجدهم احد رجلين رجل ان نطق نطق عن عنط ودمنه[1] وان سكت سكت عن صعن و احد ه ، ورجل ان بذل كدر امسانه بذنه ان منع حسن بافساله بحاله لقد دعا ، وقد ترو امت عنه بالدمع لما احمق عند نعس ن وصدهم ربان له ته الدهر نه ، رصباع سعه وحسه امله ، فى كل ما ارتجاه لمل ار سم ار حادثه او نابسه دعا ما ـعا نه بعض الناس فقال « اللهم صن حـ هما بالبسار ولا ندلط بالاقتار ، فنسترزق اهل رزقك رسال شرحا لك رنبلى بحمد من أعطى ، رسه من منع ، رانت من دونهم ولى الاعطا ، وبيدك حزائن الارض والسما »

راما صفنا الناحبان فله ا على ما ندر منه فى حو عظ من عظ حسنانه رحسن سند ـه ـه ـسه ه حـمه ن له ا ـس فى عصه ا ـد د رنه ، نلا ندهب مع من حـكعا ه ندوه ا ـ وه ، فى حـك عا ه عند حدرد اقوا ه ، روس ـ هد على رحـ ده ه عن لاحـد الذى وقف نه على ان عط من ذكره رمنهم صاحب تاريخ هد ـ و ـ حم الادبا ا اته كان ا اى سساب سعد رالمس على عه من دنسه صحه

---

(١) ـد ـه حسـ ـه

عقيدته ودعوى ابن الجوزي أن زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان وابو العلاء المعري ، وانه كان أشدهم ، صرّحا وهو جمجم ، من الكلام الذي يلقى على عواهنه ، اخذه على ما يظهر بدون روية ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص ، وكذلك ما قيل بان ابن الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدي في الشريعة وقوله في التعطيل وما كان يجمعه من ذلك ، فطلبه ليقتله ففرّ ، كلام فيه نظر ايضاً [1] ، على ان كثيرين من المتصوفة شطحوا اكثر من شطحات ابن الراوندي والتوحيدي والمعري ، فلم يُتهموا بشيء ولا قدح الناس في دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يمسهم احد بسوء ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم ولطالما وجهت تهمة الزندقة الى كثير ممن توسعوا في علم الكلام او العلم الالهي ، أو علوم الاوائل من الفلسفة والطبيعي والرياضي ، وكان غلط بتكفيرهم حديداً يخالف من بعض نواحيه غلط التكفير الذي اصطلح به رجال مات او رجال ماتوا ، فوُقِروا في الصدور ، وعلت منزلتهم بين الناس والميت افضل عندهم من الحي ، وقد تكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة والارجح انه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدي ، والطاعنون اما حسدة سافهم لؤم الغريزة الى النيل من عظيم بذهم وأربى عليهم ، فما استطاعوا مشاركته ومنافسته ، او انهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول ان يسقط مؤلفاً مثله ، خاض أصعب المسائل الالهية والاجتماعية

---

(١) في معجم الادباء ترجمة للتوحيدي نقلها الأستاذ مرجليوث ، جاء فيها ان الوزير المهلبي بن ابا حيان لما صرح به من الالحاد في كتبه الى صاحب وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب اخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال انه ليس من الثابت ان هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيدي الى ذكرها ياقوت

وقال فيه بعض واصفيه انه قليل الرضى عند الاساءة اليه والاحسان ، الذم شأنه ، والثلب دكانه ، يشكو صرف زمانه ، ويبكى فى بضاعته على حرمانه وقد لامه أستاذه السيرافى يوماً وهو يقبل ذم اعرابى بقوله « يأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فاجاب « ادام الله الاستاذ ، بئ لى كل انسان بما هو مبتلى به مدفوع اليه » وهذا الخلق فى النيل من الناس لا سبيل الى تبرئة ابى حيان منه ، لانه مما اجمعت الآراء على انه كان فيه متاصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة امزجة بنى آدم ويوشك صاحب هذا المشرب أن يعادى اكثر اهل زمانه ، هذا وهم دربه فى صوب العمل ودرب العقل

ان الرجل الذى يخوض غمار المباحث التى خاض التوحيدى بحرها ، وخرج منها باصبع الخبير بالحجة ، ناجح المسعى والمرمى ، وهو من افراد الدنيا بذكائه وبدعه ، يستحيل ان يستبد بمفرد افكار غيره يصدر اذا صدروا ، ويرد اذا وردوا ، يقلدهم فى كل ما قرروا أو قُررلهم ، ويتابعهم عموا وضلوا ، ام ابصروا واهتدوا وفى البشر عدد ليس بقليل كان يصيبهم بعض ابى حيان من الناس والمجتمع ، فصاروا ابناء شم فى صنوف من معايبهم ، وصنوف من عقول اهل جيلهم ، رضى من عيب المنطقيين والمعتالين بسيطرة المستبدين والجائرين

سأؤم ونهمه

ترى هل كان التوحيدى يسمع الرسمى واهما ، يجلس الى ارباب بدعه وجدل ، يجاذب ثوب الحد الوقار ، ساعة من ليل او نهار ؟ ببغداد فى مه غلف الطرب ، ورهف فدار المسمر والسمعات لى اسمى الادب ،

وحرج الادب فيها عن حد الجمال ، وأصبح اطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب ، وفؤاد مضطرب ، ونفس زافرة حائرة . وأكبر الظن ان التوحيدى لم يكن على شىء من هذا ، اللهم الا اذا كان فى صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، اجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التى انتهت الينا من شعره وهى فى غزل رقيق ، صدر عمن اتسم للحياة والانام ، فاخذ بشطر انسها بطرفيه ، على حين كانت اكثر نظرات التوحيدى متشائمة ، هذا اذا لم نرتل له قول بأن هذا اللسان كان على لسان اهل الباطن ، كما فسر بعض المتصوفة كثيراً من الغزل ، ويدعون انه فى الاشارة الالهية الى الذات المطهرة . اما ابيات التوحيدى فهذه

يا صاحبىَّ دعا الملامة واقصرا	ترك الهوى يا صاحبى خسارة
كم لمت قلبى كى يفيق فقال لى	لجَّت [1] عين ما لها كفارة
انا لا أفيق ولا أفيق لحظــةً	ان أمت لم نفسى فانت حجارة
الحب اول ما يكون بنظرة	وكذا الحريق بداوة شرارة
يا من أُحب ولا أُسمى باسمها	اياك اعنى فاسمعى يا جارة

ولقد احرق ابو حيان كتبه فى آخر عمره لقلة جدواها وضناً بها ترفعه على من لا يعرف قدرها بعد موته وكتب اليه القاضى ابو سهل على بن محمد يذله على صنيعه ، فكتب اليه ابو حيان يعتذر من ذلك مما قال له فى الاعتذار « ان كان ، ايدك الله ، قد نبت جلدك [2] ما سمعت ، فقد ادمى اظلى ما قد كتبت ،

---

(١) لج فى النسخ لم نكرها مدعنا صدقه فيها

(٢) اصل المثل ان يدم أظلك فقد نقب خفى الأظل باطن منسم البعير ، والخف واحد الاخفاف وهى قوائمه نضرب به المشكو اليه للشاكى اى انا منه فى مثل ماتشكو (امثال الميدانى) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفرين فى مقدمه

فلهن عليك ذلك ، فما ابتدأت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياماً وليالي ، وحتى اوحى الي في المنام بما بعث رائد العزم ، واجدّ فاتر النية ، واحيا ميت الراي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الرُّوع ، وربع في الخاطر ، وانا أجرد عليك الآن بالحجة في ذلك ان طالبت ، أو العذر ان استوضحت ، لتثق بي فيما كان مني ، وتعرف صنع الله تعالى في تنبيه لي ان العلم ، حاطك الله ، يراد للعمل ، كما ان العمل يراد للنجاة فاذا كان العمل قاصراً على العلم ، كان العلم كلاًّ على العالِم ، وانا اعوذ بالله من علم عاد كلاًّ ، واورث ذلاًّ ، وصار في رقبة صاحبه غُلاًّ

« ثم اعلم ، علمك الله الخير ، ان هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقه منه راغباً ، واما ما كان علانية فلم أُصب من يحرص عليه طالباً ، على أني جمعت اكثرها للناس ، ولطلب المثالة[1] منهم ، ولعقد الرئاسة بينهم ، ولمدّ الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي ، وناطه بناصيتي ، وربطه بأمري ، وكرهت مع هذا وغيره ، ان تكون حجة عليَّ لا لي

« ربما سجد العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، اني فقدت ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً وتابعاً اديباً ، ورئيساً منيباً ، فشق عليَّ ان ادعها لقوم لا يعبثون بها ... دا ظفروا بها ، ويشمتون ... عليّ اذا تصفحوها ... ، فان قلت ولمَ تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ... اني ... في الحياة ... الذي جنى على منهم ... ، وكيف اتركها لأناس جاورتهم

---

(١) معنى ... دون ...

عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ؛ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخَضِر[1] في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب ان يرتاب في صوب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته و صفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وإما خوفاً من القال والقيل

« وبعد فقد أصبحت هامة[2] اليوم أو غد ، فإني في عشر التسعين ، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ، ألست من زمرة من قال القائل فيهم

يروح ويغدو كل يوم وليلة   وعما قليل لا يروح ولا يغدو

وكما قال الآخر

تقوّت دراك الصبا في ظلاله   الى ان أتاك بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدي وتمامه ضيق عنه هذا المكان

« والله يا سيدي لو لم أتعظ الا بمن فقدته من الاخوان والاخدان ، في هذا الصقع من الغرباء والادباء والاحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقرُّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري وما والى هذه

---

(١) الخضر كالكتف البقلة الخضراء كالخضر كفرحة وهي بقلة خضراء خشنا ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرها ويرتفع ذراعا وهي علف غير النعم (التاج)
(٢) يقال هو هامة اليوم أو غد اي مشرف على الموت

المواضع ، وتوارى الى تعهم ، واستدت الواعه(١) تهم ، فهل انا الا من عنصرهم ، وهل لى محيد عن مصيرهم ، اسال الله تعالى رب العالمين ، أن يحول اعترافى عما أعرفه ، موصولاً تروعى عما اقترفه ، انه قريب مجيب

« وبعد فلى فى احراق هـذه الكتب أسوة تابعة بعدى بهم ، و يؤخذ بهديهم ، و يُعشى الى نارهم ، منهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه فى بطن الارض فلم يوجد لها اثر ، وهذا داود الطائى وكان من خيار عباد الله ، زهداً وفقهاً وعبادةً ، ويقال له تاج الامة ، طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها نعم الدليل كنتِ ، والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول عنا وذهول ، وبلاء وخمول ، وهذا يوسف بن اسباط حمل كتبه الى غار فى جبل ، وطرحها فيه وسدّ بابه فلما عوتب على ذلك قال دلنا العلم فى الاول ، ثم كاد يُضلنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من اجل من اردناه ، وهذا ابو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها(٢) بالنار ثم قال والله ما احرقتكِ حتى كدت أحترق بكِ ، وهذا سفيان الثورى مزّق الف جزء وطرحها فى الريح وقال ليت يدى قطعت من هنا بل من هاهنا ولم اكتب حرفاً ، وهذا شيخنا ابو سعيد السيرافى سيد العلماء قال لولده محمد قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل ، فاذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار

« ومن ذا اقول رحمك الله من ذا ... [illegible] ... ، ... [illegible] ... ، ... [illegible] ...

---

(١) [illegible] (٢) [illegible]

بمسى فليل ، والله تعالى ساف كاف ، و ان احتجب الله للناس ، فى الصدر منه ما علا القرطاس بعد القرطاس ، الى ان بهى الانفاس عند الاناس ، وذلك من فضل الله علينا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، فلمَ نُعَنَّى[1] عنى ، ايدك الله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل ادرك السلف فى الدين الدرجات الا بالعمل الصالح ، واخلاص المعتقد والزهد الغالب ، فى كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرِج[2] ، وهوى صاحبه الى الهبوط ، وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة الا بالاقتصاد فى السعى ، الا الرضى بالميسور ، والا بذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ، فاين تُذهب بنا ؟ وعلى اى باب نحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب الا كجامع الفضة والذهب ، وهل المنهوم بها الا كالحريص الجشع عليها ، وهل المغرم بحبها الا كمكاثرها ؟ هيهات ، الرحيل والله قريب ، والثواء قليل ، والمضجع مقضٌ ، والمُقام ممض[3] ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ، والاغترار غالب ، والله من وراء هذا كله طالب نسال الله تعالى رحمة يظلنا جناحها ، ويسهل علينا فى هذه العاجلة غدوها ورواحها ، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته ، بعد ان حصل تحت قدرته »

وختم كتابه بقوله « على انى لو علمت فى اى حال غلب على ما فعلته ، وعند اى مرض ، وعلى اية عسر وفاقة ، لعرفت من عذرى اضعاف ما ابديه ، واحتججت لى باكثر مما نشرته وطويته ، واذا انتهت الخاطر علمت ان الله جل وعز فى خلقه احكاماً ، لا يعارُ عليها ولا يغالب فيها ، لانه لا يبلغ كنهها ،

(١) نعنى تعب واعيا وعيا
(٢) الزبرج بالكسر الزينة بالوشى او الجوهر
(٣) مضه الشىء مضا ومضيضا بلغ من قلبه الحزن كامضه

رلا سال عهها[1] ولا نعرف قلسها[2] ، ولا نعرع نابها ، وهو سالى املاك لنواصدنا ، راطلع على اداسا وافاصدنا ، له الخلق والامر ، و سده الكسر والحبر ، رعلنا الصمت والصبر ، إلى ان نوار سا اللحد والقبر والسلام »

كتب هذا الكتاب فى سهر رمصان سنه أر بعمانه ، وكسف به العطا ءس محا حعا ب عصره ، والم فمه اى المام عما حداه على نعمه امره ، لما الى ن الاىكار ، ونااله من اهل حىله ، فهص[3] عما هُض ، وأرعج عما أرعج ، ولولا ان السو ىداء علىب عليه ناقراره ، والباس من الحياه و نىها سد عليه مسالكه ، ور ب له انسان ما ابى — ر ىساب الافكار ، اعلى من كل عمار رىصار — لما أقمص له معدره ، رلا أسـ ل على دىىه ستر المعفره ، رنالسو ىدا قد ىهلك المر اعز حىدب على قا ه ، حى اذا ىاب اليه عقله ىدم على فعلىه ، ىالمرء الصمرا ود ىمىل ىعسه ، والنفس اعر الاعلاق على الاصلاق راا وحدى م هذا لم ىاب ىدعاً فرياً[4] ، ولعمله اسىاه رطار ، ىعد ان الرمن الدى فلىه كل معلب ، رعىره فى اعطاف الم سعلب ، واحرجه من حلده ، ر ما به عن طوره ، عما رآه من حب رحَىب ، وعَىت رعَىب ، لم رص ان ىسلب حمىع حراهره رعوده ىسمىع ىدَ ىِ ( ) من دررِه اهـل الاحىال المقىله ، على نحو ما اسمع مها ا ىه الاعصر اا ره ىمصى له من ول الىاىم الدى عىده لا حرق ى مه ن ول ارراقوب رالطامون اسعاره ر ىدافى فى ىسحه وافىىم ممه ب حا ء هده اا ممه الصالحه من افكاره اى حمطت ذكراه عى كر ر لاعصار ، صارب كل طار فى الاقطار والامصار

---

(١) صاىىا (٢) محس كل سى (٣) اسحب النفسح
( ) عى ىكى لام محسن المصـ ع ر عطىم (٥) ىىه

و ان أعظم ما نسعد علىه فى هده الرساله قوله انه حمع أكثر كتبه للناس ، ولطلاب الفصل مىهم ، وعقد الرياسه ىىنهم وىىدان الحاه عندهم وقوله هذا ىنافى هَدى العلما ، فان العلم يراد لذاته ، وىالىاب الكتب ىُقصد به ىفع الناس ، وىىر ىفكر وىب حىمه ، وقد ىتوقع منها مأرب آخر ، هذا اذا كان ىريد ىعبارىه ما فهمناه منها ، فان هذا التصريح مما ىعاب عليه ، وما ىرى هده الافكار ىلىم مع الفلسفه والتصوف على انىا رأىنا ابا حىان فى ىعض أحواله و واقعه ىىل عىر هذا ، رانىاه ىقول وقد راى فى حامع الرصافه المعافا بن زكريا ىنام ىسىدىر الشمس فى ىوم سابٍ ، وىه من اىر الفقر والبوس والضر امر عظيم ، مع عزاره علمه ، واىساع أدىه ، وفضله المشهور ، و رفىعه ىصوف الالم ، سيما بالاىر والاخبار وسىر العرب وايامها فقال له مهلا ايها الشيخ وصبراً فانك ىعين الله ومرأى منه ومسمع ، وما حمع الله لاحد شرف العلم وعزّ المال فقال مالابد منه من الدنيا فليس منه ىد ، ثم قال

ىا محنه الدهر كفى — ان لم ىكفى فخفى

قد آن ان ىرحمنا — من طول هذا التشفى

طلبت حداً لنفسى — فقيل لى قد توفى

فلا علومى ىجدى — ولا صناعه كفى

ثور ىنال الثريا — وعالم متخفى

نموذجات من كتبه

ىطلب كتب أبى حيان أفكاراً متنوعة ، وفلسفه أناس كانت ىنسى أخبارهم ، لو لم ىقصد لىدوىنها ، وفى اقتناس صفحات فلسفة منها ىتحلى الوان ادبه

وسهولة سابه قال فى كتاب المحاضرات

ذكرت للوزير مناظرة جرت فى مجلس الوزير ابى الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات ، بين ابى سعيد السيرافى وابى بشر متى واختصرتها فقال لى اكتب هذه المناظرة على التمام ، فان شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبيه ، وبين هذين الشخصين بحضرة أولئك الاعلام ، ينبغى ان يغتنم سماعه ، ويوعى فوائده ، ولا يتهاون بشيء منه وكان فى جملة من حضر ذلك المجلس الذى انعقد سنة عشرين وثلاثمائه الخالدى وابن الاخشيد والكندى وابن أبى بشر وابن رباح وابن كعب وقدامه بن جعفر والزهرى وعلى بن عيسى بن الجراح وابو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمى وابن يحيى العلوى ورسول ابن طُغج من مصر والمرزبانى صاحب بنى سامان قال التوحيدى فقال لى الوزير ان ابو سعيد من ابى على ، وابن على بن عيسى منهما ، وابن ابن المرعى ا صاً ن الجماعه ، وكذلك المرزبانى وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه ؟ فكان منى الجواب ابو سعيد اجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وادخل فى كل باب ، واخرج عن كل طريق ، والزم للجاده الوسطى فى الدين والخلق ، وارى للحديث ، واقضى فى الاحكام ، وافقه فى الفتوى ، واحضر بركه على المجالس ، واظهر اثراً فى المقتبسه

وما جا فى هذه المناظره فى اللغات والترجمه ان لغه من اللغات لا تطابق لغه اخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها فى اسمائها و ... وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك فمن اين يجب ان نثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف ؟ بل انت الى ان تعرف اللغه العربيه احوج

ممك الى تعرف المعانى اليونانيه ، على ان المعانى لا تكون يونانيه ولا هنديه ، كما ان اللغات لا تكون فارسيه ولا عربيه ولا تركيه . . . قال ابو سعيد : فانت (اى متّى) اذاً لست تدعونا الى علم المنطق بل الى تعلم اللغة اليونانيه ، وانت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا الى لغة لا تفي بها وقد عفت منذ زمان طويل ، وباد اهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون اغراضهم بتصرفها ؟ على انك تنقل من السريانيه ، فما تقول فى معان متحوله بالنقل من لغة يونان الى لغة اخرى سريانيه ، ثم من هذه الى لغة أخرى عربيه ؟ قال متى : يونان وإن بادت مع لغتها فان الترجمه قد حفظت الأغراض ، وادت المعانى ، واخلصت الحقائق . قال ابو سعيد : اذا سلمنا لك أن الترجمه صدقت وما كذبت ، وقومت وما حرفت ، ووزنت وما حرفت ، وانها ما التاثت ، ولا حافت[1] ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا اخرت ، ولا اخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا باخص الخاص ، ولا باعم العام ، وان كان هذا لا يكون ، وليس فى طبائع اللغات ، ولا فى مقادير المعانى ؛ فكأنك تقول بعد هذا لا حجه الا عقول يونان ، ولا برهان الا ما وضعوه ، ولا حقيقه الا ما ابرزوه . قال متى : لا ولكنهم من بين الامم اصحاب عنايه بالحكمه ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه ؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، وفشا ما فشا ، من انواع العلم واصناف الصناعه ، ولم نجد هذا لغيرهم . قال ابو سعيد : اخطأت وتعصبت ، وملت مع الهوى ، فان العلم مبثوث فى العالم ولهذا قال القائل :

العلم فى العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

---

(١) حاف يحاف حيفا جار وظلم ، والتاث اختلط

وكذلك الصناعات مقصوصة على جميع من على حديد الارض ، ولهذا غاب علم في مكان دون مكان ، وكثرت صناعة في قمة دون صناعة ، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة ومع هذا فانما كان يصح قولك ويسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة من جميع الامم بالعصمة الغالبة ، والفطرة الطاهرة ، والبنية المخالفة ، وانهم لو ارادوا ان يخطئوا ما قدروا ، ولو قصدوا ان يكذبوا ما استطاعوا ، وان السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطا تبرأ منهم ، والفضائل صمدت باصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهل من يظنه بهم ، وعناد ممن يدعيه عليهم ، بل كانوا كغيرهم من الامم يصيبون في اشياء ، ويخطئون في اشياء ، ويصدقون في امور ، ويكذبون في امور ، ويحسنون في احوال ويسيئون في احوال

قال ابو حيان هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الشيخ الصالح باملائه ، وكان ابو سعيد روى لمعاً من هذه القصة ، وكان يقول لم احفظ على نفسي كل ما قلت ، ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا في الواح كانت معهم ومحابر ايضاً ، وقد اختل كثير منه قال علي بن عيسى وتقوض المجلس واهله معجبون من جاش ابي سعيد ، ولسانه المتصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده [illegible] عين الله عليك ايها الشيخ فقد ندّيت اكباداً ، واقررت عيوناً ، وبيضت وجوهاً ، وحكت طرازاً لا يبليه الزمان ولا يتطرق اليه الحدثان ، قال قلت لعلي بن عيسى وكم كانت سن ابي سعيد يومئذ ، قال مولده سنة ثمانين ومائتين ، كان له يوم المناظرة اربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه (١)

* * *

(١) [illegible] وهما عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين

نقل القفطى أن السبب فى تأليف التوحيدى كتاب الامتاع والمؤانسة أن أبا سليمان المنطقى استاذ التوحيدى فى الفلسفة — وكان منزله فى دار السلام معقل[١] أصحاب العلوم القديمة — كان لا يستطاعه عن الناس ، ولزومه مجلسه ، تشهى الاطلاع على أخبار الدولة ، وعلم ما يحدث فيها ، فكان من يغشاه من الأخلاء ، ينقل اليه بعض أخبارها ، وكان أبو حيان من بعض المختصين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار ، وبما علمه من ذلك ينقله اليه ويحاضره به ، ولأجله صنف كتاب الامتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى الوزارة قال وهو كتاب ممتع على الحقيقة ، لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة قال القفطى وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الامتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلا ملحفاً اه وفى الكلام الأخير صورة من صور مما كان يعاب على أخلاق أبى حيان ، وقد لا نجد المدافع معذرة ، فمذهب الطامع ومنزع التوحيدى واحد وهو ما قاله فى آخر كتاب أخلاق الوزيرين « ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السعيد المأمول فاقرة[٢] والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة[٣] ، والبخل ممن يبرأ منه بدعواه عجب » ومن الانصاف أن نقول ان التوحيدى أجاد كل الاجادة فى التعريف بالرجال ، ووقفنا على نفسياتهم وتراجمهم ، وليس هذا بالأمر السهل

ومن كتاب الامتاع « سأل الوزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدى

(١) المعقل الموضع (٢) الفاقرة الداهية
(٣) الجائحة الشدة والنازلة

فى حدود سـنة ٣٧٢ عن أحوال الصفاء بقوله : انى لا ازال اسمع من زيد بن رفاعة قولاً يرتبى ، ومذهباً لا عهد لى به ، وكناية عما لا أحققه ، واشارة الى ما لا يوضح شىء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم ان الباء لم ينقط من تحت واحدة الا لسبب ، والتاء لم ينقط من فوق اثنين الا لعلة ، والالف لم تعجم الا لغرض واشباه هذا . وأشهد منه فى عرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، ويتفتح بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته[1] ؟ فقد بلغنى يا أبا حيان انك تغشاه وتجالس اليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر عجيبة ؟ ومن طال عشرته لانسان صدقت خبرته ، وامكن اطلاعه على مستكن رأيه . . . خافى مذهبه . فقلت : ايها الوزير ، انت الذى تعرفه قبلى قديماً وحديثاً بالاختبار والاستخدام ، وله منك الأمرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال دع هذا وصفه لى . فقلت هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع فى قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ ايام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر فى الآراء والديانات ، وتصرف فى كل فن اما بالشدو[2] الموهم ، واما بالتوسط المفهم ، واما بالتناهى المفحم . قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت لا ينسب الى شىء ، ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شىء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه . وقد أقام بالبصرة زمناً طويلاً ، وصادف بها جماعة لاصناف العلم وانواع الصناعة ، منهم ابو سليمان محمد بن معشر البستى ، ويعرف بالمقدسى ، وابو الحسن على بن هرون الزنجانى ، وابو احمد المهرجانى ، والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت

---

(١) مذهبه ونسبه (٢) يشدو عليلا من كل كثير

على القُدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دُنِّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها « رسائل إخوان الصفاء » وكتموا فيها أسماءهم ، وبثوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق المموهة

قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة منها وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً ، واختبرها طويلاً ، ثم ردها عَلَيّ وقال تعبوا وما أغنوا ، ونَصِبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغَنّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا (1) ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة ، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات في الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة ، وهذا مرام دونه حَدَد (2) وقد تورّد (3)

(1) ثوب مفلفل موشى ، وهلهلوا : نسجوا نسجاً سخيفاً
(2) ممتنع باطل
(3) ورد : أشرف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله كالتورّد

على هذا و ل هؤلاء موم كانوا احد اساناً ، واحصر أسماناً ، واعظم اقداراً ، وارفع احطاراً ، وأرسع فوى ، واو ى صرا ، ولم سم لهم ما ارادوه ، ولا نا وا مه ما املوه ، وحصلوا على لوناب[1] فبيحه ، واطمحاب واصحه وحشه ، وعواقب محر به ، فقال له البحاري اس العماس ولم دلاك ابها الشيح ؟ فقال ان الشر يه ماحوده عن الله سر وحل ، بوساطه السفير ببه و بين الخلق ، من طريق الوحي وباب المباحاه ، سهاده الآيات ، وطهور المعجزات ، وفي اساسها ما لا سبيل الى البحث عنه والعرص فيه ، ولا بد من التسليم للمدعو اليه ، والا به عا ه ، وهناك سقط « لم » رسطل « كيف » و ىزول « هلا » ويدهب « لو وليت » في الريح الخ (عن تراجم الحكما) هده حمه حمه احوال الصفاء ، وصفها الدرحـ دى احمل وصف ما احلى فوله في ابن رفاعه انه بصرف في كل فن اما بالسدر الموهم ، واما بالرسط المفهم ، و اما بالتناهي المعجم

من كتاب تقريظ الجاحظ هدا الـكتاب نقل عنه ياقوت احياناً و نقل عنه الجرجاني في كنايات الادباء كما نقل ايضاً عن كتاب الدحاير والبصاير قال قراب بخط ابي حيان التوحيدي في كتابه الذي الفه في تقريط الجاحظ وقد دكر العلما الذين كانوا يصلون الجاحظ فقال و منهم علي بن عد ي الرمدي فانه لم ير مثله فط ىلا بعمه ولا يحتش لا استمرار ولا ساحس سلم د نحو وعراره في الكلام ، وتصرفاً بالالفاب ، واستحراحاً ل و ص ائب حاً المسكي مع باله وىبره ، ودس و ىمس ، وفصاحه وفقاهه ، وعفه وىطافه

ونقل ياقوت ايضاً جمله من هدا الـكتاب فقال ومنهم (اي ىن يقدمهم التوحيدي على الجاحظ ويفضلهم) ابو سعيد السيرافي سيخ اسيح مد

---

(١) اللوبه باصم ىحمى و هسح و س حمـ

الأئمه معرفه بالنحو ، والفقه ، واللغه ، والشعر ، والا روض ، والقوافى ، والقرآن ، والفرائض ، والحديث ، والـكلام ، والحساب ، والهندسه افتى فى جامع الرصافة خمسين سنه على مذهب ابى حنيفه فما وجد له خطا ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثه آلاف ورقه بخطه فى السليمانى ، فما جاراه فيه احد ، ولا سبقه الى تمامه انسان هذا مع الثقه والديانه والامانه والرزانه ، صام اربعين سنه وا كثر الدهر كله وهذا الـكتاب من عجائب التوحيدى ايضاً فانه على ما ظهر من هذين التوحيدين فيما نرى فى وصف السيرافى والرمانى أنه فضلهما على الجاحظ فى هذا الاختصاص وهذا موضع نظر ايضاً

مثال من كتابه الصداقه والصديق قال فى مقد مه « اللهم خذ بايدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد اعورنا ، وارزقنا الالفه التى بها نصلح القلوب ، وتنقى الجيوب ، حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين بشرائط الدين ، آخذين باطراف المروء ه ، آنفين من ملابسه ما يقدح فى ذات النفس ، مرتهنين للعاقبه التى لا بد من الشخوص اليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، انك تؤتى من تشاء ما تشاء

« سُمع منى فى وقت عدنيه السلام ، كلام فى الصداقه والعشره ، والمواخاه والالفه ، وما يلحق بها من الرعايه والحفاظ ، والوفا والمساعده ، والنصيحه والبذل ، والمواساه والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وعُفى اثره عند الخاص والعام ، وسئلت اثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجمله مما قال اهل الفضل والحكمه ، واصحاب الديانه والمروءه ، ليكون ذلك كله رساله تامه يمكن ان يستفاد منها ، وينتفع بها فى المعاش والمعاد وسمعت الخُوارزمى ابا بكر محمد

اس العباس الساعر البلبع تقول اللهم نفى سوق الوفاء فقد كسدت ، واصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى تبور الجهل ، كما بار العقل ، و موت النقص ، كما مات الفهم واقول اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الامل ، واستى الرجاء ، والفرج معدوم ، واظن أن الدا فى هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهوره ، والعجيح منه معتاد

« فاول ذلك انى قلت لابى سليمان محمد بن طاهر السجستانى إنى ارى بندك ر بن ابن سيار القاضى ارحه نفسه ، وصداقه عقله ، و ساعده طبيعه ، ومراناه خُلقه فمن ابن هـذا وكيف هو ؟ فقال با بى احاطت بنى به بعمه بى ، فاسعدنا طُما نينه وسكوناً لا بربان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فنسما بالطالع ، ومواقع الـكواكب ، مساكله عجيبه ، ومطاهره عن به حتى انا نلتقى كثيراً فى الارادات والاختيارات ، والشهوات والطلبات ، وربما زاربا و حدثنى باسباء حرب له بعـد افترافنا ن قبل ، فاجدها شبيهه بما ور حـد ب لى ى ذلك الاوان ، حتى كأنها قسامم نبى و بنه ، أو كانى هو فيها او هو انا ، وربما حد ه ر نا فحدثنى باحيها ، فتراها فى ذلك الوقت او و له مد ل ار بعده بطلل بال وراسه قد ملكه العجب من هذا وسمه حد ه عما هسمه من ورى الفلك ، ن سيمما واحده عن ما مس منسو به ، ار قربه من البشرى ، فعجب وازداد صبره فى خلاص ا سد فيه ر توكيد العلاقه فقلت لابى سليمان كيف سبح هـذا ا ب مصـ ملك فى ملسه صد رب ماجريه من الحكمه ربتسب[1] مجمعه من حد و رحد صلب فى

---

(١) ــ ــه ــه ب

الغوامض والدقائق ، وذاك رجل في عداد القضاة ، وجلة الحكام ، وأصحاب
الفتاوى ، ومخاصمة[1] الظاهر الذي عليه الجمهور ، ومآخذه ما عليه السواد الأعظم ؟
فقال : هذا هو الذي انفردنا عنه ، بعد أن ازدوجنا عليه ، والأصل أبداً مخالف
للفرع ، لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان شيخنا به
خالياً من قوة رجل ، فتقرّر في جلة القضاة ، وكان السيرى لي مفيداً من رجل
فطورت بما ترى ، فجمعنا الشأن كله على العلم ، وفرّقنا الاختلاف بالفهم

قلت : هذا والله طريف ، وما يزيد في طرافته أنك من سجستان وهو
من الصيمرة ، فقال : الأمكنة في الفلك أشد تقارباً من الخاتم في إصبعك ،
وليس لها هناك هذا البعد الذي نجده بالمسافة الأرضية ، من بلد إلى بلد ، فراسخ
تقطع ، وجبال تعلى ، وبحار تُخرق ، فقلت : هل تجد عليه في شيء أو يجد
عليك في شيء ؟ فقال : وجدتي به في الأول ، قد حجبني عن وجدتي عليه في
الثاني ، على أنه يكني مني فيما خالف هواي بالمحجة الصقيلة ، وأُكنّي أنا أيضاً
منه في مثل ذلك بالإشارة الفلانية ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق
الكناية عن غيرنا ، كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا في ذاك مقنع ،
وإليه مفزع ، وقلما نجتمع إلا ويحدثني عني بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى
سمعي ، ولا ندّت عن صدري إلى لفظي ، وذاك للصفاء الذي نتساهمه ، والوفاء
الذي نتقاسمه ، والباطن الذي نثق عليه ، والظاهر الذي نرجع إليه ، والأصل
الذي رسخنا فيه ، والفرع الذي تشعبنا به ، والله ما يسرني بصداقته حُمر النَعم
ولا أجد بها عناني ما أجد عنائي لي ، وإذا كنت أعشق الحياة لأني بها
أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وحتى لي زينها ، وجانب إلى
زينها ، وخلط بي طيبها وحلاوتها

(١) المخاصمة ما جرّ الناس فيه متناوركانا وخاض العمران أفحمها

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب ، واما انا فما عرفته الا قاضياً جليلا صاحب جدّ ويعجم ، ويوقر ويعظم ، وكان مع ذلك بسط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعاني ، ممد المرامي يذهب مذهب أبي حنيفة

« ثم قال ابو سليمان الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة ، شديدة الاستحالة ، وصاحبها من صاحبه في غرور ، والزلة فيها غير ما ونة ، وكسرها غير محبور قال فاما الملوك فقد خَلُّوا عن الصداقة ، ولذلك لا يصح لهم احكامها ، ولا يوفى بعهودها ، و انما امورهم جارية على القدرة والقهر والهوى ، والشا ق والاستحلا والاستحقاق ، واما خدمهم واولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم ، وبهاية الشا كلة لهم لانتسابهم[1] بهم ، وانتسابهم اليهم ، ونزوع طورهم عما يصدر عنهم ، ويرد عليهم واما التنا[2] واصحاب الصناع فليسوا في هذا الحديث في شيء ولا نفير واما التجار فكسب الدوا في سد نيتهم و بين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة واما اصحاب الدين والورع ، فعلى قلتهم ، ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم اياها على التقوى ، وتأسيسها على احكام الحرج ، وطلب سلامة العقبى واما الكتاب واهل العلم فانهم اذا خلوا من التنافس والتحاسد ، والتماري والتماحك ، فربما صحت لهم الصداقة ، وظهر منهم الوفا ، وذلك قليل ، وهذا القليل من الاصل القليل واما اصحاب المذاب وامطة عب[3]

---

(١) انسب به اعلق

(٢) الثاني الشاكي ، وشا اهم

(٣) استطف بعض خون به صاحبه في كل او ورب ، والمطفون الذين يعصون المكاب والمحراب ، والمذاب جمع مدنة بكسر الميم ما يذب به الذباب وهي هنه سوى من هلب الفرس ، وعال ا نامها مذابها ، وهو مجاز

فإنها زِحرِحه[1] من الناس لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعى فتسر ، ولذلك قيل لهم همج ورَعَاع ، واوباش وأوباس[2] ولعنف[3] ورعاع ودواصّه[4] وسُقّاط وأنذال وغوغاء ، لانهم من دقة الهمم ، وخساسة النفوس ، ولؤم الطباع ، على حال لا يجوز ان يكونوا فى جملة المذكورين ، وعصابة المشهورين فلهذه الامور الحائلة عن معارفها ، الرافعة إلى غير جهاتها ، علل واسباب ، لو نفس الزمان قليلاً لكنا نبسط لشرحها ، وذكر ما قد انى النسيان عليه ، وعفى اثره الاهمال ، وشغل عنه طلب القوت ، ومن ابن نظفر بالغداء ، من كان عاجزاً عن الحاجة ، وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ، وكيف يحتال فى حصول طِرِّين[5] للسير لا للتحمل ، وكيف يهرب من السر المقبل ، وكيف يهرول وراء الخير المدبر ، وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويشكى الى غير رحيم ، ولكن حال الجريض دون القريض[6]

« ومن العجب والبديع انا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والاسف والحسرة والغيظ ، والكمد والومد[7] ، وكانى بغيرك اذا قراها بعد تصب نفسه عنها ، وامرّ نقده عليها ، وانكر علىّ التطويل والتهويل بها وانا اسرت بهذا الى غيرك ، لانك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك ، وذلك

---

(١) الزحرحة نفيه ما يخلط بطين فى اسفل الحوض ، ويطلق على الحمقى والمهازيل

(٢) الوبش القليل من كل شئ ورذال الناس ، ولعلها الاوقاس وهم الأوباش ايضا

(٣) اللعف من يأكل مع اللصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم

(٤) جمع داعص وهو اللص أو من يتبع الولا

(٥) الطمر بكسر الطا الثوب الخلق

(٦) الجريض الغصة من الجرض وهو الريق والقريض الشعر ، واصل المثل أن رجلا كان له ابن نبغ فى الشعر فنهاه ابوه عن ذلك فجاش به صدره ومرض حتى اشرف على الهلاك فاذن له ابوه فى قول الشعر ، فقال هذا القول (٧) الغضب

لعلمك بحالى ، واطلاعك على دخلى ، واسمرارى على هذا الابعاص والمور الدين ود نقصا قوى ، وىكثا مرّى[1] ، وأفسدا حمانى ، وفربانى بالأسى ، وحصانى عن الا ى[2] ، لانى فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا ارى الى جنبى من يصلى معى ، فان اتفق فبقال او عصار ، او نداف او قصاب ، ومن اذا وقف الى جانبى اسدرنى[3] بصنانه ، راسكرنى ننمه فقد امسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخُلُق ، مستانساً بالوحشة ، قانعاً بالوَحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للاذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بدّ من حلوله ، فشمس العمر على سفا ، وماء الحيا الى نضوب ، ونجم العيش الى أفول ، وظل النا ب الى قلوص »

قال التوحيدى بعد ذكر هذه المقدمة ان سبب انشائه هذه الرسالة فى الصداقة والصديق انه ذكر « شيئاً منها لزيد بن رفاعة ابى الخير فنماه الى ابن سعدان الوزير ابى عبد الله سنة احدى وسبعين وثلثمائة ، قبل تحمله اعباء الدولة وتدبيره امر الوزارة ، حين كانت الاشغال جمعه ، والاحوال على اذلالها[4] جارية » ، فاشار عليه ابن سعدان بتدوينه ، جمع هذه الرسالة ، وابطا عن تحريرها ، فلما مرّ على ذلك بعض سنين عثر على المسودة وبيضها

وقال فى مكان آخر « قد اتيت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاق والخلاف ، والهجر والسلوة ، والعتب والرضا

(١) الد نكسه ابم فو اخى رسدمه
(٢) الاسى سح الحزن والاسى امح راسم رحمها سو م باسى به اسى ن
(٣) اسدرى حـ ى واسمادر ـ (٤) فى سن حر امور على
اذلالها اى ى وحـ هها ى نصح و سسل ر سـ رحد ادلاء سكسه

والمدق[1] والاخلاص ، والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستمانة والإباء ، والاستكانة والاجتحاح والاعتدار ولو امكن لكان يأتى ذلك كله اسم ما هو عليه ، وأحرى الى الغاية فى ضم الشئ الى شكله ، وحبسه فى قالبه ، فكان ريعه اتى ، ووقعه احسن ، ولكن العذر قد تقدم ولو اردنا ايضاً ان نجمع ما قاله كل ناظم فى شعره ، وكل ناثر من لفظه ، لكان ذلك عسيراً بل متعذراً ، فإن انفاس الناس فى هذا الباب طويلة ، وما من احد الا وله فى هذا الفن حصة ، لانه لا يخلو احد من جار او معامل او حميم او صاحب ، او رفيق او سكن او حبيب او صديق او الف ، او قريب او بعيد او ولى او حافظ كما لا يخلو ايضاً من عدو او كاشح او مداج او مكاشف ، او حاسد او شامت ، او منافق او مريب ، او مباين او معاند ، أو مزيل او مصل او معل وقد قال الاوائل الانسان مدنى بالطبع ، وبيان هذا انه لا بد له من الاعانة والاستعانة ، لانه لا يكمل وحده لجمع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه ، وهذا ظاهر ، واذا كان مدنياً بالطبع كما قيل ، فالواجب ما يعرض فى اصناف ذلك من الاخذ والعطاء ، والمجاورة والمحاورة ، والمخالطة والمعاشرة ، ما يكون سبباً لاطفاء الحال ، او يكون سبباً لانتشار الامر ، ولا محالة ان هذه واشباهها تبعث بالناس الى حمل ما بعثه هؤلاء الذين رويا نظمهم ونثرهم ، وكذا حورهم واصابتهم ، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه ، وعيون ما ذكروه ونشروه ، وتروى فى هذا الموضع نبعة آداب وان عن يخ حكماء ، وعلى الرسالة فانها اذا طالت أتعبت ، واذا أتعبت هربت اه

وهذا النموذج الذى اوردناه من الصداقة والصديق كاف فى الحكم على

[1] مدق الود لم تخلصه

أسلوبه والروح الذى نزع إليه فى بالغه وملاحظه التوحيدى على اسلاف المصادر فى العلم ، والتمسل بصداقه أستاذه ابى سليمان المنطقى وصد به ابن سعدان الماضى ، ووصف ابى سليمان وصفاً دقيقاً للصلات التى عقدت بين قلبهما ، ثم ابداعه فى وصف طبقات الاصدقاء ، كل ذلك من جمل الوصف ، و الى اليوم ما احدل هذا المقسم ، وان رايت الوفاء والصداقه فى النادر الشاذ و ب ابدع الصفحات وصف عزيته فى أمه ، عزيه الفكر والاجتماع والا حله والخلق والعاده ولا يدع فهو من حيد الوصف فى نفسه أهل عصره ، ومنزله اا الم من جمهور العامه[1] من احمل الاعذار اعتذاره عن طول هذه الرساله علماً منه ان مكانه الكتاب بمادته لا سعته ، ولكن اذا قضت الحال بالبسط بل اضطر المؤلف الى اطلاق عنان بيانه

* * *

وفى كتاب الصداقه والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله رايت ابن سعدان ينشد يوماً وقد استكر سيئاً من بعض الندما

عذر راح فى ثوب الصديق سر بلك فى الصبوح وفى الغبوق[2]

له وجهان ظاهره ابن عم باطنه ابن زانيه عتيق

يسرك ظاهراً ويسو سراً كذاك يكون ابنا الطريق

واما أسمى لك ندماءه ، واروى كلاماً له وصفهم به ثم ابو على عيسى ابن زرعه النصرانى المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، وابن الحجاج الشاعر ، وابو الوفاء المهندس ، وابن بكر ، وسكويه ، وابو القاسم الاهوازى ، بو بد

(١) اصل معنى الغوغا الجراد بعد ان ينبت جناحه او اذا انسلخ من الأرض وصار الى الجو وسمى به السفلة والمتسرعون الى الشر لكثرة لغطهم وهم من الناس وهم سكنه حسدهم كالعامه

(٢) الصبوح ما يشرب فى الصباح والغبوق ما يشرب عشى

بهرام بن أردسير وكان اورىهم عنده ، وألصقهم ىقلبه ابن ساهوىه هؤلا أهل المجلس سوى الطارىس من اهل الدوله لا فائده فى د كرهم قال زىد ىن رفاعه وكان قرىباً له من جهه الخوف له (؟) رأىت الوزىر اليوم ىصف ندما ه وكلام ىصلح ان ىكتب على الاحداق ، و ىعرض على اهل الآفاق ، لىسه ىده الصغىر والكبىر قال أصحابى طرائق قد د[1] ، كما قال عبد الحمىد الكاتب الناس احىاف مختلفون ، وأصناف متباىنون ، فمنهم عِلق[2] مضنه لا ىباع ، ومنهم غُل[3] مظنه لا ىباع وكما قال الآخر

الناس اخىاف وشتى فى الشىم وكلهم ىجمعهم ىىت الأدم

فاما ابن زرعه فكبىره بالحكمه ، وحىلاوه بالثروه ، قد قدحا فى حاق[4] عقله ، وهو لا ىحس ىذلك القدح ، فلىس لنا منه اذا جالسنا الا النفخ والتعظم ، والتهوىل بارسطاطالىس وافلاطون وسقراط و ىقراط وفلان وفلان ، ومجالس السراب ىتحاىى عن هولاء ، وهؤلا ىجلون عن مجالس الشراب ىا نائم ىا غافل ىا ساهى ، واىن انت من هولا الحكما القدما ، اسىرىك سىرهم ، احالك حالهم ؟ انما ىدعى عقائدهم باللسان ، وىىتحل اسماءهم باللفظ ، فاذا جا ب الحقىقه كتب على السط ىلعب بالرمل ، ولولا انه ىكذر هزل جدنا ىجد هزله ، لكان محمولاً مقبولاً ، ولكنه ىابى الا ما الفه ، واقاد المران علىه

واما ابن عبىد فكلفه بالخطابه والبلاغه والرسائل والفصاحه قد طرحه فى عمق لج لا مطمع فى انقاذه منه ، ولا طرىق الى صرفه عنه ، هذا مع حركات

(١) طرائق قدد فرق مختلفه أهواوها

(٢) النفىس من كل شى ج أعلاق وعلوق

(٣) ىىر من جلد او حدىد ىجعل فى عنق الاسىر ومنه قىل للمرأ السىئه الخلق غل قَمِل

( ) وسط عقله

عير مساسه ، وشمايل عير دمسه ، ومساطرة محلوطه بدله اهل الدمه ، ودالة اصحاب الححه

واما ان الحجاج فمـد حمع بين حد القاصى أبى عمر فى حلسه وحديثه وقيامه وتحطئه ، مع حماء كا به مسعار من العامه الشريفه ، وبين سحف سعره الدى لا يحرر ان يكون لراو يه مررءة به فـكيف لمائله ، فنحن ادا نظرنا اليه بحيلنا صوره سحف شوهاء ، فى صورة عقل حسناء ، ولا تخلص هده من هده ، ولا حرم احماعا به ، فاصرعن مراديا منه ، ودونه مما بان عن مراده له أما الرياء فهو رالله ما يعهد به عن المؤانسه الطيبه ، والمساعدة المطربه ، والمفاكهه اللديده ، رالموانا السهيه ، الا ان لفطه حراسانى ، و اساريه نافصه ، هـدا مع ما اسمادة بعمامه الطويل سعداد ، والبعدادى ادا « محرس » كان احلى واطرف من الحراسانى ادا « بعدد » و ان سئت فصع الاعسار على من اردت فانك تجد هدا القول حما ، وهده الدعوى مسموعه

واما مسكر يه فانه يسرد بدمامه خلقه ما يكلفه من مهدب خُلقه ، وا كره له المساعيه فى كل ما يحرى ، لا بحد فى بعسه من المكانه والقرار ما يعلم معه ان مصاءه فى فن هو فيه طويل الدبل ، مديد السبل ، لا يادن له فى ، اطى ولا آحر هو فيه فصير الباع ، بليد الطبع ، وصاحب هـدا الراى كر يه ، مصاب يحمد رايه وقد افسده قال الهلى ، قال ابن العميد ، وفعل ابن العميد ، وما ـ كره لهدين الا اسطاله على الحاصرين ، والتسمع بدكر الرحال واصع من قدر الرحال

راما ابن بكر فهو بعمه المحلس ، ولا بد للدار ان كانت قدرا [1] من

(١) اعور اسعه

مح ح ، وهو مجهله ، مع حمه ررحه رقيح وجهه ، ادحل فى العس ، والصق بالقلب من عىره ، مع علمه و مل روحه ، وحسن ظاهره

واما الأهوازى ابو القاسم فلا حلاوه ولا مراره ، ولا حرصه ولا ملوحه ، و اىما هو كالنصل فى القِدر ، وكالإصبع الزائد فى الىد ، على انا برعى ىه حماً قدىماً ، ررحمه الآن رحمه حدىده

وأما سىدى ابو سعد فوالله انى لاحد به وحداً ابهم وه ه ى ، وما وحدىـ ألم سهر معه قط ، و انى ارى حدىه آنق من الىى اذا أدركت ، و ن الدىيا اذا مُلىكت و ان عارُحىا بالعقل والروح ، والراى رالىدىر ، وا طر والاراد ، والاحسار والعاد ، لىرىد على حال ىوا ىن را كىصا فى رحم ، وىراصعا من ىدى ، وىوعيا فى مهد ، وما احوفىى ان ىؤتى من حهى ، او أوتى من حهىه ، و ان عاقىبه موصوله ىعاقىى ، لانى مأمىه وهو ا ى ، ما ا كىر ما ىوتى الاىسان من مامىه ، والله المسىعان

واما ابن ساهو ىه فسىح لىس لىا فىه فاىده الا ما ىلىق المىا ب محاره ومساهداىه ، ولولا رىادىه الىى ىصىع ـ ـا من ىفسه ، رىعص ن حطراىه ، لكان هَذِك[1] من رحل ، ولـكن من لك بالمهدب ، الم ىعل الاول اى الرحال المهذب

قال ر ىد ن رفاعه قلت ابها الور ر ان طلوعك فى خىاىا ضمائرهم ، وعلمك بخىاىا سرائرهم ، ىطالبانك بالافراح عىهم ، ووله الا كىراب بهم ، قال لا ه ل والله ما لهذه الجماعه بالعراق سكل ولا ىطىر ، رانهم لاعىان اهل الفضل ، وساده ذوى العقل ، و اذا خلا العراق منهم ورن[2] على الحكمه المروىه ،

(١) هذل حسل

(٢) العرىن ىسود مواضع فى الحساىات ىىا ىوهم انها ىيصب كى لاىقع فىها حساب

والادب المهادَى ، اىطن ان حمع ىدما الهلى ىعون ىواحد من هؤلا ، او لا ىعدو
أن حمع اصحاب ابن العميد ىشهون اقل من فهم ؟ قال قلت هـذا ابن عباد
بالرى رهو من ىعرف و ىسمع قال وىحك ! وهل عىىد ابن عباد إلا اصحاب
الحدل الدىن ىسعون و ىحمعون و ىصالحون ، وهو فىما ىىىهم ىصىح و ىعول قال
سىحاىا ابو على وابو هاشم ، دعىا من حدىىه وعىاىه وىسعىده ، فما احب ان
ارىد فى رصفه على ما اسرىـ الىـه ، راللّه لو ىصدى انسان متوسط فى العلم
والادب رالحىكه رالا ساف لدكر ساىه سىرىه ، ورصف حاله رطرىعه ، لحكى
كل عرىىه ، راى ىكل اعجرىه الرجل محدود ، رى رمره اهل الفصل معدد

قال ور ب هدا الخبر على ما اىعى ركب اطلب له مكاناً ممد رمان فلم
احد الا هده الرسالة الآنه على حدىث الصداقه رالصدىق اهـ »

عرفنا ىهذا الضرب من التدوين طىعه رافىه من الهد فى عصرا حدى
رما عمرهم ىه العامر ن ، راى مىاىهم المعاىون ، رلو كىت ما الاطلاع على
حمىع ما كتبه ابو حىان فى كتبه لجاب السلسله ىا ه ن كل رحه فى الحكم
على اهل القرن الرابع فى بعداد ، وا دل الحكم علىهم وانقص احكامه احكام
بعض من ملوا تراجمهم ، كانـا حكم مسَمَّط[1] لا ىبعض

فى معدمه كتابه عرائب الىو « اطال الله ىعـ كم اد كرا »
رحرس ىعمه علىكم ، رحفط مواهبه لدىكم ، ولا احلاكم من عوىده الحسنه
ر والده الكرىمه ، جعل حظ العىب السلامه ىىىكم ، اذا فاىه العىىمه مىكم ،
رود كان ىعال من لم ىصب ابعىسه ىاصراً ، لم ىحب لىى جاسه مع حمراً ى
لم ىعف عىد العطىمه مىصعاً ، لم ىرج عىد الىواىب مىىعاً ، ن لم ىاىف ن

---

(١) حكمك مسمطا اى مىما اى لىس حكمك مسمطا

المدع فى عرضه آيباً ، لم يبت على الحسف الا راضياً ، والعصب و ان كان مذموماً عسد بعض الخلال ، فانه محمود فى بعض الاحوال ، وكما ان استمرار العصب فى جميع الاحوال ، نوع من فساد الاخلاق ، كذلك أيضاً الرضا فى جميع الأمور ، ضرب من ضروب النفاق ، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب ، كما انه لا بد من التردد بين الراحه والتعب

« وقد كنت احب اصدقائى وجلسائى ، ومن يأنس بمكانى ، ان لا يحمل اللّحاح مطيه ، والمَحلَ(١) والمكر طويه ، فان ذلك احسن له عند الله ، وازين له عند الناس ، ومن بعد ذلك فانى لم ارد بلادكم من العراق مباهياً لكم ، ولا حضرت مجالسكم طامعاً فيكم ، ولا بارحت عنكم متطاولاً عليكم ، ولا ... مساويكم شامتاً بكم ، بل وردت مستفيداً ومفيداً ، و ناصحاً و مسترشداً ، فما هذا الذى يلغى عن بعضكم ، على حسن توقرى على صغيركم وكبيركم ، اما انه لو انصف لعلم انى الى سمحه ، احوج منى الى نصيحه ، وهو بمجاملته اسعد منى بجادلته ، وانا لاحسانه ، اشكر منى لامتحانه ، وهذا باب باطنه ظاهر ، وشاهده حاضر ، وجهه جلى ، ولكن ما اصنع والشاعر يقول « انما لا بد ما رزقا »

« ولعمرى ما زال الناس يتبادرن التهادى والتعارف ، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر ، والترادف والتناصر ، والذى هاجنى لهذه الشكوى ، واحوجنى الى هذه العدوى ، قول قائل منكم ، ليس للمنطق مدخل فى الفقه ، ولا للفلسفه اتصال بالدين ، ولا للحكمه تاثير فى الاحكام ، وهذا كلام من لو انعم النظر ، وانعم مضى الحال ، لوقف على ما عليه وله ، وعرف ماله منه فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، و بالمنازعه خلاقاً(٢) ،

(١) المحل المكر والكيد (٢) الخلاق كسحاب النصيب ، الوافر من الخير

عاب هذا الرجل المنطق وهَجَّن طريقة الاوائل ، وزرى على الحكمة ، وفَيَّل[1] رأى الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ، وهذا كله ان لم يكن الله سو محصل ، فانه يوشك ان يكون ضيق عطن ، وحرج صدر ، ومجازفة فى القول ، وانحرافاً عن الصواب ، واماماً من الاعتساف الخ ، وربما نيل من عرض صاحبها ، وامحى باللائمة عليه من اجلها ، وهو فيما لا يقصد الا الخير ، ولا اراد إلا الرشاد ، وقد يؤتى الانسان من حيث لا يعلم ، ويرمى من حيث لا يدرى ، كما يؤتى من حيث لا يحتسب ، ويسهو وقد اسى ، ويدرك وقد غاب الامس »

وعاد فى آخر الرسالة يعتذر عن طولها « قد تكرر اعتذارى من طول هذه الرسالة ، وكان ظنى فى اولها انها تكون لطيفة خفيفة ، يسهل انتساخها وقراءتها ، فاجتذب بعضها الحديث ، وترادف من الطيب والحديث ، فاقبل ، حاطك الله ، هذا العذر الذى قد بدأته واعدته ، ونشرته وطويته ، على انك لو علمت فى اى وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى اى حال نسخت ، وما كان يدل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما صغر منها عندك يكبر بعقلك » اهـ

* * *

والحق ان رسالته فى الصداقة والصديق قد جمعت من آراء الناس الى عصره كل مأثور ورائق من المنظوم والمنثور فى وصفهما ولم يقتصر فى الرواية على حكم الاسلاميين ، بل تعدى الى افراد من الفلاسفة يونان ، فهى الرسالة التى ... الكتاب فى هذا الباب ، ما هو معتمد على عشرات الاحباب ، وقد ذكر انا ... المنطق وابا سعيد السيرافى عن مجلسه وروى عنهما ما دل على اعظم ... فى مجالسته ولا مراء فى ان رسالة الصداقة والصديق ، مرآة صادقة ... فيها

(١) فيل رأيه قبحه وخطأه

أفكار أربعة فرزن فى هذا النوع الصغير من الادب ، ولعله حوى مثل هذه الافكار زهد المعانى هى ولا شك اعنى اللعاب بادبها ووفرة مادتها وادائها وهذه الرسالة على ما اراها كتبها جماعة لقوم لم يفهموا مقصده من العلم ، ونالوا كلامه بحججهم عما كتب واجاد وجمع كتبه على ما ظهر مما دعا الى صنعه دواع خافية ، زامور جاشت بها صدره ، فهى معمولة بالمناسبات لا منه ، ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التى تحسها و تلمسها

من جملة كتب ابى حيان كتاب المقابسات ، واسمه صيغة تفاعل من قبس به او اقتبس علماً وخبراً اى أن كلا اقتبس صاحبه علماً ، وصاحبه اقتبس من علمه ذكر فيه ابو حيان ، وأكثر من محفوظه ، بعض ما رفع اليه من فلاسفة علماء مشهورين ، كانوا فى بغداد يختلفون الى مجلس صديقه وأستاذه ابى سليمان المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، وعنه اكثر مرويانه ، ويذاكرون فى موضوعات شتى فى الفلسفة او ما وراء الطبيعة والادب واكثرها على طريقة السؤال والجواب ، لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة ، وهذبت نفوسهم الآداب العالية ، يتباحثون بالافكار الصحيحة والسائدة ، ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم وكان فيهم المجوسى والصابى والنصرانى والنسطورى والملحد والمعتزلى والشافعى والسنى امثال ابى زكريا يحيى بن عدى وابى الفتح النوشجانى وابى محمد المقدسى العروضى وابى بكر القومسى وعيسى بن زرعة الرومى وابن بغداد وأبى القاسم الانطاكى ، وكان يعرف بالمجتبى ، وابى محمد الاندلسى النحوى وابى اسحق الصابى والخوارزمى الكاتب ووهب بن يعيش الرقى وابن سوار وماني المجوسى وابى الحسن محمد بن يوسف العامرى وعبد الكاتب والندبهى وابى اسحق النصيبى وابى على عيسى بن زرعة المنطقى و طاهر الكاتب وابى

الخطاب الكاتب وغيرهم « ن كل من هو واحد فى سأنه وفرد فى صناعته » ، وكان مذهبهم فى الفلسفة على الارجح مذهب ارسطاطاليس سأن معظم فلاسفة الاسلام ، امثال ثابت بن قرة وحنين بن اسحق و ثعه ب بن اسحق واحمد بن سهل البلخى ومسكويه والقمى والسرخسى والنيسابورى يطلقون فى جلساتهم الخاصة عنان افكارهم ، و يخرجون عن القيود الكنسية قاصدين الى هدف راجح ، رهو ... حقا و الاسما مجردة لا سوبها المؤثرات سان علما ا ا ... الاخيرة ر اذا اخذت تعريف كتاب المقاسات بمصطلح اهل هذا العصر فهل هو مختصر جلسات المجمع العلمى البغدادى فى القرن الرابع ، وكان لا يحضرها الا من يدعى اليها ، و يوافق من ا كثر الوجوه على ما اتى فيها

وهذه المجامع مثال ناطق بافصح بيان بان النصرانية لم تكن مضطهدة فى العهد العباسى كما زعم بعضهم ، بل ان الاسلام كان دين الدولة ، والبلاد لاهلها ، فكانت تحكم الطبقة كلها المسلمين هى العلما ، وقد ساووا عامة اهل المذاهب بانفسهم ، مساواة لم تصل اليها اكثر دول الحضارة الحديثة اليوم وعلى ذكر هذه المجالس لا باس بان نقول ان علماء العرب ما زحوا منذ الاعصر المتطاولة يتآلفون و يتسامرون فى اندية لهم خاصة ، تجمعهم حا ه الاعمال العقلية ، فيتقاربون و ان اختلفوا فى مظاهرهم ، وقد لا يخلو ... علية من بينهم ، يفسح صدر مجلسه لهم ، يستطلع طالع افكارهم ، و ... و يناصرونه ، و يعطف عليهم و يعطفون عليه وقد تكون مجالسهم ... لها من اهل الدولة من يحميها ، او تكون للسمر والادب واللهو ... ومعظم ما ساهى البنا من اخبارها مفقود

سئل ابو سليمان المنطقى لِمَ لم يصف التوحيدى فى الشريعة ...

الظنون وأمثلة الألفاظ ، كما صنعنا ذلك في الفلسفة فقال: إنا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم وعرف حقيقة أقوال متقدميهم ، بل كان في القوم من رأى رأى العامة ، وحط إلى ما حطت إليه ، ولم يتبين منهم كبير شيء مع قدم الزمان ، ولغا المخمس الفاضلين ، وهذا إذا حل لا يكون قادحاً فيما نقصناه من القول في حقائق التوحيد الذي ظفر به خلصان الحكمة ، وفرسان الصناعة على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالا لا يخفى على أحد ولو كانت معاني يونان تهجس[1] في أنفس العرب ، مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع ، وافتنانها الماجر ، وسعتها المشهورة ، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب[2] ، وكاملة بلا نقص ، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم ، كان ذلك أيضاً نافعاً للغليل ، وناهجاً للدليل ، ومبلغاً إلى الحد المطلوب ، ولكن لا بد في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها ، وخفايا لا يهتدي أحد من البشر إليها ، وذلك للعجز الموروث عن الهيولى ، والضعف الثابت في الطينة الأولى ، وهذا لكي يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ، ومعاذاً للعالم

قال أبو حيان لأبي سليمان: ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة ؟ فقال: ما هو ظاهر لكل ذي عقل وعمل وفهم ، وطريقتهم موسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشيء بالشيء ، إما بشهادة من العقل مدخولة ، وإما بغير شهادة منه البتة ، والاعتماد على الجدل ، وعلى ما يسبق إلى الحس ، أو يحكم به العيان ، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل

---

(١) هجس الشيء في صدر: خطر باله (٢) الشوب: الخلط

مع الالف والعاده والمنسإ ، وسائر الأعراض التي تطول إحصاوها ، و سوى الانسان عليها ، وكل دلك سعلق بالمغالطه والىدافع ، و اسكات الخصم بما اتفق ، و ابهام القول الذى لا محصول فيه ، ولا مرجوع له ، مع نوادر لا تليق بالعلم ، رمع سوء ادب كثير ، ثم رمع قلة بالة ، وسوء ديانه ، وفساد دخلة ، ورفض الورع سحمله والفلسفه أدام الله توفيقك محدوده محدود سـمه ، كلها تدلك على انها بحث عن جميعها فى العالم من ظاهر النفس ، و باطن للعقل ، ومركب بيهما ، ومائل الى حد طرفيهما ، على ما هو عليه ، واستفاده اعتبار الحق فى حمله رتفصيله ، ومسموعه ومرئيه ، وموجوده ومعدومه ، من غير هوى مال به على العقل ، ولا الف يعمر معه جنابه التقليد ، مع احكام الا على الاختيارى ، وترتيب العقل الطبيعى ، وتحصيل ما بد وانهاب ، من غير ان تكون اوا لى دلك موجوده حساً وعياناً ، ركانت محمه عقلاً و بياناً ، ومع اخلاق الهيه واختيارات علويه ، وسياسات عقليه ، ومع اسماء كثيره تطول دكرها و تعدادها ، ولا يبلغ اقصى ما لها من جمعها فى سردها

ثم قال رکان سـ حنا يحيى بن عدى يقول انى لاعجب كثيراً من قول اصحابنا اذا جمعنا رايام مجلس نحن المتكلمون ونحن ارباب الكلام والكلام لنا بنا كثر وانتشر ، رصح رظهر ، كان سائر الناس لا يتكلمون ، ر انهم اهل كلام ، لعلهم عند المتكلمين خرس ربكم ب اما سكنا نا و اه ه رالنحوى رالطبيب رالمهندس رالمنطقى والمنجم الطبيعى رالالهى رالحدثى رالصوفى قال رکان يلهج بهذا وكان بلم ان القو قد احدثوا لا سمهم أصلا حو ما يدعونه محمولاً عليها ومسر لأ عن عرفها ران كنت ا ـ ـ ب محرى ع ـ ومن جهتهم ، مصدهم مره ، بعير قصدك حرى

قال ابو حيان روى لابى سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يحكه ولم يهس عنده وقال لو قلت انا فى هذه الطريقة شيئاً لقلت الحواس مالك ، والاوهام مسالك ، والعقول ممالك ، فمن خلص نفسه من المهالك ، قوى على المسالك ، ومن قوى على المسالك ، اشرف على المهالك ، شرفاً يوصله الى الممالك قال أبو الخطاب الكاتب ايها الشيخ هذا والله احسن من كل ما سمع منهم ، فلو زدتنا منه ، فقال الحواس مصله ، والاوهام مزله ، والعقل مدله فمن اهتدى فى الاول رشد فى الثانى ادرك فى الثالث ، ومن ادرك فى الثالث فقد افلح ، ومن ضل فى الاول وزل فى الثانى خاف ، ومن خاف فى الثالث فهو من الهمج واستزاده مطهر الكاتب البغدادى فاستعفى قال هذا حديث قوم اناخوا بنا على بعض المساكنه الى ان قال فسبحان من له القدرة وهذه الحكمه ، وهذه الاسرار فى هذه الطريقة اهـ

على هـذا النحو كانوا يمضون فى احاديثهم ، فقد صرح احدهم عما يراد فى التصوف فلم يحط منه ولا من المتصوفين الـه ، وتناول آخر المتكلمين فى سير ما يدلس ويأدب معهم ، والمتكلم غير مسلم ، لكن العلم سماح لاهل كل مذهب ، ولم يحمل كلامه على غير محمله وقال آخر فى الفلسفه ، وامتدح من معانى اليونان ، وقال لو كتبت باللسان العربى لكانت غيرها ، وهذه هى الحرية المطلقه ، ولولاها ما عاش علم صالح ، ولا اسعف عقل راجح ، ولا كانت حضارة هذه الامه مما ترفع به الرؤوس ، و يقال فيها على الدهر لا عطر بعد عروس

قال فى مقدمة كتابه الاشارات الالهيه مخاطباً النفس اللهم انا نسالك ما نسأل ، لا عن ثقة بنفاسة وجوهنا عندك ، وافعالنا معك ، وسوالف احساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعه ، نعم وعن

توحيد لا يشوبه اشراك ، ومعرفة لا يخالطها انكار ، وإن كانت أعمار قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، سألك أن لا ترد علينا هذه النعمة بك ، فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة اليك ، يا حافظ الاسرار ، ويا مسبل الاستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشى الاحجار ، ويا مولج الليل فى النهار ، ويا مصافى الأخيار ، ويا مدارى الاسرار ، ويا منقذ الأبرار ، من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ، واعفنا عند سابغ صرعاتنا ، وحطه حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وان لم نكن لانفسنا ، لانك اولى بنا ، واذا حفنا منك فارح[1] خوفنا منك رجائنا ولك ، واذا غلب علينا ياسنا منك فلقه بالامل فيك

ومن فصوله فيه ايها المجاور ، والصديق المحاور ، كيف اتكلم ، والفؤاد هائم فى كل واد ، والخاطر جال من كل حاد وهاد ، ام كيف اسكو والسر ظاهر باد ، ام باى شئ اتعلل وكل ما احد مردد ومعاد ، ام على من اعتمد ، وكل احد اراه فهو لى ضد ومعاد ، انفاسى محترقة بالحسرات ، ودموعى مترقرقة بين العبرات والزفرات ، وكبدى مشتعلة على المناظر والمصاب ، وبعطى جارية على الرسوم والعادات ، وأخلاقى عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسى رهينة بالسيئات ، معنونة بالحسنات ، بالسوانح والخطرات ، ممنوعة عن الحسنات والصالحات ، الجهات دونى منسدة ، والوجوه امامى مسودة ، ان قلت فقيل هذا زور وبهتان ، وان اسرت فقيل هذا غرور وعدوان ، وان سكت فقيل هذا سهو ونسيان ، فليت من ابتلانى بما لا طاقة لى به ، رحمنى بما لا غنى لى عنه ، او ليت من طردنى عن بابه ، اهلنى لبابه ، او ليت من حرمنى من فراقه

---

(١) ارجح اراه

أخطر على بالى حلاوة لمائه ، أو لست من عسى فى بحر الملوى ، طرحنى الى ساحل المنى ، أو لست من حظى عن درجة المخدومين رقانى إلى مقامات الخدم

وقال من رسالة ايضاً حرام على قلب اسستار بنور الله ، ان يتفكر فى غير عظمة الله ، حرام على لسان تعود ذكر الله ، ان يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من ادناس الدنيا الدنيا ، ان تدنس بشىء من مخالفة الله ، حرام على عين نظرت الى مملكة الله ، ان تحدق الى غير الله ، حرام على كبد اشلت بالثقة بالله ، ان تطمئن الى غير الله ، حرام على من لم ير الخير الا من الله ، ان يجدد طمعاً فى غير الله ، حرام على من شرف بخدمة الله ، ان يضع بخدمة غير الله ، حرام على من ألف فناء الله ، ان يعرج الى غير الله ، حرام على من تلذذ بمناجاة الله ، ان يناجى غير الله ، حرام على من رتع فى نعمة الله ، ان يعبد غير الله

وعجيب ان رُمى من يقول هذا القول فى الغيرة الالٰهية بالزندقة ، و يتهم بالمروق كأن كل هذا الاحسان لا يكفر سيئة لانسان ، وكل هذا التقديس والتوحيد ، لا ينجى صاحبه من الوعد والوعيد ! قال شمس الدين انه كان سيئ الاعتقاد ماه الوزير المهلبى ، وقال غيره مات فى الاستتار ، وساق ابن ابى الحديد فصولا من كلام ابى حيان وعين[1] لها بقوله « ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة » وهى برهان آخر على توحيده ، وان نفسه كانت تجرد من السكنافة وهذا هو وجه الغرابة فى حياة التوحيدى جمع كل صفات العلماء ولم ينفعه شئ من فضائل النفس والدرس قال « اللهم انى ابرأ من الثقة

---

(١) جعل له عنوانا

الا بك ، ومن الامل الا فيك ، ومن التسليم الا لك ، ومن التفويض إلا اليك ، ومن التوكل الا عليك ، ومن الطلب الا منك ، ومن الرضا الا عنك ، ومن الذل الا فى طاعتك ، ومن الصبر الا على بلائك ، واسألك أن تجعل الاخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وإيمانى ، والتلذذ بذكرك بهجتى وسرورى . اللهم تابع برك ، واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى احسانك ، وصدق وعدك ، وبر قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك ، ولم تبق حاجة الا وقد قضيتها او تكفلت بقضائها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك اهل ذلك ، والقادر عليه ، والمَلى به »

ومنها « اللهم انى اسألك جَداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملا عريًّا من الرياء ، وقولا موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة الى روح بال ، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة ، حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولة بالامثل فالامثل ، وعاقبتى عندك محمود بالافضل فالافضل ، مع حياة طيبة انا الواجد بها ، ونعم دائمة انا المبلغ اليه ، اللهم لا تخيب رجائى من فضلك ، ولا تسعر[1] كفاً هى ممدودة اليك ، ولا تذب عيناً تبحث نعمك ، ولا تذل نفساً هى عزيزة بمعرفتك ، لا تسلب عقلاً هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تخرس لساناً عودته الثناء عليك ، فكما كنت اولا بالفضل فكن آخراً بالاحسان ، الناصية بيدك ، والوجه عان لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال اليك ، الشقى فى هذه الحياة الدنيا من لم ينعمه حتى

(١) [illegible]

فى تلك الدار الباقيه برسه الامن ، واقطع نفسى عن طلب العاجله الزائله ، وأجرِنى على العاده الفاضله ، ولا تخلنى ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقى من لم ياخذ بيده ، ولم يومنه من غده ، والسعيد من آويته الى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش فى الحساب ، ولا سائق له الى العذاب ، فانك على ذلك قدير

* * *

وهذه النبذه من مقدمة كتاب البصائر والذخائر قال انه اودع كتابه جميع ما فى ديوان السماع وريب ما احاطت الروايه به ، واشتملت الرويه عليه ، منذ عام خمسين وثلثمائه الى سنه خمس وستين وثلثمائه مع توخى فصار ذاك دون طائله ، وسمينه دون غثه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون معاده ، ورفيعه دون سفسافه قال ان القارئ سيشرف منه على رياض الادب وثمار العقول ، من لفظ مصون ، وكلام شريف ، ونثر مقبول ، ونظم لطيف ، ومثل سائر ، وبلاغه مختاره ، وخطب محبره الخ ، وجمعه من كتب ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وابن الاعرابى والمبرد والصولى وابن عبدوس وقدامه وغيرهم

من اهم ما حواه كتاب البصائر ، مناظره ابى بكر الصديق مع على ومبايعته اياه ، وقد اقتبس العلماء هذه الرساله ، و منهم من عزا التوحيدى واتهمه بانه هو واضعها ، مثل ابن ابى الحديد فى شرح نهج البلاغه ، ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محيى الدين بن عربى فى المسامرات وبعيد عن العقل ان يصنع التوحيدى هذه الرساله وهى بعيده عن أسلوب كلامه ، وان احب ابن ابى الحديد ان ينسبها له اما التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال سمرنا ليله عند القاضى ابى حامد احمد بن بشر المروروذى ببغداد بدار ابى حسان فى

سارع المارنان ، فمصرف الحدس نما كل متصرَّف ، وكان ابو حا د معاً معاً محاطاً مرسلا[1] عرير الروايه ، لطيف الدرايه ، له فى كل حو مسمس ، وفى كل نار مقدس ، لحرى حدس السمعه وسان الحلافه ، فركب كل مما مركباً ، وقال ولا ، وعرض لشيء ، ورع الى فن ، فقال ابو حامد هل فيكم من يحفظ رساله أبى بكر الصديق الى على وجواب على له ومبايعته اياه عقيب تلك المناظره ، فقالت الجماعه التى دين يديه لا والله ، فقال هى من درر الحقاق[2] المصونه ، ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحرطه ، وقد حفظتها ما رويتها الا للمهلبى أبى محمد فى وزارته ، ركبتها عنى فى خلوه بيده وقال لا اعرف على وجه الارض رساله اعقل منها ولا ابين ، وانها لتدل على علم وحكم ، وفصاحه وفقاهه ، ودها ودين ، وبعد غور ، وشد غوص فقال له ابو بكر الصاداى ايها القاضى ولو اعمت المنه علينا بر اتها ، وسمعناها ورو ناها عنك فنحن اعى لها من المهلبى ، واوجب ذماماً عليك الخ

وبعد ان اورد التوحيدى هذه الرساله العجيبه قال روى لنا هـذا كله أبو حامد ، ثم اخرج لنا اصله فقابلنا به ، فما كان غادر منه الا ما لا بال له ، فاما ما رواه لنا ابو منصور الكاتب فانه خالف فى احرف فى حو ى الكتاب كل حرف نادرا طرة الذى هو مبدل منه وقد كان ابو منصور امه العرب عمر وى عرابها امد ، واما قدمت روايه ابى حامد لانه سار السمر مه اعا ، ولاعاح مها احفظ ، وفيما اشكل منها افقه فلنا بالجمله ولذلك كلها و له ب

(١) المعن الذى متصرف فى المعانى ، والمعن الذى يصب فى كل فن وانه بل بكسر الميم الا حلى الكيس اللطيف ، وقال هو محفظ مرسل كما يقال هه رتق ه ب ، وبه د ه ه كنه المحالطه للناس والمزاوله هم

(٢) الحقاق جمع حقه ، وب يحبس فيه طيب و لجوهر

الرسالة ليست من صنع ابى حيان ، وأنها كانت معروفة قبله ، و اذا ابى بعضهم الا ان يقول إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدى بكثير ، وهى على كل حال لا تخلو من اصل زيد عليه بالتزيد من احد واان تناولوا الفرقة عثلها من أهل السنة ، فارادوا نكاية الشيعة فى كثير مما صنعوه ، فزادوا أموراً فى هذه الرسالة وقصت بين الصحابة أو عملوا وقوعها

والرسالة من جملة ما يجب على الاديب ان يستظهره و يعيه ، لانها حوت من اساليب البلاغة كل جميل ، وفيها من الامثال والحكم وضروب الدهاء والجلالة ما يعجب منه ، ولا تزال عليها مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد

وهاك جملة قليلة من الرسالة قال ابو بكر لابى عبيدة امض الى على واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك ، واعلم انه سلالة ابى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالامس مكانه ، وقل له البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو اكلف ، والليل اغدف ، والسماء جلواء ، والارض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف ، والعجب مقدحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض سجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل بيمينه ، نافخ[1] حضنيه لاهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الامة بالشحناء والعداوة ، عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوس بالفجور ، ويدلى بالغرور ، و يمنى اهل

---

(١) الارض الصلعاء التى لا نبات فيها ، والجلواء المصحية ، واغدف الليل أظلم ، والأكلف الاغبر ، والمغرقة من الغرق وهو الفزع ، والمفرقة تفرق فيه ، والعصوف الريح الشديد ، والنسوف الطويل الساق الذى ينسف صاحبه ، ومن الحمار شيء وبه عضه نسوف طويلة ساقه ، والسجار كتاب حشية توضع خلف الباب ، الضغن العداوة ، والثقوب ما يشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها ، والنافخ الرافع

السرور ، و يوحى إلى أوليائه زخرف القول بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم ، وعادة له منذ أهانه الله عز وجل في سالف الدهر

ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك ، ما هذا الذي تسول لك نفسك ، و يدوى قلبك ، و يلتوي عليه رأيك ، و يتخاوص دونه طرفك ، و يستسري به ضميرك ، و يتزايد معه نفسك ، و يكثر معه صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ، أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ، أدين غير دين الله ، أخُلق غير خلق القرآن ، أهدى غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم ، أمثلي تمشي له الضراء ويدب له الخَمَرَ ، أم مثلك ينقبض عليه الفضا ، أو يكسف في عينه القمر ، ما هذه القعقعة بالشنان[1] ، وما هذه الوعوعة باللسان

والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ، فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التحسس والتعسس ، لمن لا يظلع لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غض ، والنفوس فيها مض ، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجاً ، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجاً ، وماؤها العذب فلا تحل أجاجاً ، والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لي يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يرتب فيه ولمن يتضاءل عنه ، لا لمن يتنفج إليه ، لمن يقال هو لك ، لا لمن يقول هو لي ،

(١) أفا ارجع ، ويراد مثل يردد ، والتخاوص غوور العين مع الأحد في كأنه يقوم بعد ويدوى به قلبك أي يفسد من داء ، والصعداء النفس العالي في التعب والهم ، والضراء الشجر الملتف في الوادي ، والخمر الشجر الملتف أيضاً ، يقال للرجل إذا ختل صاحبه هو يدب له الضراء ويمشي له الخمر ، والقعقعة حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها وشنان جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس يحرك للبعير ليفزع وفي المثل ما يقعقع له بالشنان يضرب لمن لا يخدع ولا يروع

والله لقد ساورني رسول الله في الصهر فذكر فتياناً من قريش ، فقلت له أين أنت من علي ، فقال اني لأكره لفاطمة ميعة شبابه ، وحداثة سنه فقلت متى كنفته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ، واسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاً ولا لوجاء ، فقلت ما قلت ، وأنا ارى مكان غيرك ، واجد رائحة سواك ، وكنت لك اذ ذاك خيراً منك الآن لي ، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن ســواك ، وان تخلج[1] في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضي ، والصواب مسموع ، والحق مطاع

قد ابكم في صفاء السوء دى

اظننا بلغنا حاجة النفس في نقل صورة النوع ذي نقلاً ان لم نكن طابق الاصل فهو قريب منه ، بعد اقتباسنا درراً من كتبه ورسائله ، استنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الجوانح ، وقلبه من الدروات ، وما تقلب فيه من البأساء والضراء ، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاخلاف الى العظماء ، والاخذ عن العلماء ، وعرف مكنونات الصدور وتمثلنا في كلامه سلامة الفكر والابداع فيه ، وسلاسة الانشاء وتجويده أرأيتم هذا الإتحاد الذي نقف عنده العقول

(١) يقال رهصني في الامر استعجلني فيه ، ومن المجاز ارهص الله فلانا جعله الله معدا للخير يقال فلان نعش الآثار أي قصصها وتعس الفجور تبعه وقلص اردانك تشمر ا كاملا ، والمس الالم ، والعص الحديد ، وطلع عرج ، وحلم الادم والجلد إذا فسد في العمل ووقع فيه دود فثقب ، وفي المثل كدابغة وقد حلم الأدم ، ضرب لمن يسعى في اصلاح أمر بعد ان اوصله الفساد الى حيث لايرجى إصلاحه ، حاحس حامي ودافع يقال حاحس عن حفظ رفيقه أي نفسه وهو مثل قال الميداني أصله من الحجس الذي هو سحج الجلد ، يقال اصابه شيء فحجس وجهه أي قشر فحجس ســبقه الأعمى ، مقبه السابق أوله ، والحوجا الحاجة ومنه ما كان في نفسه حوجا ولا لوجا ولا حوجا ولالوجا أي حاجة ، واختلج بتخلج

حائره ، تكسب صاحبه فى العلوم المختلفه فلا تخونه لفظه ، وتتناسى الجمل فى تركيبها تناسق العقد النفيس ، و تؤاتم بين الفاظه ومعانيه أى مواءمه ، و تؤثر فى واب السامع فتستميله بما تحمله من مقوّله على مِسمعه ؟ أرأيتم كيف آضت اللغه فى يد التوحيدى كالعجين يرسمه الرسم الذى يشا ، او كالقرطاس فى يد المصور الحاذق ، وعنده جماع الاصباغ يصوره بما يهوى اليه نفسه من صور الارض والسما ؟

اللغه فى نظر التوحيدى واسطه تعبير وتصوير ، لا أداه لطافه وطرافه ؛ كانت على أسله قلمه ، غزير المادة بصيره الدساحه ، وكان بيانه الصافى البراق ، سهل مطواعاً لبيانه ، يتصرف به تصرفاً عزماً ، و يتصرفه فى ضروب الموضوعات العالمه ؛ وكان اللغه فى عصره ، وقد اصبحت امه حضاره باهره ، احدث الردده النافعه من الامم القديمه وزادت علما عارب قرين فقربت ألفاظها على التعبير عن كل معنى ، رصفا رصفها ونسجها ، فكانت من اجمل صنع الاوهام والانسجام ، ولطف مادتها تخرج منها الجمى ىماعده بناء الادب ، ودرجت بعد ذلك نعمه لا تريب فيها ولا تعقيد كأنما جاءت من عروب ، لغه فلسفه وطبيعه و الهيات ، كما كانت امه شعر وخطب منذ اقدم عصور الجاهليه

عمد التوحيدى الى استخدام طوائف من الالفاظ تشترك فى رصفها فى حال أحوالها ، ويتعذر عليك ان تحلى المكان بمثله من غيره تحلها وقد قال الصابى الالفاظ اجساد والمعانى ارواح ، انما تراها بعين القلوب فاذا قدمت منها مؤخراً ، او اخرت منها مقدماً ، افسدت الصوره وغيرت المعنى كما لو حول راس الى موضع يد ، او يد الى موضع رجل محولت الخلقه

وتعمرت الحليه ، وهدا ما براه متحلما فى كلام ابى حـ ان « والكلام اذا حرج فى عىر ـكلف وكد وسده ىفكر وىعمل كان سلساً سهلا ، وكان له ما ورواء ورفراق ، وعلمه فرىد لا ىكون على عىره مما عسر ر وره واسىكر حروحه »

داكر الىوحىدى فى العلوم المحلفه طىفه عالىه ں اد كاء اىلما ، وكانوا فى العلم حمىعاً ، وفى مداهىهم شتى ، فلم ىحمد على ىفل كلام أهل فن واحد ، ولا ىصب ادىه عن سماع من حالفوه فى معىقده ، فكان سانه سان عالم فى عصرنا فىح بحثاً فى محله اوكىاب ىولفه ، وانما ىحمع فى كىاسه وحرارانه افكار المىصادىں ومرامىهم فى العلم والىفكر ، وهدا ما كان على حصه وفوره فى كىب الىوحىدى على ماراىنا ، لحص لمعاصرىه آرا المىقدمىن ، وحلف لمن ىعد مُصَرَّراً صحىحاً من آراء من عاسرهم وعاصرهم وىقدمهم فى المىلاد ، فادركىا بما أسمعناه ىعض حمىقه عصره فى اسالىب الىفكىر ومىلغه ں الحكمه

ىحمد قصد الىوحىدى فى ىقل كل محاسن كما وقع ، وان كان ىعصهم لم ىروه الا مرض لىدر ىں ما ىحالف معىقدهم ، أما هو فما كان له ان ىىقل كل كلام ىىصـه كل انسان ، لانه لا ىحـ ط ىاهوا حمىع الناس ، وىـ ىد الاهواء كىعدد الاناسى ، وهو محالف فى طر ىقه طرىقه كـ ىر ں المولفىن ، فكم ىطق ىلسان من لا ىعىقده على صواب فىما ىدهب الىه ، واذا راى ىعص الىحدلفىن[1] فى كلامه ىعص الىعهده ، فىحابون واى كلام حلا مما ىعلق علىه سى ان الىوحىدى لى ىسوح العلم والحكمه لحمل عىهم ، وحود وصفهم واحمل طرارهم ، وكلما ىىقل سىئاً لا ىوافق نحلةً ومدهباً ، قال حصوم فكره انه ىصطنع ىقله ، وىرور على رراىه فىرورون[2] له كىاب الىوحىدى راوىه المحاسن العالىه ،

---

(١) حدلق أظهر الحدق او ادعى أكبر مما عىد كىحدلق

(٢) ىراور عىه عدل وانحرف كازور ، وزور زىں الكدب والسى حسىه وقومه

والرواية كما فعل العلم المستطيل ، ومخالفوه سودهم هـذا و سودهم ، حتى سرت أحكامهم الجارة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فاقروها ، وتابعوا على العميا قائلها حالف الوحيدى فى طريقه العلمية مالوف كثير من العلماء ، فنهبه و نبههم بعد باعد ، وليس من الانصاف ان يأخذ عليه خروجه عن مالوفهم

الحق أبلج لا تُخيل سبيله والحق يعرفه ذوو الاحلام

لا جرم أن التوحيدى جار فى امره مع من وسموا بالعلم فى زمانه ، وهم محافظون متشددون فى تقاليدهم و اصطلاحاتهم ، لا يبالون ان يرموا كل من أبدع طريقة ، وكشف عن حقيقة ، بالفسوق والتبديع والتكفير ، و ربما سهل الامر عليهم ان يغروا من بيدى السلطان ضرب عنق من لا يدركون غاياته ، فاسمه ممن بذهم راز يب عليهم ربما لموس عالم لم يجد له بداً عند صاحب صولة فى مثل ذاك المجتمع ، فان مجرد ايهام بعض المتعصبين له بانحلال العقيدة ، كاف فى ببر حبل حياته ، ولا من يرحمه او يشفع به اراد المأمون « رضى الله عنه و رص » ان يرفع الامة الثالثة ان يُخرج الامة من ربقة التقليد الاعمى الى ساحة العقل السليم فراى ان يسيطر على الدين واللغة والآداب والعلوم ، فسامح و يعقل الشكر معظم ما يشاء ببعد أُول محنة و با الاسف ، فلم يستأ بد البلاء حاله فى و به رعاياه ، بحمى الا على ردعاته ، فسح للباحثين مجال الـ ... ...

ومن أعظم المصائب ان اقدار البلاد لعقيدة الدين على اراس الذى يدير ... ... خليفة كان او سلطانا او امير اً ، ... ... وقل ان ... الخلف على اساس السلف ، ... ... على ... ... فى المسائل الدهنية ، والمطالب الاجتماعية والدينية ... لذلك كتب ... ... فى كل عصر وقطر كالارض ... ...

الفقر ، يختلف شكلها باختلاف النعمة التى نشأت فيها ، ويلبس ثوباً فُصل على
مثل صاحب السلطان الاكبر ، وكثرة ثلاثه وعمائه وقلما عهد ان سار الابن
بسير أبيه وحده إلا على عهد أوائل العباسيين ، وفى بعض دور الامويين فى
الشرق ، والأمويين فى الاندلس ، وما عدا ذلك فافراد من أصحاب السلطان
رأوا عصورهم بهممهم فاحالوا القفار جناناً ، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطاناً ،
حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الامة سيرتها الاولى ، بسبب أن الا ه اغلى
نسقاف قلبها ، لاسيما وأكثر الزعماء يعتقدون أن الراحة فى ترك العقول جامدة
جامدة ، حتى لا ترتفع عقل عن عقل ، ولا يمتاز فاضل بسموم الفضل

فالرجل الذى لم يأبه لما اعترضه من المصاعب ، وفرق حجب الوهم وحكّم
سلطان العقل ، واستعرض ما جادت به قرائح اعاظم الله فى القرون الخالية قبله ،
وكتبَ العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق ، بسعة وبسطة على كدورة فى
شرعة أحياناً — الرجل الذى كان كذلك حاله بعد الا ه المجتهد حقاً وصدقاً ،
و د حد داً مجدداً فى فكره و بيانه

كتب التوحيدى فأكثر الكتابة ، ومع هذا فاسار طريقة واحدة لم ... ل
فيما يكتب ، ولا عُنى بالتمويه والتحبير ، والصقل والتطرية وكان هدفه ابلاغ
العقول ، ما يجول فى الخواطر ، من اقصر الطرق ، وا سهل المسالك تارة ، و ...
أطولها تارة اخرى احسن بوصف آراء المفكرين والنظار ، على وجه لم ... من
غيره ، حاسا الجاحظ واضع هذه الطريقة ، فكأنه يلتقى بالتمس ذاك الاسلوب
الذى كاد يموت بموت الجاحظ ، وانه مما حدث بعد ابى عثمان ... اهول ،
وضروب المعارف ولو كان روح التوحيدى غير معذب بالاخفاق والاملاق ،
كروح الجاحظ الشفاف الرائق ، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه ، واطمأن عما

بطمس به روح من مهما العس ، لحا الوحيدي كالجاحظ الا قليلاً

بيد أن اضطراب عصره ، كان منه اضطراب فكره ، وعمله المطلق عن تعهده وحمايته ، أدى الى اشد ميال قلبه برزقه وحرابه ، فكان في دل الفقر ، وخوف القهر ، طول العمر و اذا قيل ان الجاحظ كان على دها لا ينكر محله ، فابي بحر به لذعات حساده ، ومولمات مناظريه ، وان التوحيدي لم يعرف ما اسمه العلم ، ولم يستكمل تعاطى الاسباب الى الرزق ، و احرار حظ الشئ ، فلا ننس أن الجاحظ كان الخلفاء ترعونه و يجرونه ، والوزراء يحادثونه و يحمونه ، والا من يعجزن به ر يحذرنه ر التوحيدي ، للجهل الطارى على الخلفا والامرا في عهده ، يضطرب في حياته اضطراب الارشيه في الطوى البعيد ، كلما اا عمب تد ه جاب الصدمه تسره ، وكلما قال يسراً ، قالت الايام عسراً ، عاش في سعف من العيش ، وبحف من المال ، وكلف من الزمان ، فكان المرنور المملوك ، الموجع القلب ، المعذب الفواد ر المر مهما أ ي ن عقل سليم واخلاق فاضله ، لا يخرج عن كونه محمول مسكنه رهوانه و لدرسه راساتذه واقرانه ، وعمان ما باشر به روحه منذ وعى على نفسه ، وهو ر بده ما أخذه بالفطره ن دم ابويه ، واكتسبه من اتصاله بالحداد قدما قد لا رف احدارهم على حين ا ره ه ن حيث لا يسعر اخلاقهم واطوارهم

ابن العميد

عصره

تُعَد القرن الرابع عصر الكمال العلمي والادبي في الاسلام اسعرت فيه القواعد ، وتعبت المعالم والمناهج ، ودُوّن ما يسير بدو به في اللغة والادب والسريعة ، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الاوائل ، وحف الصراع بين حمله الدين ، ورجال الحكمة والعمل ، وساب الفرق الباطنيه ، وكلها تريد افاته ملك ، واتخذ دعاتها من آل البيت شكاة وصعوا بحلهم نصبه دينه

وكان الادب في مقدمه الفنون التي بلغت في هذا العصر اناها ، يتبوع اعظم سعرا الحضارة العربيه ، تقدمهم زعمل حمل في القرن السادس ادخلوا على السعر معاني جديده ، وما عبروا موازينه واوضاعه وانسا الكتاب نيه ون في الانساء المصنع ، فصنعوا المنافذ في ادا المعاني ، وعلوا في الطول والتهويل ، فاصبح النثر بالاكثار من السجع نمنى ويلا معنى اسمه سعر لا اوزان له

رسكن نار السعوب من اعدا العرب ، وكان دابهم الفاء بدورا مرده بين السعوب التي وحد الاسلام بينها ، والغي من بينها نظام الاقطاعات ، وساوى بين الكبير والصغير في الحقوق والواجبات واعطى الشعوب ون بن العرس به ام دوا بن سمعس في العالم دوله بني بويه الدالم في السرق ، اسه واب سلى فارس والعراق ، وحعلت الخلفه العباسي سبحاً بلا روح ، ودوله بني عُبيد الفاطميين في افريقيه وعمل القرامطه افاعيلهم في العراق والسام والحجاز وما اطت لهم دوله ، وفرض محمود بن سبكتكين الدوله السامانيه السنيه من خراسان وما وراء

النهر ، وفتح القسم الشمالى من بلاد الهنـد وأضافه الى مملكته ، وخدم الآداب والعلوم ، وضرب المعتزلة ضربة قاصمة فى بلاده

كان الفرس اهم العناصر الاسلامية التى عُنيت بنشر العربية منذ رفرف علَم الإسلام على بلادهم ، وقد احرزوا فى العلم والسياسة افضل منزلة ، لما حصلوا به من الاستعداد لقبول الحضارة ، اعانهم على ذلك الفهم الحكم والنظام ، وتفانيهم فى طاعة العظماء والملوك وكانوا فى القرون الأولى من خير الشعوب التى قامت بحق الاسلام

ر بينما كان خاصة فارس يتوفرون على خدمة الاسلام والعربية ، لا يحيدون عن امة الدين والدولة والعلم بديلاً ، كان اناس من عشاق القومية الفارسية يشرون حسراً فى اربعا (١) ، ويلوبون على من نعم لهم دولة ، ذاك رن وصولة وقد آلمهم تراجع لغتهم امام العربية ، ومنازعة العربية الفارسية فى عقر (٢) دارها ، حتى اصبحت لسان المدن ، ووجدت الفارسية متنفساً لها فى الارياف والجبال من الاكارين والسوقة والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع اهل فارس ، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس ، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم وبها ربه تكتب مكاتبات السلطان والدراوين وعامة الناس ولما احتفر ابو الطيب المتنبى شعب بوان بأرجان رأى مدحا[illegible] اعجز صدره اهله من سعدهم [illegible] وصف الحال بقوله

مغانى الشعب طيبا فى المغانى   بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها   غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنـة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

---

(١) هذا مثل يضرب لمن يظهر امرا ويريد غيره

(٢) العقر بضم العين وسكون القاف وبفتحها وسطه

كان يمض دعاة القومية الفارسية ، أو من يريدون تحريك عرقها الحساس ، ان يشهدوا العربية تغرّب كل يوم جماعة من أبناء فارس ، فلم يروا لوضع حدّ أمام ذاك التيار الجارف الا اثارة النّعرة الدينية ، تدعمها دعوى الغيرة على ضياع حقوق العترة العلوية ، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دولة ، وينزعوا الحكم من العرب آخر الدهر

كان يُمضهم ان يروا نيسابور وشيراز والرى ومرو واصفهان وهمدان تتنافس فى نشر العلوم والآداب ، وان يؤلف المؤلفون ، ويعظ الواعظون ، ويدرس المدرسون من أبناء فارس باللغة العربية ، وان يعنى ادباء آبائهم ع ار عن شعر ما رُزق من يعنى له ، وان يعنى العربية بالعلوم الكبرى فحاولوا اثبات تفرس قومهم حب آدابها القديمة ، ولم تكن الشعر الفارسى بهذه اللهجة المعروفة مما يعهد قبل القرن الثالث ، وقد نبغ شاعرهم الرودكى السمرقندى (٣٢٩) « الذى كان مقدماً فى الشعر بالفارسية فى زمانه على اقرانه »

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربية ببلاد الاعاجم فى ذاك العصر ، وعلى مقدار تراجع السياسة العباسية ، كان العلم العربى يزيد انتشاراً ورسوخاً ، وتتعدد مواطنه ، وتقوم اسواقه ، وما كانت مراكز الآداب فى القرن الرابع فى قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب وغزنة والرى وسمرقند بأقل كثيراً عن مكانة بغداد ، ومن قبل البصرة والكوفة فى هذا المعنى كان الناس يحملون الى بغداد علمهم وادبهم أيام عظمة خلفائها ، فخلف من بعدهم خلف من الضعفاء عدت بهم بغداد تنقل ادبها الى العواصم المستحدثة ولما قامت دولة بنى بويه واتخذت من الرى قصبة بلاد الجبال عاصمة لها ، اصبحت بعد حين دار علم ، ومثابة أدب ، على مثل ما كانت عاصمة الامويين فى الاندلس ، وعاصمة بنى الاغالب

فى افريقيه ، وعاصمه الطولونيين فى مصر ، وعاصمه الغرنويين فى خراسان

وكانت الرى وما اليها من ارض فارس فى هذا العصر مجموعه من المذاهب الإسلاميه منها الشيعه الاماميه والغاليه ، والأحناف والشوافع والمعتزله والخوارج وغيرهم وظلّ اهل الرى على مذهب اهل السنه والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعه ، واظهر التشيع واكرم اهله ، فتقرب الناس اليه بتصنيف الكتب ، فاصبحت جمهره أهل الرى شيعه غاليه ، وكان ذلك فى أواخر الربع الثالث من القرن الثالث ومن أهل هذا المذهب كان بنو بويه اصحاب الدوله وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعه اماميه غاليه ، و معظم العلماء فى أرض فارس من أهل السنه ، والملوك يحظون ذوى ارباب المعرفه من جميع الطبقات والمذاهب

أوليته ونسبه

فى هذه البيئه نشأ ابو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد بن ذات فضل وصداره وكان ابوه ابو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكله كاتباً مذكوراً فى خراسان ، وله باع فى السياسه « تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ، واصطلح كالعاده فيمن يلى ذلك الديوان » ، « واذا قيد ابد الذه وامتد بذلك ، على عاده اهل خراسان فى اجرائه مجرى الـ ظيم »

والغالب ان ابن العميد وُلد فى آخر سنه ... ، لانه ... سنه ... ، رمات سنه ستين بعد الثلاثمائه ، « وكان بعده ابو ... دره ... احرى ، بسلمه هذه الى هذه » ، وقيل انه احد ... فى بغداد ورحل ... ... وهو ... ، ولذلك كان محبا ... ... ابو الفضل فى حياه ابيه و ... ... الذى ... الخلل ... ... على ،

و برداد على الأنام فصلا و براعه ، حى بلع ما بلع ، واسمر فى الدروه اا ا ا ن وزاره ركن الدوله ورياسة الحمل » ، ودلك سه ه ثمان وعسر ن وبلمانه ولما بعلدها ، وكان در ن البلانس ، اسه السعاده فى صباه ، وتم ادوات علمه وادبه ، وهو سولى اعمال الدولة ، وطالب ايام وزارته حى ار ب سه وها على ر ن ص اه ودراسه ، ودعى ابن العميد بالاسساد الرئيس لجمعه بين الاماره والادب ، ودهب له هدا اللقب عن حداره ، ولقب ايضاً بلسان المسرق

اجمع من ترجموا لابن العميد انه فارسى ن اهل قُم ، ولا مهم ن كونه فارسياً أنه من صميم الفرس ، فقد سكن العربى قم وقزوين وسمرار ونيسابور والرى وهو عربى بأصوله فينسب الى البلد الذى نزله او ولد فيه وما هو فارسى بالمعنى الذى مهم به اليوم معنى هذه النسبه [١] ، ولا سعد ان نكون ابن العميد او احداده عرباً اقحاحاً ، نساوا فى تلك الارض فنسبوا اليها ، وقد حد ما اا ار ح بان مئات من علماء المسلمين وابناء الانصار والمهاجرين هاجروا الى البلاد التى فتحت على ايدى العرب فى السرق والغرب فنسبوا الى اوطانهم لا الى آبائهم كما كانوا من و ل فضاعت بذلك اصولهم

(١) نعلم اصول من اسهروا فى فارس ن العلما بالها نظر على كتب الانساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم فقد نسبوا صاحب الاغانى الى اصفهان وهو اموى عربى و سبوا صاحب القاموس الى فيه وزاباد وهو بكرى عربى ، و سبوا القزوينى صاحب آثار البلاد الى قزوين وهو عربى ن سبة له مالك بن انس ، و سبوا ابن حيان النسى صاحب التآليف العظيمه و ب طبقه البخارى الى بست وهو تميمى ، ونسبوا ابا حيان التوحيدى الى سيراز وهو ن صميم اا رب ، وكان ابو داود السجستانى صاحب السنن ن الازد ، وابو العباس النسوى صاحب المسند ن بنى سيبان وابو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابورى صاحب المسند ن بنى قشير ، والهروى المفسر من ولد ابى ايوب الانصارى ، وابو الوليد النيسابورى فقيه خراسان اموى من ذريه سعيد بن العاص الاكبر ، والفخر الرازى المفسر عربى وقال ابن سيده إن جده بن مصعب هرمين ن سحبه من صحبه ، وكان ن افقه اهل خراسان وارضاهم عندهم رعقبه خراسان ، وكان ابو مصعب ن خارجه مع على بن ابى طالب

وليس من المستحيل ان تكون عرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وباصل فيه بالدرس ، وكم من عرب عن هذا اللسان خدمه حد به امانه الاصليين وقد قال ابو الريحان البيروني ، وهو من خوارزم و من اعظم علماء الاسلام « الهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية » ، ومن عرف مصداق قولي من تامل كتاب علم نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به ، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسمار الليلية »

لم نعرف من اساتذه ابن العميد غير محمد بن علي بن سعيد[1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمي ، وكان يعلم علم الاوائل وهو « صاحب الادب والحكمة والنجوم والترسل والاملاء » ، والظاهر انه كان يذهب مذهب الاعتزال فلعل تلميذه مذهبه فاصبح مثله على مذهب اهل العدل والتوحيد ، في قائم نغلب التسنن على السواد الاعظم من اهله ، ومانع ذلك ابن العميد ان يخدم ركن الدولة بن بويه ، وكان سنياً عالماً ، ولا ان يخرج به عضد الدولة بن بويه في ادارة الملك والدولة

غلبت الحكمة على ابن العميد ، فحالت سعاف قلمه وكان ذهبه عبر ادب عصره ، كان اديباً ... بعلوم عقلية ، فيه سمة ف نادر ط ه ه

(١) هكذا ورد اسمه في فهرست ابن النديم وفي خاتمة ... به محمد بن محمد عيسى بن عبد الله ابو علي ... من اهل قم يلقب سمكة ، كان من اهل الفضل والادب ... اخذ عنه د ا ابو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب صنف منها وكان ... عند ... عثمان احمد بن عبد الله البرقي ومن ... عنه و ... كتاب ... عظيم ... آلاف ورقة في اخبار ... وله ... كتاب ... ، وله كتاب ... كتاب ... في ... رسالة ... و ... في ... اخ

ونفس حساسه ، ورن كل شيء عمران المد ، حى الالفاظ والقوافى والاوزان والأسجاع وحتى الكلام العادى وسا ابن العميد ساه أدبه وسماسه ، عرف البلاد وامرجه اهلها ، وعرف ما بصالحهم و برضيهم و برغامم د كر سكويه انه سمعه فى كسر من خلواته سرح لابنه أبى الفتح « صورة الديلم فى الحسد والجسع ، وانه ما ملكهم احد قط الا بترك الربه ، وبذل ما لا سطرهم ولا بحرجهم الى التحاسد ولا سكبر عليهم ، ولا تكون الا فى مرتبه أوسطهم حالاً ، وان من قد دعاهم واحتسد لهم ، وحمل على حاله فوق طاقته ، لم يمنعهم دلك من حسده على نعمه ، والسعى على ازالتها ، وترقب اوقات العره ، فى آن ما تكن الانسان على نفسه منهم ، فيه تكون به دلك الوقت »

قال « وكان لوفور عقله بدارى امره مع صاحبه ومع عسكره ، ثم سوس رعيته والممالك التى براعيها ، و يدبر الجميع تدبيراً ملائماً لوقته ، موافقاً لزمانه ، فلا يظهر من الربه وابهه الوزاره ، الا بمقدار ما يتم به مرتبه ، ولا يجاوز دلك الى ما يحسد عليه و ينافس ، ثم ، واضع تواضعاً لا يخرج به الى عصاصه بلحقه فى جاهه ، او بحطه عن المنزله العاليه التى رقى اليها ، وكا ب سلا به طول لدبه على اصناف الناس رطبقاتهم وفاتهم همته وتمام سياسته صله ترند على الانام سا ر ماناً »

و ن سياسه ابن العميد وهو الصدر المقدم فى الآداب والسياسه انه كان يصون مجلسه عن الخوض فى مسائل الخلاف فى الدين ، وقد يقاطع من يحاول المناقسه فيه ، وهو حذ عارف باهل الاثر واهل الراى من فقهاء الامصار ، بصير بالمحكم والمتشابه من آى القرآن ، الى معارف جمه فى النحو والشعر والا ـه واسعار العرب ، يدرك ما يجر الخلاف من سعاب على دوله اختلفت مذاهب

سكانها واجناسهم ، وتباين أهوائهم ودرجات ثقافتهم ، خصوصاً ومذهبه غير مذهب سلطانه ؛ وهو فوق ذلك متسع بالحكمة حتى ليتهمه بعضهم فى دينه ، شأن الناس منذ العهد القديم مع من يشتغل بهذا العلم البغيض الى الفقهاء واتباعهم والناس فى كل زمن اسرع إلى تكفير اهل الفكر من البناء إلى المحذورات

كان خلطاء ابن العميد زمادموه من مذاهب مختلفة فمنهم مسكويه فهو خزانته وهو فيلسوف مؤرخ ، ومنهم استاذه ابن سمكة وابو محمد هندو وكلاهما فيلسوف إلهى ، ومنهم ابو الحسين بن فارس اديب ، وابن خلاد القاضى اديب وفقيه ، وابو الحسن العلوى ، وابو العلاء السروى شاعر وكاتب وكان يحاضرهم بمجالسهم ويهاديهم ويكاتبهم اذا غابوا ويحاورهم نظماً ونثراً ، حتى ليمكن القول ان احسن ما كتب ابن العميد رسائله فى الاخوانيات وكان لا ينظر فى التراسل مع اخوانه الى ما بينه وبينهم من التفاوت فى المصطلح عليه من درجات المجتمع ، اى انه زرى برهم زعمه ، يسحب ذيله على ما يكون منهم ، وما عدت عليه هفوة مع صديق ، وما كان ممن يحرج على حقوق الصداقة وفى نظره ان لا اعتبار فى الصداقات لاختلاف الدرجات ، والمساكنة فى الفكر والعواطف اعمق صداقة فاذا وكان يفتخر بالحسن بن اسحق بن محارب القمى ويقول لو اخرج من بلدنا سواه لكان كافياً

كانت معانى الحب متاصلة فى ابن العميد ، وروحه يحب د احب مخلص فى حبها ، وربما برح به ، ثم ان نفسه عظيمة لا تكره لا على الكراهة والبغض على الاكثر اثر من آثار الضعة ، الضيع المقاصد ، وكل اولئك كان الاستاذ الرئيس غنياً عنه لانه طوى لا يقع من غمره العطاء ، ومع لا يحصى الناس من معروفه ، راس به بعد هذا لان

يحبب الى الناس ، ولا سيما اهل الذكر والفكر

ألِف ابن العميد ، على ما بلغه من رتب المجد في دنياه ، المذاكرة في فنون العلم على سنة علماء السلف وأدبائهم ، واعتاد ان يفضل على خاصته وقاصديه ، خصوصاً اذا لم يَدِلوا عليه بادبهم في مجلسه . كان يكره من يريد ان يُموه عليه بأوه(١) ودعواه ، وكثيراً ما يستهدف لغضب اهل هذه الطبقة ، فيقدمون على هجوه ، ويصدفون عنه لاعنين طاعنين ، كما وقع لابن نباته السعدي ولابي حيان التوحيدي ، فانهما تحككا له ، لانهما لم ينالا ما كانا يؤملان منه ، فجسرا على هجوه ، وألف التوحيدي كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، اي ابن العميد وصديقه الصاحب بن عَباد

جعل ابن العميد لكل شيء نظاماً في وزارته ، يعمل للمصلحة العامة ما استغرقت من الاوقات ، فاذا فرغ انصرف الى العلم والادب ، فهو على هذا يحمل شخصيتين : شخصية سياسية ادارية ، واخرى ادبية فلسفية ، وكثيراً ما يكون مجالسه مجالس العالم لا مجالس السياسي ، يقرأ عليه من يقصده من العلماء والادباء ما يجري الى توسيع مداركه من صنوف الآداب ، على نحو ما جرى له مع أبي الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري ، فقد اتفق ان شرح له كتب ارسطو و « نزل بين يديه ، واستماحه القراءة عليه ، وكان يعد نفسه في منزلة من يصلح ان يُعلّم منه ، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة يفتحها عليه ، ودرسه اياها » وهو بالطبع يستفيد من القراءة والاقراء « وضبط أعماله ونظم امور وزارته ، ورتب اسباب جده ، حتى كان اكثر نهاره مشغولا بالعلم واهله » ما كان سبباً لنظره في عظمته وشهرته . ورب وزير كان قبل الوزارة سبباً مذكوراً في العلم فاصبح

(١) البأو الفخر بالنفس

لا سيء بعدها ، لاستغراق أوقاته كلها بمصالح الناس ، ورد عادية الاحزاب والاعداء عنه وعن سلطانه . اما ابن العميد فكان قبل وزارته مروفاً بالعدل ، وفى الوزارة احد بحظ وافر من حسن السمعة

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه فى عمار الملك ، وبسط العدل فى ربوعه — وكان مسكويه على ما يظهر ماخوذاً بحبه عاش فى نعمته انا اصفاه سبع سنين — قال « فاما اصطلاعه بتدبير الممالك ، وعمارة البلاد ، واستمرار الا ال ، فقد دلت عليه رسائله ، ولا سيما رسالته الى ابى محمد بن هندو التى يخبر فيها باضطراب امر فارس ، وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب ان يتلافى به ، حتى يعود الى أحسن احوالها ، فان هذه الرسالة يعلم منها صناعة الوزراء ، وكيف يتلافى الممالك بعد تناهى فسادها وما يتبعه من بسط العدل فى الممالك ، وعمارة ما يدرس منها الا ان صاحبه ركن الدولة ، مع فضله على اقرانه من الديلم ، كان على طريقة الجند المتغلبين ، يغتنم ما يتعجل له ، لا يرى النظر فى عواقب امره وعواقب امور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن احداً تلافيه وردهم عنه »

انى مسكويه يوصف مخدومه فى معرض المدح [illegible] ارائه الاذى سكت عن رفعه مواجهة فى اسراع [illegible] طريقة لينة ، فيها التعامى والتغاضى ، حتى لا تعصف [illegible] الملك ، ولا بساله مكرره نسائهم ، ولو احس [illegible] الاد وصلهم [illegible] [illegible] من الماسين رسائلهم ، [illegible] [illegible] و [illegible] بلاده من ارض [illegible] الاحد [illegible] من الار [illegible] ارباب الحرم من مدرى الملك

أدس وعلم

عرفىا مما ىقدم ىوع الدراسه الى ىعلقب ىها همه اس العمىد ، ووقفىا على صوره من ىفسىه ، والآن ىعمد الى ىحلىل هذا الصرب من الادب الذى عرفه الىاس ىه ، و ىه حلد ذكره فى العالمىن ؛ قالوا انه واضع طرىقه السعر المىثور ، وانه كان ىلىرم السحع ىاره و ىطرحُه أحرى ، وهذا رأى اس سىان فىه قال انه كان ىىرك السحع و ىىحىىه ، وطرىقه اسىعماله مره ورفصه أحرى ، ىحسب ما ىوحد من السهوله والىىسر ، او الإكراه والىكلف اما ىحن فان ما وصلىا من كىاىاىه ىصطرىا الى ان ىحكم علىه حكماً ىحالف حكم اس سىان ذلك لأىا راىاه كان الى الىسحىع والمراوحه اقرب وما ىدرى اىضاً ان كان وصفه ىحاىه الكىاب ىىطىق على الواقع ، ام فىه سىء من المىالعه لاىن العمىد فى قولهم « ىدئب الكىاىه ىعىد الحمىد واىىهب ىاس العمىد » ام هى السحعه الى اصدرب هذا الحكم ، كما كاىب سىىه الصاحب س عىاد فى قاصى قم هى الى ىحىه عى مىصىه ، ىوم كىب الىه « اىها القاصى ىقم ، قد عرلىاك فقم » فقال القاصى والله ما عرلىى الا السحعه »

عاصر اس العمىد عسراب من الكىاب ، وحاء ىعده كىىرون كاىوا اطول مىه ىاعاً فى هذا الفن ، وفى مقدمىهم الهمدانى وابو حىان الىوحىدى فىسى الىاس او ىىاسوا من لم ىَحُطهم الحظ حىى ىسىهروا من كل وحه ، ولهح الىاس ىىىر اس العمىد وسعر اس العمىد فىافىب سهرىه

وحكمىا هذا على اس العمىد مسىىد الى رساىله الىاقىه فى كىب الادب والاحىار ، وقىها سهدىاه ىكىر كاهل قرىه من السحع ، ولم ىَرَ سحىن كىاىىا مما

أثر عنه منه، فاقتصرنا على كلامه المرسل، وحكمنا عليه بالاسلوبين

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع، وفيه ظهر اعظم السجاعين، فما وسعه ان يتحلل من قيوده، بل اخذ يجاراه الناس طوعاً أو كرهاً، فهو ابن عصره بلا ريب، إلا أنه كان اول من غيره على ما يظهر متأثراً بالأفكار الفارسية، وهذا داعية العجب، كان اقرب الى العروبة في اكثر مناحيه، وفارسيته مقصورة على مصطلحاته وعاداته كان تأثره بكلام الاقدمين — وهو الحافظ المكثر من شعر العرب الجاهليين والاسلاميين — اوفى من تأثره بنشئه، فهو عربي الافكار، في ثوب فارسي رقيق، اخذ من اللونين ما راقه، ومزجهما مزجاً جميلا، فكان آية تعجب او كما قال ابو الطيب المتنبي في مدحه

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية اعياده

خلق الله افصح الناس طراً في بلاد اعرابه اكراده

لم يتناول ثقافة ابن العميد الشعر والنثر، اي الادب فقط، بل كانت ثقافة العالم الحكيم، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفة وعلم الجدل وجر الاثقال والتصاوير والهندسة والطبيعة، الى معرفته الواسعة بالسياسة والحرب وكان على الكاتب المثقف في ذلك العصر اتقان الفلك وا[illegible] فضلا عما يحتاج اليه من لغة ونحو وتصريف وتاريخ [illegible] كان [illegible] يقول من لم يكن عالماً باجراء المياه، وحفر فرض المشارب [illegible] ومجاري الانهار في الزيادة والنقصان، استهلال القمر وافعاله [illegible] وذرع المساحة والمربع والمختلف الزوايا، وحسب القناطر [illegible] والدوالي والنواعير على المياه، وحال ادوات الصناع [illegible] — كان ناقصاً في حال كتابته

وما روى من مجالس ابن العميد ويتوفل من آرائه ودن بانه لم يكن ثقة في هذه العلوم ، بل كان مساركاً اعظم مساركة فالوا كان اذا طرا عليه احد من مستحلي العلم ، فاراد امتحان عقله ساله عن بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وبنبه على محاسنها ، وابى حيراً عليها ، جعل ذلك مقدمة فصله ، ووزان عمله ، ثم ساله عن الجاحظ فان وجد عنده اثراً لمطالعة كتبه ، والاقتباس من الفاظه ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بانه غرة شادخة[1] في أهل العلم ، وان وجده ذاماً لبغداد ، غفلاً عما يجب ان يكون موسوماً به من الانتساب الى المعارف التي يختص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن

هذا تصوير لبعض مناحي الاستاذ الرئيس ، ولم يجار من توسعوا في تصوير سيرته وبالغوا في أدبه واكبروا ومنهم الثعالبي في يتيمة الدهر وسكويه في تجارب الامم لا جرم ان ابن العميد عظيم بادبه ، ولكن الا تذهب الفكر الى انه كان له بحكم منصبه السامي — ومفاتيح خزائن الدولة في يده يغدق على العلماء والشعراء من قاصديه وغير قاصديه — ما زاد في شهرته ، وعظم في النفوس ادبه ؟ وربما كان من حب بعضهم له ان حملوا صورته على غير قصد

وبعد الذي رأينا من مبالغات الشعراء في كل عصر ، لما الى التوقف في الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذي قيل فيهم شهدنا شعراء مدحوا رجالاً وهجوهم في آن واحد ، فاى اقوالهم نصدق ؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبي من الامادح ثياباً قشيبة ، خلد ذكره في الخالدين ولو بحثنا في سيرة سيف الدولة ما ردنا في تعريفه على ما نصف به ملكاً جائراً مستبداً ، يستحل أكل اموال الناس بالباطل ، ويخربُ البلاد لمنفعة ما اصاب في ايامه ،

(١) غرة شادخة غشت الوجه من الناصية إلى الانف

و يعرط فى الافضال على مادحيه و يدحه[1] واما إذا ما ا ا هجوه كافور الإحشيدى ، بعد ان مدحه ورفعه ، نسجل انه طلبه كثيراً ، فان سيرته كانت ارکى من سيره سيف الدوله ، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وامثال ابن حمدان من طلبه الملوك والامرا وهكذا يقال فى اكثر ما نسجه الشعراء من امادح العظما والامرا ، فلما قصروا فى العطا تراجع الشعر ودهت بهجته

ولو همنا ناخذ صوره الملوك والعظماء مما مدحهم به الشعرا ا لدنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعداً كبيراً وكذلك لو صدقوا كل ما هجا به الهاجون ، لما رسمنا لمهجو صوره صحيحه لان الشعر قام فى الاكثر على المدح والهجا على المبالغه فى كل منهما ، وهناك الاهوا السياسيه والعداوات المذهبيه والطوائل الجنسيه وكم من عالم وصمه خصومه بالكفر ، وهو اقرب الى الله من اشنع من اكثر حاسديه ومخالفيه وكم من انسان عظيم الشأن اهل محبه بونا بالنا في حكمهم عليه ، وما كان أولاهم ان يكسوه الخز والديباج امرض مرض وقل ان خلت منه نفس شريفه هذا الشعر العربى على اعلو فى نسبته ونشبيهه وغزله ومديحه وهجائه يوجد على علاته ، وقلما سقط منه على حقيقه لا فى الحكم والعبر ، ومن جعلناه عمدتنا فى اله جه للرجال ضل ضلالاً

و د فال من سعاده ابن العمد ن بط ل عمد فى ا ب د ده ن بكر ن على أحلاف باصله وسيسه باحجه يستعمل م فلوب بده ه لاده ،

---

(١) قال الازدى فى الدول سقطه فى سه ا وجس ر ه ضه سيف لو اخ ناصر الدولة رح ا ه اا كار وا ابعاى عه سوه و ح بعث ه سب الناس صف دنا فى كل د ر ـ دينارا وعسه ن ر سه ه ده كتوب ه الا الله محمد رسول الله امير المؤمنين على بن ابى طالب وصيه هو خب ح عم اسا ؟ وعلى اخاب الآخر اسم له ن سيع ه ع ده ـ ـ ه ه ح نقال إن مبلغ م ح د ه سعياه اب ـ لى

ومن سعادته ان رزق عملاً نافذاً ، ونصره نافذه ، ومالاً كافياً له ، ومن سعادته ان نظل وهو راس الدوله على تمته معارفه ، واهمه الى الرى الذى اسامر الله به فى همدان ، وهو فى طريق القضاء على الناس على الملك كل أولئك زاد فى وزنه وهو فى حقيقته ادب عظيم محدود ، لم تبطره النعمه ، ولا أسكرته نشوه الاماره واقبال الدنيا ، وكان له من تلمذ محده وطريقه ما وفره فى الصدور من الفضائل ومكارم الاخلاق ما أسمعه بالصيت البعيد ، ونعم بما يتمتع به الملوك فى سلطانهم ، وشارك الادبا فى محدهم الادبى ولو رحمت الايام ثروه أدبية خلفها عظيم طالما رحم الناس ، لكان الحكم عليه افصح من هذا

نموذجات من كتابته

كتب ابن العميد الى ابى عبد الله الطبرى لما استحضره عضد الدوله المدادية رامورمس تعد نظره فى سياسه الملوك قال « ووقفت على ماوصفته من بر الامير بك ، وتوفره عليك ، وليس العجب ان يتناهى مثله فى الكرم الى ابعد غاياته ، وانما العجب ان يقصر فى شىء من مساعيه عن نيل المجد كله ، وحيازه الفضل باجمعه ، وقد رجوت ان تكون ما تعرسه احذر عرس بالزكا ، واضمنه للريع والنماء ، فارع ذلك واركب فى الخدمه طريقه تبعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الاكثار والاقلال ، ولا تسترسل الى حسن القبول كل الاسترسال فلأن تدعى من بعد مراث ، خير من ان تقصى من قرب مره ولتكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الاسهاب ، ولا تجد لك بانى كلمه مجرده فملح بك الاطناب توقعاً لمثلها ، وربما هذب ما ، ه الاولى وتصاعك فى الشرب مرجاه وبالعقل نرم اللسان وبلزم السداد ولا تسعر لك

طرب الـكلام على ما يفسد عمرك ، والسماعة لا تعرض لها فانها مجلبة للجاه ، فإن اضطررت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها ، فإن وجدت النفس بالاجابة سمحة ، و الى الاسعاف هشة ، فاظهر ما فى نفسك غير محشو ، ولا توهم ان فى الرد عليك ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، ولكن انطلاق وجهك اذا دفعت عن حاجتك ، اكثر منه عند نجاحها على يدك ، لتحببّ كلامك ولا يثقل على سامعه منك اقول ما اقول غير واعظ ولا مرشد ، فقد كمل الله خصالك وفضلك فى ذلك كله ، لـكن انه تنبيه المشارك ، واعلم ان للذكرى موقعاً منك لطيفاً »

وكتب اليه أيضاً

« كتابى وانا بحال لولم ينغص منها الشوق اليك ، ولم يُرنق[1] صفوها النزاع نحوك ، لعددتها من الاحوال الجميلة ، واعددت حظى منها فى انعم الحالة ، وقد جمعتُ فيها من سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظا من فى جسمى صلاح ، وفى سعى نجاح ، لـكن ما بى ان يخلو لى عيش مع بعدى عنك ، ويحلو درعى[2] مع خلوّى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف اطمع فى ذلك وانت جزء من نفسى [illegible]

حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك وهل تسكن نفس [illegible]

ويمنع انس [illegible] ، وقد قرأت كتابك [illegible]

فاملأت [illegible] الاحظه خطك ، وتأمل تصرفك فى فضلك [illegible]

وكل خصالك مرتبط عندى [illegible]

---

(١) يرنق يكدر (٢) [illegible]

[illegible]

وعقدي[1] ، وأرجو ان يكون حسمه امرك موافقه لمقدري فيك ، فان كان كذلك و الا فقد عطى هواك وما الي على نصري اه » فلما وهذا ن سجوعاته وفيه من المثالعات الفارسيه ما كاد يذهب بهجته وجمل عاطفته ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعده ، وسهل بن هرون ، واحمد بن يوسف الكاتب ، وابن الزيات ، والصولي ، لجاء موضوعه في سطر بن سهلين على السمع والطبع ، مقبولين في العرف والعاده ، لا غلو فيهما ولا اغراق

ركتب اليه فصلا اوله سجع كله لم يفلت منه جمله يدونه الى ان قال وقد ذكر دعواه في العلم وهلك افلاطون نفسه فان ما سمته ن السياسه ؟ فقد قراناه فلم نجد فيه ارشاداً الى قطيعه صديق ، فاحسبك ارسطاطاليس ... ، ان ما رسمه من الاخلاق ؟ فقد رايناه فلم نر فيه هدايه الى ... ن العقوق ، واما الهندسه فانها باحثه عن المقادير ، ولن ... رفها ن يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه اوله ، بل لك في رؤساء العربيه ما ربح و خطرب ، واسا ساحك ، لكن الحب ان يتحقق بالعربيه ن القول دون ... رب ن الفعل ، فقد اعتربت في الذهاب بنفسك الى حيث لا يهدى للرجوع عنه ؟ واما النحو فلن يدفع عن حذق فيه و بصر به ، وقد اخترت تمرينه اوجز اختصار ، ربهلت سبيل تعليمه على من يحملك قدوه ، و ترضى لك أسوه ؟ فبات العذر الباطل وما جرى مجراها مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحَبَهما مخفوض ، رقد نصب الصديق عندك ، ولكن عرضاً ترشق بسهام الغيبه ، وعلماً يقصد بالوقيعه ، ولست بالعروضي ذي اللهجه فاعرف قدر حذقك فيه ، الا اني لا أراك تعرض الكامل ولا وافر ، ولست ... تحب في بحر المجتث حتى تخرج منه الى سطح المتقارب

[1] العقد الضمان والعهد

وكتب الى بعض اخوانه اما اسكو اليك ، جعلني الله فداك ، دهراً خؤوناً غدوراً ، وزمناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح الا ريثما ينتزع ، ولا يفي فيما يهب الا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمماً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرَعاً ثم يمتنع ، وكانت منه سمة مألوفة ، وسجية معروفة ، ان يتبع ما يؤتيه بعرف انتقاص ، ويهدى لما يبسطه وشك انقباض وكنا نلبسه على ما فرط ، وإن خاف منه رسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستديم لقصده وظلمه ، ونعتد من اسباب المسرة ان لا يجى محذوره مصمماً بلا اسراح ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث عن ما عرفناه ، سنة مبتدعة ، وسريعة متبعة ، واعتد لكل صالحة من الفساد حالا ، وفرق لكل حلية من المكروه حلالا ، ومن ذلك ، جعلني الله فداك ، انه كان يقنع من معارضة الايام ، ... فقد امسى ... ويك يجمع ما أوعره ، وما اطمه ... لكان اكثر ما اسره ، واحسبني قد طلبت الدهر ... ولو ... لم يكن قدره عما يحيط به وقدرته ترنو اليه ، ولو الك اغنيه وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، ونعني بنع الحلق ، ولئس فيمن زاد ، ... ثم اعترضت عنى اعتراض غير مراجع ، واطرحني اطراح عنه ... وجدت نفسك اهلا للجميل ... بحدثي هناك ، ... من غير جريمة ، وبكتب ما عهدت من غيرة ... ما هذا الا ... نفسك ، والتعالى على صديقك ، ... طرح المدا ، ... بلفظي من فيك ، ... حلفك ... الا ارد الا ... ، ركيف لا يخطرني ... حصره ... سعدك ...

فيرسل سلاماً إن لم يحسم مكاتبه ، ويذكرني وإن تذكر ان لم يكن محافظه ، واحسب كتابي سيرد عليك ويكره حتى سبب ، ولا يجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى يتذكر ، فقد ضرب عندك من محا الله ان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك ايضاً تعجب من طي فيك وقد ولت ، واستمالي لك وقد ابت ، ولا عجب فقد يسحر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو اقسى منك قلباً فيعود الى الوصال ، وآخر ما اقوله ان ودي وقف عليك ، وحسن في سبيلك ، ومتى عدت الى وحدته غصناً طرياً ، تجربه في المعاودة فإنه في العود احمد

وهذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة أ ، وبادي بال يدرك المتمعن فيها ان ابن العميد لما اطرح في آخرها السجع جود وابدع ، وكان في اولها لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي والصابي من اهل ح له عشاق السجع ، وكان الهمذاني افقهم به نسباً في رسائله لا في مقاماته

رى ال ‌ ‌ ‌ مه ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ رسال ان احسن رسائله الاخوانيات ، ما كانت به ابا الا (السروي) لصدوره عن صدر مائل اليه ، محب له ، مناسب بالادب اياه ،
فصل من رسالة له اليه في شهر رمضان وهو مما لم يسبق اليه كتابي جعلني الله فداك وانا في كد وتعب ، منذ فارقت شعبان ، وفي جهد ونصب ، من شهر رمضان ، وفي العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومنيت بضاعف حرور ، لوان اللحم يصلى ببعضها غريضاً اتى اصحابه وهو منضج ، ومنيت بهواجر تكاد أوارها يذيب دماغ الضب ، وتصرف وجه الحرباء عن التحدي ، وتزويه عن التنصر ، وتصده عن امساك ساق وارسال ساق

واحمد الله على كل حال واساله ان يعرفنى فضل بركته ، ويلهمنى الخير فى باقى ايامه وخاتمه ، وارغب اليه فى ان يعرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، ويقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة سوال فهى أسر الغرر عندى واقربها لعينى ، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السر ، واظلم من الكفر ، وانحف من مجنون بنى عامر ، واضنى من قيس بن ذريح ، وابلى من اسير الهجر ، ويسلط عليه الحَور بعد الكور[1] ، ويرسل على رفاقه[2] الى يعشى العيون ضوءها ، ويحط من الاجسام نوءها ، كلفاً يعمرها ، وكسوفاً يسترها ، ويريه ممنوع النور ، ممنوع الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ، ودرجة مستركة ، ويقص من اطرافه كما يقص النيران من طرف الزند ، ويبعث عليه الأرَضة ، ويهدى اليه السوس ، ويغرى به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجتحفه بالذر ، ويجعله من نجوم الرجم ، ويرمى به مسترق السمع ، ويخلصنا من عاودته ، ويريحنا من دوره ، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصبغ به صبغه بالالوان ، ويبدله بما ينقصه دعوة السارق اذا او صح بصرته ... طلوعه

رحم الله عبداً قال آمينا واستغفر الله جل وجهه ما فاته ان يكرهه ، اسعده من يوفق لما يذمه ، واساله صفحاً ينقصه ، وعمراً ... ، ورحلى بعدما سكونه صالحة ، وعلى ما يحب ويهوى جار به ، والله الحمد بقدسب اسمائه والسكر اهـ

وهذه الرسالة ايضاً لو خلت من السجع والتطويل لكانت ... ى ... ،

---

(١) فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور معناه نعوذ بك من فساد أمورنا بعد صلاحها

(٢) ... كتاب الخبر ... ، لواحد ...

قال الثعالبى وقد أجمع اهل البصيرة فى الترسل على ان رسالته التى كتبها الى ابن بلكا ببغداد حوزتسد عند استعصائه على ركن الدولة عرة كلامه وواسطة عقده ، وما ظنك بأجود كلام لابلغ امام ؟ قال فصل من أولها كتابى وانا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، واقبال عليك ، واعراض عنك ، فانك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وادنى ذلك يحبط اعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ؛ لا جرم انى وقفت بين ميل اليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وابسط يداً لاصطلامك واجتياحك[2] ، وانثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، واتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك[3] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الراى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويتكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة الى رخاء ، وكل غمرة فالى انجلاء ، وكما انك أتيت من اساءتك بما لم تحتسبه اولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من احسانك بما لا ترتقبه اعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب ان تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الاناة والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستبطاء والمطاولة ما امكن طمعاً فى انابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك

(١) الغلول الخيانة فى المغنم خاصة وآنف جمع أنف

(٢) الاجتياح كالاصطلام الاستئصال (٣) الفيئة الرجعة

ولست اعدم فيما أُظاهره من اعذار ، واراده من انذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فان شاء الله رشدك ، و اخذ بك الى حظك و سددك

ثم نقل الثعالبي فصلا آخر من الكتاب وختمه بقطعة منها جاء فيها « تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل تحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ماحنا عليك هل تجد فى عرصها قلبك ، وهل حلى بصدرك ان تظفر بموت سريح[1] ، او موت مريح ثم قس غائب امرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله » قال الثعالبي بلغنى عن ابن بلكا ، وكان آدب امثاله ، انه كان يقول والله ما كانت لى حال عند قراءة هذا الفصل الا كما اشار اليه الاستاذ الرئيس ، ولقد نابت كتابته عن الكتائب فى عرك اديمى ، واستصلاحى وردى الى طاعة صاحبه

وقال الثعالبي فى المضاف والمنسوب وقرأت فى رسالة لابن العميد الى ابن سمكه « حرب ، جعلت فداءك ، ما قبله ، واحسبنى فيما ادعيته ، فان لم افعل فدمى حلال لك ، فاقتلنى بسيف الفرزدق ، وكأنى بخل وخردل » وسيف الفرزدق يضرب مثلاً للسيف الكليل بعد الجبان

وقال صاحب التتمة ايضاً وقرانى ابو الحسن محمد بن الحسن الفارسى النحوى ، وقد اجتمعنا باسفرا بن بعد رجعتها انى ابا الفضل بن على ، فصلاً من كتاب لابن العميد الى عضد الدولة كتب ترجمته عليه وانا عنه عقل ، فهوى على سرقه فى حسنه ، وحركت منى ساكناً معجباً بحسنه ، معجباً من ماسه معنه وبراعة لفظه ، وهو وقد بعد اهل التحصيل فى اسباب انقراض العلوم وانتقاص مددها ، وانتقاص بزرها[2] ، الاحوال الداعية الى ارتفاع حل

(١) سهل (٢) البر و الحلق وسدة ح عهر واصـ ار

الموحود مىهـا ، وعدم الرناده فىها الطوفان بالنار والماء ، والوىان العارص من عموم الوىاء ، وىسلط المخالفىن فى المذاهب والآرا ، فان كل دلك ىحترم العلوم احتراماً ، وىدىهكها انتهاكا ، وىحب[1] اصولها احتثاثاً ، ولابس — عىدى — الخطب فى حمع دلك ىمارب ما ىولده ىسلط ملك حاهل ىطول مدىه ، وىىسع قدرىه ، فان البلاىه لا ىعدله ىلاء ، وىحسب عظم المحىه ىمن هذه صفىه ، والىلوى ىمن هذه صررىه ، ىعظم النعمه فى ىملك سلطان عالم عادل ، كالامير الجليل الذى احله الله من الفصائل ىملى طرفىها ، وىحمع فرفىها ، وهى ىوارٍ ىوافر[2] ممن لاىف حى ىصىر الىه ، وىسرد ىوارع حىب حلب حى ىمع علىه ، ىلىفب الىه ىلفُب الوامق ، وىىسوف ىحوه ىسوف الصب العاسق ، قد ملىكىها وحسه المُصاع ، وحىره المرتاع

فان ىمس ىوماً ىسـده او ىرورهم ـــ فـكالوحس ىدنىها ىن الآنس المحل

ولاىن العمىد حكم وامىال اسىحرحها العارفون من رسائله ، ومىها الرىب لا ىبلع الا ىىدرح وىدرب ، ولا ىدرك الا ىىحسم كُلفه وىَصَب ، راس المال حىر من الربح ، والاصل اولى بالعناىه من الفرع ، المر اسىه ىىء ىرماىه ، وصعه كل رمان مىسىحه من سحاىا سلطاىه ، قد ىىدل المرء ماله فى اصلاح اعداىه ، فـكىف ىدهل الىاقل عن حفظ اولىاىه ، هل السىد الا ىن ىهاىه ادا حصر ، وىعاىه ادا ادىر ، الاىفاء على حدم السلطان عِدل[3] الاىفاء على ماله ، والاسفاق على حاسىه وحسمه ، ىل الاسىاق على دىىاره ودرهمه ، المرح والهرل باىان ادا فىحا لم ىعلقا الا ىعـد العسر ، والحلان ادا أُلفحا لم ىىحا عن

---

(١) الحب القطع (٢) ىرا وىب

(٣) العدل ىكسر العىن واسكان الدال المىل

السر من امرّ دا ه ، وكيم طماه ، بعد علمه أن نُبل من علاه ، و بل ب
علاه حير العول ما أعماك حده ، والهالك هرله

وقال سعى للملك ان سطهر على اعدائه سمه أحباس من الناس ،
فيحد الاحرار عُدَد ملكه ، والاعراب أُمنا حسه ، والديلم اركان حده ،
والحُل[1] حرات عسكره ، والاتراك حواص اصحابه ، والهند حراس فلاعه ،
والاكراد علفاً[2] لسيوف أعدائه

ومن كلامه قد يسمح الانام بما يمنع ، ويتساهل ثم يقطع ، ويعدل الى طه
بالرريه ، رالحره المحه ، ولها عراب سدر ، وعملات تُشهر العلوب اوعمه
سرحها الرفق ، و بسطها اللطف ، و بمسحها الحرص ، و اذا يجور بها هده الخلال
الى الاستكراه والاملال ، حرحت عن احتواء علم ، وصافت عن ضط فهم ،
وفاضت بما تستودع وذم من حيرك مالا تنفعك باحره ، واحصد السر فبل
استفحاله ، وذم الملل ما دام العصر عصاً بمل التقويم ، وربطاً يطمع الاسه ف ،
ولا يتعطر به الْ شُوهُ[3] والامساع ، وداوِ فتقاً تبهره الانام حرقاً ان تركته ،
وارات سـ اً[4] ر ده الدهرُ رهاً ان اعملته

ولابن الـ ـد ـسـ ر و ه كثير من سعوره ودا ل على علو كعبه في الادب ،
وقد ذكر الثعالبي في كتابه خاص الخاص ان من اطرف سعره قوله ى غلام و ا
على راسه بطلله من السمس

قامت بطللى من السمس نفسٌ اعز عليَّ من نفسي
قامت بطللى و ن عحب شمس تطللنى من الـ ـس

---

(١) الحل كسكر كدر ما ورا السـ
(٢) عس اعلف واسع وسف اعلف ين امعف وقوس سعد في عا ف
(٣) العسو العلط والنس (٤) أصلح اصدع

وقوله فى مداد اهداه له صديق

يا سيدى وعمادى	امددتنى بمدادِ
كمسكِكَ جميعاً	من ناظرى وفؤادى
او كالليالى اللواتى	رميتنا بالبُعاد

ومن قوله

متى علقت نفسى حبيباً تعلقت	به غِيَرَ الايام تسلُبنيه

وقال

وسائلك الغنى فلم ترى لها	أهلاً وحسب بقدره سوها
وردت بموّهه فلم ترفع لها	طرف ولم ترزق من الاصغا
واعار منطقها الندم سكته	فتراجعت تمشى على استحيا
لم تشف من كمد ولم تبرد على	كبد ولم تمسح حواشب دا
داوت حوىً بحوىً وليس بحازم	من يستكف النارَ بالحلفاء

وقال

فلو ان ما اتعب من حسن قدى	فى الناس لم تمنع من الاعطا

وقوله فى الاقارب

آخ الرجال من الاباعد والاقارب لا تقارب	
ان الاقارب كالعقا	رب بل أضر من العقارب

ولابى الفضل على روايه ابن النديم من الكتب كتاب ديوان رسائله ، وكتاب المذهب فى البلاغات ، وذكره ابن صاحب النعمان فى الشعراء الكتاب وقال ان له خمسين ورقه

المستدركات

الاستدراك الأول

ص ١٥

معنى « قاطيغورياس » المقولات او القياس على ما فى الفهرست لابن النديم ، ومعنى « بارى ارمانياس » العبارة و « انالوطيقا » تحليل القياس ولهم مصطلحات اخرى كان العرب يستعملها بلفظها اليونانى مثل « أبودقطيقا » وهو « انالوطيقا » الثانى ومعناه البرهان و « طوبيقا » و معناه الجدل و « سوفسطيقا » معناه المغالطة اوالحكمة المموهة و « ريطوريقا » معناه الخطابة و « ابوطيقا » و يقال « بوطيقا » معناه الشعر ، والثالوجيا معناه الربوبية

الاستدراك الثانى

ص ١٦

مما يدل على ان ابن المقفع كتب كليلة ودمنة مباشرة ، ولم ينقله عن الفهلوية بل اوجد بعض الحكايات والبسها ثوباً عربياً ، وزاد فيها ونقص حتى ما يكاد يعرف — انك ترى حكماً فى كليلة ودمنة أوردها بلفظها او بمعناها فى بعض رسائله و يستدل ايضاً على صحة ذلك ان فى كتابه عبارات من الفاظ اسلامية ، ومصطلحات اسلامية ، ومبادئ اسلامية ، مثل قوله بالقضا والقدر والاحتجاج على الاقدار فى مواضع كثيرة وقد يضمن معنى الآية او الحديث او الحكمة أو البيت من الشعر فى كلامه ، وقد يأخذها بنصها

يقول صاحب الفهرست إن لكتاب كليلة ودمنة جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب بيت الحكمة والمرثد الأسود الذي استدعاه المتوكل فى أيامه من فارس ولعله يقصد بقوله جوامع وانتزاعات أنهم اختصروه

الاستدراك الثالث

ص ١١٧

عزا ياقوت فى معجم الادبا وابن عساكر فى تاريخ دمشق الحكم التى وردت فى الدرة اليتيمة فى باب الصديق لخالد بن صفوان وهى بهذا النص فى الترجمتين « ابذل لصديقك مالك ، ولمعرفتك بشرك ومحلك ، وللعامة رفدك وحسن محضرك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل احد » وخالد بن صفوان متقدم على ابن المقفع وذكر هذه الحكم ابن حبان البستى فى كتابه « روضة العقلاء » واوردها كأنها من كلامه ، والمأمول أن تنبه همة بعض الباحثين فيردوا مثل هذه الحكم الى قائلها الاول

الاستدراك الرابع

ص ١٣١

كتب ابن المقفع الى بعض اخوانه « اما بعد فتعلم العلم ممن هو اعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فانك اذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت

وقال لا تحدث من تخاف تكذيبه ، ولا تسال من تخاف منعه ، ولا تعِد

ما لا يريد المحاره ، ولا يضمن ما لا يثق بالقدره عليه ، ولا يرح ما يعف برحائه ، ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه

وقال لبعض اخوانه اذا صاحب ملكاً فاعلم انهم يسبونك الى قلة الوفاء فلا يسعرن قلبك استبطاءه ، فانه لم يسعر احد قلبه (سيئاً) إلا ظهر على لسانه ان كان سخيفاً ، وعلى وجهه ان كان حليماً

الاستدراك الخامس

ص ١٤٣

من اروع الكلام ما جمع به ابن المقفع « الدره اليتيمه » في وصف الرجل الكامل في قوله « اني مخبرك عن صاحب كان اعظم الناس في عيني »

وفي روايه « مصباح الافكار » زياده على روايتنا جاءت بعد « ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأثر عند نعمه ، ولا يستكين عند مصيبه وكان خارجاً من سلطان الجهاله ، فلا يقدم الا على ثقه بمنفعه الخ » وزيادته في آخر الجمله « ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته » وروايتنا « بشيء من اهتمامه بحيلته وقوته » والروايه الاولى اصرح

وقد أورد الرضي في نهج البلاغه هذا الوصف ، ونسبه لعلي ابن ابي طالب بتحريف وزياده ، والزياده قوله « وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل ، وكان ان غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، وكان على ما يسمع احرص منه على ان يتكلم ، وكان اذا بدهه امران نظر ايهما اقرب الى الهوى فخالفه » وهذه المعاني وردت في كتب اخرى بكلام ابن المقفع

واورد ابن قتيبه في « عيون الاخبار » وصف الرجل الكامل نصاً من كلام

ابن المقفع ، ونسبه للحسن بن على مع تحريف ، ولكن بألفاظ ابن المقفع ، واضاف الى قوله « وكان اذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت وكان إذا عرض له امران لا يدرى ايهما اقرب الى الحق نظر اقربهما من هواه فخالفه » وهذه الجملة وردت فى اليتيمة بحسب روايتنا هكذا « اذا بدهك أمران لا تدرى ايهما أصوب فانظر ايهما اقرب الى هواك فخالفه ، فان اكثر الصواب فى خلاف الهوى »

ورجح ابن عبيد هذا الكلام الى على بن ابى طالب او الى الحسن بن على هو من فعل بن اضافوا على كلام امير المومنين ما ليس منه سامحهم الله فان نص عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بانه عرف رجلاً هذه صفاته الحسنة فوصفه ، ولا نعقل ان ياخذ كلاماً لغيره و يستحل نسبته اليه خصوص اذا كان ن الكلام المأثور المعروف صاحبه ، ثم ان يتيمة اشتهرت قبل ان يؤلف نهج البلاغة بسحر قرنين ونصف و يؤيد قولنا هذا ظهور الصنع مائلاً للعيان ، ومن الصنع ادماج سحبان فى هذه الجملة الجميلة حاشا امير المومنين ان يسف فى كلامه الى مثلها وهو من كبر الفصحاء بعد صاحب الرسالة عليه السلام

لا جرم ان نهج البلاغة زيدت فيه زيادات كثيرة بعد عهد الرضى ايضاً ، وهو الذى قال انه جمعه من كلام على ، والحال ان أكثره من كلام فصحاء الشيعة وغيرهم بدليل الاختلاف العظيم فى نسخه ، وقد اعترف ابن ابى الحديد شارح نهج البلاغة بان ما عزى الى امير المؤمنين هو من كلام غيره من الحكما ، لكنه « كالنظير لكلامه والمضارع لحكمته ! » قال « وانى اعرض بالكتاب الادب والحكمة ، فاذا وجد ما يناسب كلامه ذكره على قاعدته فى ذكر النظير ! » وان الرضى قال « ان روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً »

إذا عرفنا هذا ساغ لنا ان نقول ان صفة الرجل الكامل الذى عرفه ابن المقفع قد استحسنها بعض المتأخرين فادمجوها فى الكتاب الذى كسروه على كلام الخليفة الرابع ، وقد وقف لصاحب النهج بعض حكم حور صيغها الى كلام أمير المؤمنين ، وهى أشبه بأن تكون لغيره ، ومن ذلك ما نسبه لعلى وهو لابن المقفع « للمؤمن ثلاث ساعات فساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يرم فيها معاشه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، وليس للعاقل ان يكون شاخصاً الا فى ثلاث مرمة لمعاش ، او خطوة فى معاد ، او لذة فى غير محرم » فان هذه الحكمة وردت فى الادب الصغير لابن المقفع (ص ١١٩ من امراء البيان) وعلى صورة اجمع وامتع

الاستدراك السادس

ص ٢٣٩

كتب احمد بن يوسف لولا حسن الظن بك ، اعزك الله ، لكان فى اعصابك عنى ما به غنى عن الطلبة اليك ، ولكن أمسك برمق من الرجا على ترايك فى رعاية الحق ، وبسط يدك الى الذى لو قصينا عنه ، لم تكن له الا كرمك مذكراً وسوددك شافعاً

وكتب الكريم اوسع ما يكون مغفرة ، اذا صاقت بالمذنب معذرته

الاستدراك السابع

ص ٢٦٨

كتب ابراهيم بن العباس المودة تجمعنا تجمعها ، والصناعة تؤلفنا اسبابها ، وما بين ذلك من تراخ في لقاء ، أو تخلف في مكاتبة ، موضوع بيننا يوجب العذر فيه

الاستدراك الثامن

ص ٢٨٣

لما وثب ابراهيم بن المهدي على الخلافة ، اقترض من مياسير التجار مالاً فاخذ من عبد الملك الزيات أبي محمد بن عبد الملك عشرة آلاف دينار ، وقال اردها اذا جاءني مال ، ولم يتم امره واستخفى حتى ثم ظهر ، فطولب بالاموال فقال انما اخذتها للمسلمين ، واردت ان اقضيها من اموالهم ، والامر الى غيري ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب بها المأمون ، و بعث الى ابراهيم بن المهدي فاقرأه اياها وقال والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من ابي لاوصلن هذه القصيدة للمأمون فهاب ابراهيم ان يقرأها المأمون فقال خذ بعض المال ونجم بعضه ففعل ، واحلفه ان لا يظهر القصيدة في حياة المأمون ، ووفى له بالمال ولذلك كان ابراهيم بن المهدي يشنأ محمد بن عبد الملك ، ولما ولي وزارة المعتصم قال ابراهيم

يا يوس يوم كاسف ان لم يُعبر في عده
لامـــه ووزيرها عاصر ربت بمده
يظهر نصحاً وجهه وغشه في كبده

الاستدراك التاسع

ص ٣٦

ىهرل ابن أبى الحديد اتفق سوحا (اى المعتزله) كافه رحمهم الله ، المتقدمون منهم والمتاخرون ، والبصريون والبغداديون ، على ان بيعه ابى بكر الصديق بيعه صحيحه شرعيه ، وانها لم تكن عن نص ، وانما كانت بالاختيار الذى ثبت بالاجماع وبغير الاجماع كونه طريقاً الى الامامه ، واختلفوا فى التفضيل فقال قدماء البصريين كأبى عثمان عمرو بن عبيد ، وابى اسحق ابراهيم بن سيار النظام وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وابى معن ثمامه بن اشرس ، وابى محمد هشام ابن عمر الفوطى ، وابى يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام ، وجماعه غيرهم ان ابا بكر افضل من على عليه السلام وهؤلاء يجعلون ترتيب الاربعه فى الفضل كترتيبهم فى الخلافه

الاستدراك العاشر

ص ٤٧٨

قال الجاحظ ان العرب تمدح السخى وتذمه لكنهم لا يمدحون الا ى من الوجه الذى يذمونه به من جنس فصاحتهم

قال المامون ما هجى ابراهيم بن المهدى ، فيما ادعاه ، على كثره هجائه باشد من قول الجاحظ فيه « هو خليفه اذا خطب رأى آخر عمله » اى ان ماسكه من الصغر بحيث لا يجاوز رقعها مدى صوت الخطيب و طرفه

اتى ابو العيناء الجاحظ سأله فى رجل ان يكتب له كتاب عنايه الى صاحب البصره ، فقال نعم ، لا يصرف الا به ، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه

ودومه الىه ، وأتى الى أبى العساء بالـكتاب فقال أقصصه واقرأه عَلى لارى ما كتب وأعمده الىه لىحىمه ، فىسحه فاذا فىه « كتابى الىك ساالى فىه ن أحاقه لمن لا اعرفه ، فافعل فى امره ما راه والسلام » فعصب ونهض الى الجاحظ ، فقال أعرفك ناعسانى ىهذا الرحل وكتب له مثل هذا فقال لا ىىكر ذلك فإنها اماره ىنى و ىىىه ، اذا عىب برحل فقال بل اىب ولد رىا لم ىكن قط لرسده قال اىسمى قال لانها اماره لى عمد السماء على اىسان

قال الجاحظ فى الخصى عسره احوال متضاده ، لم يخرج من ظهره مو ن ، ولا حرج من ظهر موس ، وهو اكىر الناس عىره ، واسدهم قماده ، وهو اص مه الناس معده ، وأسرههم على طعام ، وهو اسوأ الناس ادباً ، وهو ىعلم الادب ، وهو اعىر الناس دمعه ، وأقساهم قلباً ، وما حلا قط مع امرأه الا حدىىه ىفسه أنه رحل ، ولا حلا مع رحل الا حدىىه ىفسه انه امراه

فهرس الجزء الثاني